رجل من الماضي

مائةُ عامٍ في الفضاءِ

رياض حلايقه

الطبعة الثانية

obeikan.com

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثانية
الكتاب : رجل من الماضي مائةُ عامٍ في الفضاءِ
المؤلف : رياض حلايقه
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج عام : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١١٠٤٠ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 408 - 7

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رجل من الماضي

حدثتْ هذه الروايةُ في عددٍ من مدنِ ولايةِ نيوجيرسي الأمريكيةِ وخاصَّةً في مقاطعةِ هدسون من الولايةِ.

قد تكونُ هذه الروايةُ غريبةً وغير مسبوقةٍ عربياً، المدن والأماكنُ موجودةٌ وحقيقيةٌ تمامًا، الأحداثُ والأسماءُ والعاداتُ والتقاليدُ أمريكيةٌ.

الروايةُ خياليَّةٌ جُملةً وتفصيلاً، ويمكن أنْ تندرجَ تحت الخيالِ العلمي؛ فهي اجتماعية بوليسية ورومانسية أيضًا.

رياض حلابفه

obeikan.com

لمحة

عمرُك؟ – سأله المحقق –.

لم يُجب الرجلُ، وبقيَ صامتًا.

ألم تسمعْ السؤالَ؟ كم عمرُك؟

نظر الرجل للمحقق نظرةً عدائيَّةً مشوبةً بالخوف والحذر.– خمسةٌ وأربعون عاماً.

لا يبدو عليك ذلك، لماذا تكذب؟

إنها الحقيقةُ يا سيدي، وُلِدْتُ عام ١٨١٥.

–نظر الرجل إلى التقويم الذي أمامه على المكتبِ وعندما قرأه ١٩٨٥/٦/١٥م انتابه شعورٌ بالدهشةِ المشوبةِ بالضيقِ، واعتقد أنَّ الرجل الذي أمامه مجنونٌ، أو ربَّما يكون صيداً ثميناً.

من أين أنتَ؟ أين مكانُ إقامتك الحالي؟

احتار الرجلُ لا يعرفُ بماذا يجيب؛ فقريتُه التي غادرها قبل شهورٍ قليلةٍ – كما يعتقدُ– لم يعدْ لها وجودٌ.....

obeikan.com

مدينة جيرسي ١٩٨٥

كان السيد روبرت، كعادته كلَّ صباحٍ وفي تمام الساعة السابعةِ يفتح أبواب مقهاه الذي يُشرِفُ علىَ الشارع الرئيسي –شارع فرانكلين– في وسط المدينة، كان المقهى في الدور الأرضي من بنايةٍ مؤلَّفةٍ من خمسةَ عشرَ طابقًا، والمقهى يرتفعُ عن الشارع ما يقاربُ المتر أو يزيد قليلاً، أمامه صالةٌ مكشوفةٌ، فيها أربعُ طاولاتٍ، يحيطُ بكلِّ طاولةٍ أربعةُ كراسٍ من المعدن مُنجَّدةٍ بالقماش المخملي أرجواني اللون، وتتزين الطاولاتُ بقماشٍ أبيض، يُطوِّقُ الصالة الأماميةَ قضبانٌ من الحديد الأسود المُزركش برسوماتٍ جميلةٍ تُوحي بالأبَّهِة والرقي، والصالةُ تتصلُ بالشارعِ بستِّ درجاتٍ من الرخام الإيطالي الأسود (البازلت) فيما يغلق الصالة بابٌ من الحديدِ ذاته.

أمَّا المقهى من الداخل فهو عبارةٌ عن صالةٍ واسعةٍ، تناثرَ فيها عددٌ كبيرٌ من الطاولات بنظام يُوحي بالخصوصيةِ العائلية، والصالةُ الداخليةُ مُكيَّفةٌ بنظام حديثٍ يعمل تلقائياً بحيث يُشعرُك بجوٍّ من الرطوبةِ المحببةِ صيفًا والدفءِ المشوبِ برائحةِ المشروباتِ والدخانِ المنبعث من سجائر الروَّاد وأنفاسهم، إضافةً إلى الصخب الذي يتردَّدُ دائماً فيخفت تارةً ويتصاعدُ أخرى.

كان يؤمُّ الصالةَ الداخليَّةَ ما هبَّ ودبَّ من الرجال والنساءِ، الهاربين من المشاكلِ الزوجيَّةِ وضنك العمل، فيما يؤمُّ الصالةَ الخارجيَّةَ الشبابُ.

بعدما أوقفَ مستر روبرت سيارتَهُ –من نوع (فورد) موديل ٨٠ – السوداء في مكانِها المعتاد بناصيةِ الشارع ألقى نظرةً خاطفةً نحو مدخل المقهى، أحسَّ بقشعريرةٍ تسري في جسده؛ شاهد كيساً أسود كبيراً مُمَدَّداً أمام المقهى.

تَسَمَّرَ السيد روبرت مكانه كأنَّه صنمٌ، ولم يأتِ بأيِّ حركةٍ لبعض الوقت، تذكَّرَ أنَّه شاهد ما يُشبه ذلك الكيس في الأخبار كثيراً– إنَّه كيسُ حفظ الجُثَثِ والأموات بلا شك– تمتمَ روبرت، واعتقدَ أنَّ أحدهم قتل شخصاً ما، ووضعه في كيس، وألقاهُ أمام المقهى ليُوقع بهِ، لكنْ ليس لي أعداءٌ إطلاقًا– قال روبرت، لا بُدَّ من الاتصالِ بالشرطة.–

السيد روبرت رجلٌ ذو قامةٍ قصيرةٍ بعض الشيء مكتنزُ الجسم، حليقُ الذقن والشارب، طويلُ السالفين، أصلعُ الرأس، وجهُه مستَديرٌ ناعم يُشبه وجهَ امرأةٍ، ذو أنفٍ أفطسَ دقيقٍ، بعينين صغيرتين خائفتين.

بدا عليه الرعبُ، ولم يتمالكْ نفسَه ليخرجَ من السيارةِ؛ ليُلقي نظرةً على ذلك الكيس، على الفور أخرجَ هاتفه النقَّالَ واتَّصلَ بالشرطة.

خمسُ دقائقَ مرَّتْ ثقيلةً وطويلةً ومستر روبرت يحبسُ نفسَه بالسيارةِ، وهو يراقب ذلك الكيس ريثما حضرتْ الشرطةُ، خرج من السيارةِ ووقف بجانبها واجماً، لم يتقدَّمْ قيدَ أُنملةٍ للحظاتٍ، وأصبحتْ باحةُ الشارع أمام المقهى تعجُّ بالشرطةِ والأطبَّاءِ الشرعيين وخبراء رفع البصماتِ والتقاط الدلائل والمصورين، وتمَّ إغلاقُ الشارع، طلبتْ الشرطةُ من السيد روبرت فتحَ باب المقهى، تقدَّمَ النقيبُ جاك وانهالَ عليه بالأسئلةِ.

المحقق: متى أغلقتَ المقهى ليلةَ أمس؟

روبرت: حوالي الواحدة بعد مُنتصفِ الليل.

المحقق: هل رأيتَ شيئاً مشبوهاً أو غير طبيعيٍّ في المقهى أو خارجه كشجار بين الزبائن مثلاً أو غيرَ ذلك؟

روبرت: لا سيدي، كلُّ شيءٍ كان طبيعيًّا.

المحقق: متى وصلتَ صباحاً إلى هنا؟

روبرت: السابعة تماماً كالعادة.

المحقق: ماذا شاهدتَ عندما وصلتَ إلى هنا؟

هل كان هناك أشخاصٌ أو سياراتٌ تقفُ بالشارع؟

روبرت: كلا يا سيدي، عندما أوقفتُ السيارة التفتُّ إلى باب المقهى؛ فشاهدت كيساً أسودَ مُمدّداً أمام المقهى، اتَّصلتُ بكم على الفور؛ لأنَّه وقع الرعبُ في قلبي وتصلَّبتْ قدماي، ولم أستطعْ الخروجَ من السيارةِ.

المحقق: حسناً، سيتمُّ إغلاقُ المقهى لبعضِ الوقتِ.

روبرت: كم من الوقت سيُغلقُ يا سيدي؟ إنَّه مصدرُ رزقي الوحيدُ.

المحقق: لا تخفْ، لن يطولَ الأمرُ.

روبرت: أتودُّ تناوُلَ كأسٍ من الويسكي؟

المحقق: لا، شكراً لك، أنا لا أشربُها.

روبرت: على حسابي يا سيدي.

المحقق: لا أشربُها البتَّةَ.

روبرت: إنَّها لذيذةٌ ومنعشةٌ في الصباح سيدي.

المحقق: إنَّها تجعلُ منك حيواناً.

روبرت: عفواً سيدي!

المحقق: الفرقُ بين الإنسان والحيوانِ هو العقلُ، وإذا شربتُ الخمرةَ فإنَّها تُذهبُ عقلي وأصبحُ كالحيوان تماماً بلا عقلٍ؛ لذا أنا لا أشربُها أبداً؛ لقد شاهدتُ زملائي عندما يثملون في حالةٍ مزريةٍ جدّاً.

روبرت: كما تُريدُ يا سيدي.

المحقق: عليك المغادرةَ، سنُخلي سبيلَك بضمانِ عنوانك، أين تسكُنُ سيد روبرت؟

روبرت: تفضَّلْ سيدي، هذه كلُّ المعلوماتِ عني. -وأعطاه بطاقة تعريفٍ خاصَّةً به.-

كانتْ الشرطةُ تقومُ بعملها؛ إذ يقوم شرطيٌّ بفحص الكيس بجهازٍ أشبه بمصباح يدويٍّ كبيرٍ، فيما كانتْ الكلاب البوليسيَّةُ تشمُّ هنا وهناك حول مكان الكيس الأسود، فتح الشرطيُّ الكيسَ بحذرٍ شديدٍ، تفاجأتْ الشرطة عندما شاهدتْ الجثَّةَ، كان رجلا متوسط العمر كأنَّهُ نائمٌ بجسده العاري تماماً بلونٍ شاحبٍ، وفي بطنِه جرحٌ تماثلَ للشفاء، لا توجدُ آثارٌ للدماء أو الجروحَ أو القتلِ أو حتَّى رائحةُ الموتِ، كانتْ تنبعثُ من الجثةِ رائحةُ الزعفران أو ما شابهَ ذلك.

تمَّ التقاطُ الصورِ وجمعُ الدلائلِ، ونُقلتْ الجثةُ للتشريح.

لم يتعرَّفْ أحدٌ إلى الجثة، ولم يسألْ عنها أحدٌ أيضاً، وتبيَّنَ بالتشريح أن الجثةَ محنطةٌ بحنوطٍ غريبٍ لا يُوجدُ مثلُه في البلاد، احتفظَ الحنوط بالجثةِ سليمةً؛ ما جعل الجثَّةَ تبدو كأنَّها لرجلٍ نائم وبشرتُهُ طريَّة، وملمسُها ناعمٌ، رائحتُها غير نتنةٍ أشبه ما تكونَ برائحةِ الزعفران، أكَّدَ الطبيبُ الشرعيُّ بأنَّ صاحبَها أُجريتْ له عِدَّةُ عملياتٍ جراحيةٍ في القلب والعيون، وأنَّ ثَمَّةَ شكًّا كبيرًا في تاريخ الوفاة، لكنْ من المؤكَّدِ أنَّ الرجلَ ماتَ منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ.

طلب النقيبُ جاك من المشفى الاحتفاظ بالجثةِ حتى انتهاء التحقيق ومعرفةِ صاحبها أو أقاربِه.

٢

بعد أيام ثلاثةٍ وفي الصباح كان ثلاثةُ شبابٍ يجلسون أمام المقهى على الطاولةِ رقم – ١– التي تُوجدُ في الركن الأيمن للمدخل في الصالةِ الخارجيةِ للمقهى والمحاصرةَ بشبكٍ من الحديد؛ إذ لا يُوجدُ طريقٌ لها إلَّا من البابِ الرئيس، بدأتْ الحياة تدبُّ في الشارع بشكلٍ غريب، كان الشبابُ يجلسون على تلك الطاولةَ، يحتسون البيرةً ويتحدَّثون في مرحٍ وسرور، ويُراقبون المارَّةَ والسياراتِ التي بدتْ كسيلٍ مُتدفِّقٍ، يتبادلون أطرافَ الحديثِ، وكلٌّ منهم يروي مُغامراتِه الصبيانيَّةَ مع صديقته أو حبيبته، وهم في سعادةٍ لا مُتناهيةٍ.

في غمرةِ تلك السعادة حدَثَ أمرٌ مروِّعٌ؛ تقافزَ الشبابُ عن الكراسي، وأحدثتْ الطاولةُ التي قُلبتْ أرضاً ضجَّةً كبيرةً؛ إذ تَدَافَعَ كلٌّ منهم مُحاولاً الهربَ مُحدِثينَ صخباً كبيراً؛ فوقعتْ الزجاجاتُ والأكوابُ، وسُكبتْ البيرةُ على الأرضِ، وهربَ

مَـنْ يجلـسُ علـى الطـاولات المُجـاورةِ، وأطـلَّ رُوَّادُ المقهـى مـن الداخـل لاسـتطلاعِ الأمـر وسـط فوضـى عارمـة، فشـاهدوا رجـلاً يرتـدي ملابـسَ رُعـاةِ البَقَـرِ يقـفُ بجانبهـم كأنَّـه نـزلَ مـن السماء.

ظهـرَ علـى الرجـلِ الاسـتغرابُ والدهشـةُ بوجـهٍ فـزعٍ يكتنفُـه الخـوفُ والغضـبُ أيضـاً، ولم ينبـسْ ببنـتِ شـفةٍ للحظـاتٍ حَتَّـى هـدأ الجميـعُ ومـا زالـوا في ذهـولٍ محمـومٍ.

وقـف الشـبابُ والآخـرونَ بشـكلٍ حـذرٍ ينظـرون للرجـل الوجـلِ، عندهـا تسـاءلَ الشـبابُ:

من أينَ جاء هذا الرجلُ يا ترى؟

هل سقطَ من السماءِ حقاً كما رأيناه؟

هل خرجَ من الأرض؟

أم أنَّ هناك الكاميرا الخفيَّةَ تتلاعبُ بنا؟

كان الرجـلُ ينظـر يمينـاً وشمـالاً ويُحـدِّقُ بمَـنْ حولـه، ثـم رمـى الشـبابَ بنظـرةٍ مُتفحِّصـةٍ وقـال لهـم بعـد أنْ صـكَّ أسـنانَه وضغـطَ بقـوَّةٍ علـى رأسِـهِ بيديـه:

لو سمحتُم يا سادةُ، ما اسمُ هذه البلدة؟

قـال أحدُهـم والخـوفُ يسـيطرُ عليـه: اسمُهـا جيرسـي يـا سـيدي.

تجهَّـمَ وجـهُ الرجـلِ وازدادَ امتعاضـاً وقلقـاً، وأخـذ يحـدِّثُ نفسـه، فيمـا كان الشـبابُ علـى حالِهـم مـن الخـوفِ والدهشـةِ، قـال مُتمتمـاً: جيرسـي! ليـس هـذا اسمُهـا! رُبَّمـا حـدث أمـرٌ مـا!

لكـنْ أيـنَ النـاسُ الذيـن أعرفُهـم؟ مـاذا حصـل للبلـدةِ في غيابـي؟ مَـنْ هـؤلاء الفتيـةُ الغريبـون بمظهرهـم كأنَّهـم فتيـاتُ مَلهًـى ليلـي؟

كان الرجـلُ يجـولُ بعينيـه مُتفحِّصـاً كلَّ مـا حولـه، ثـمَّ خـرجَ تـاركًا البقيَّـةَ في دُوَّامـةٍ، وهـو فريسـةُ الألمِ والحـيرةِ الشـديدةِ مُتخوِّفـاً مـن أنْ يتعـرَّفَ عليـه أحـدٌ مـن النـاسِ.

توجَّـهَ صـوبَ المَـزارع خـارجَ البلـدة لعلّـه يتعـرَّفُ عليهـا، أو يقابـلُ هنـاك أحـداً يعرفُـه؛ فيشـرح لـه حقيقـةَ الأمـرِ، وعندمـا اقـتربَ مـن مزرعـةٍ يعرفُهـا تمامـاً شـبراً بشـبرٍ جلـسَ علـى الأرضِ، أخـذَ يتلمَّـسُ الـترابَ ويُقبِّلُـه ويتمتـمُ مُجهشـاً بالبـكاء والحنـين وقـد نفـدَ صـبرُه.

أعـاد الرجـل نظـرَهُ صـوبَ البلـدة الكبـيرةِ وقـرَّرَ العـودةَ إليهـا؛ ليسـتقصيَ الحقيقـةَ بعدمـا تعـرَّف إلى مزرعَتِـهِ الـتي طالَمـا عمـلَ فيهـا مـع زوجتـه وابنتـه مُحـاولاً العثـورَ علـى عائلتـه بـكلِّ مـا أُوتـيَ مـن قـوَّةٍ، وعـاد أدراجَـه إلى البلـدةِ، كان الهـدوءُ قـد عـاد للمقهـى، وجلـسَ كلٌّ إلى طاولتـه كأنَّ شـيئاً لم يكـنْ.

عندمـا شـاهد الشـباب الرجـل ثانيـةً خـارجَ المقهـى مُتوجِّهـا نحوهـم سـاد السـكونُ المطبـقُ علـى المـكانِ مـن جديـدٍ، لكـنَّ ابتسـامةَ الرجـلِ الـتي قابلهـم بهـا هـدَّأَتْ مـن روعِهـم قليـلاً، فبادرَهـم بالسـؤالِ:

أيُّها السادةُ، أهذهِ حقّاً بلدةُ جيرسي؟

أجابَ أحدُهم: نعم إنَّها بلدةُ جيرسي أيُّها السيدُ.

الرجـلُ: ألَا توجـدُ بلدةٌ أُخرَى بالجوارِ- بلدةٌ صغيرةٌ- تُدعَى نيوفلج؟

أجـابَ آخـرُ: لا سـيدي، لكـنْ أعتقـدُ أنَّ اسمَهـا سـابقًا كان نيوفلج.

الرجل: مَنْ أنتُم؟

متى جئتُم إلى هذه البلدة؟

سأل الرجلُ، وراح يستقرئُ ما في عيونهم، لقد تملَّكَ الشبابَ شعورٌ بالغضب المشوبِ بالخوف والحذرِ، واستقبلوا الأسئلةَ بكثيرٍ من الاستهجان، لكنَّ أحدَهم أجابَ بسخريةٍ:

سؤالك غريبٌ يا سيدي! نحنُ من هذه البلدة، وُلِدْنا هنا، وكذلك آباؤنا وأجدادُنا، ثُمَّ تابعَ قائلاً:

هل نستطيعُ مساعدتَك يا سيدي؟

الرجلُ: لا، شكراً لكم.

لقد باغتته إجابةُ الشابِّ المُهينةُ، ووقعتْ عليه وقْعَ الصاعقةِ، فقال في نفسِه:

إنَّ من العبثِ التحدُّثَ إليهم، وشعرَ بانقباضٍ مُؤلم في عنقِه، وكان العرق يتصبَّبُ من صِدغيه، ابتعدَ عن المقهى وهو حاقدٌ مُتجهِّمُ الوجه، وأخذ يتجوَّلُ في شوارعِ البلدةِ، كَدُبٍّ هاربٍ من السيرك، يبحثُ عن مكانٍ آمنٍ؛ ليأخذ قِسطاً من الراحةِ، ويستجمعَ أفكارَه، ويعاودَ نشاطَه الذهنيّ بعد أنْ أصبحَ كسيرَ القلب، وكأنَّ قَدَراً مأساوياً غاشماً عصفَ بكلِّ أحلامِهِ وآمالِهِ بعدما كان يتوقَّعُ أن يجدَ بيته وأُسرتَه في انتظارِه بعد غيابٍ طويلٍ عنهم.

أعياهُ التعبُ وهو يحومُ في شوارعِ البلدةِ إلى أن وصلَ إلى حديقةٍ صغيرةٍ بوسط البلدة، يحتضنها سورٌ فقفز خلفه، وجلس تحت شجرةٍ وارفة الظلال، في وقت تربَّعت فيه الشمسُ في كبد السماء، كأن

حلماً مُخيفاً انتابه، فأخذ يُتمتمُ بصوتٍ مسموعٍ كمن يُحدِّثُ نفسه:

هذا مستحيلٌ! لا يمكنُ أن أصدِّقَ ما يحدث! لقد تغيَّرتْ البلدةُ كثيراً، اختفى الناس الذين أعرفُهم، والمباني التي بنيتُها بنفسي، والخيولُ التي كانتْ تنتشرُ في كلِّ مكانٍ في البلدةِ، لقد تغيَّبْتُ شهوراً قليلةً فقط، ماذا حلَّ بالناس؟ أينَ العمدةُ نورمان والآخرون؟

أين زوجتي وأبنائي؟

أين الجميعُ بحقِّ السماء؟

إنه حُلْمٌ مُرعبٌ مُخيفٌ –وأخذ يبكي بمرارةٍ –.

فيما كان الرجلُ يهذي ويبكي ويتعجَّبُ ممَّا حصلَ للبلدة من أمورٍ لا تُصَدَّقُ بين عشيَّةٍ وضُحاها –كما يعتقدُ– إلَّا أنَّه متأكِّدٌ أنَّ هذهِ بلدتُهُ بدليلِ الأراضي الزراعيَّةِ التي يعرفُها جيِّداً، ظنَّ أنَّ الحربَ التي كانتْ دائرةً رحاها –عندما غادرَ البلدةَ– في البلاد قد وصلتْ إلى بلدته، وأنَّ أُناساً احتلوها وعاثوا فيها فساداً، فقتلوا سُكَّانها، ودمروا بنيانَها، وأعادوا بناءَها بسرعةٍ.

تملَّكَه الغضبُ، واضطربتْ أفكارُه بعد أنْ آيسَ من العثورِ على عائلته وبيته في وسطَ هذا الزحام الهائلِ من البنايات والبشرِ، ما زال خيالُه يحومُ هناك حول منزلِهِ المتواضعِ الذي تماثلَ أمام عينيه كحُلْمٍ مارس تأثيرَه المتواصلَ على ذهنِه.

ها هو قصرُ العمدةِ نورمان بحديقته الغنَّاءِ البهيَّةِ، ها هي ليزا بقوامِها المشوقِ تحومُ في فِناء المنزلِ تنظِّفُ وترتِّبُ، والطفلان حولها يلعبان، بسمةُ الواحدِ منهما تملأُ القلبَ بالسرور...

كأنَّه لم يشاهدْ ابنته سارة ذات الأربعةَ عشر ربيعاً في المنزل، فخبا سرورُه قليلاً إلى أن تذكَّر أنَّ ابنته في تلك اللحظاتِ تكونُ في المزرعة، تقطفُ الثمارَ؛ لتبيعَها وتُنفقَ على الأسرةَ في غيابه، فابتسمَ وهو يرى خيالَها بين النباتات ويديها الناعمتين قد كساهما الترابُ كما الحناءُ، وهي تعملُ كالرجالِ في غيابِه... لكنَّ الصورةَ تتلاشى لتعودَ البناياتُ الشاهقةُ من جديدٍ أمام ناظريه؛ فتمتلئُ عيناه بالدموع.

٣

كانت الصحفيَّةُ سوزي تعملُ محرِّرةً لصفحةِ الحوادث في الجريدة اليوميَّةِ في البلدة بعد أن تخرَّجتْ في كلية الإعلام، اعتادتْ بعد ظهرِ كلِّ يوم زيارة مقرِّ الشرطة للاطِّلاع على ما يستجدُّ من حوادثَ في البلدة؛ لتعودَ بها إلى الجريدة، وتَنشرَها في العددِ القادم.

كانتْ سوزي معروفةً في البلدة لدى الجميع، كانتْ على عَلاقةٍ قويَّةٍ مع قائد المخفرِ وأفراد الشرطةِ، وكثيراً ما تجدُها في موقع الحادثة فورَ وقوعِها، فتلتقطُ الصورَ وتجمعُ المعلوماتِ من كلِّ مَنْ له عَلاقةٌ بتلك الحادثة؛ وهذا ما أكسبَها شهرةً كبيرةً.

كانتْ تجلسُ في مقرِّ الشرطة ككلِّ يوم في الميعاد نفسه، الصحفيةُ سوزي بشعرِها المائل للحمرة وقَصَّتِهِ الفَرنسية التي تُضيفُ هالةً تحيطُ بوجهها الدافئ، بعينيها اللامعتين بلون الزيتون الأخضر، بقامتها الطويلةِ، ترتدي بنطالَ الجينزِ الأزرقَ السماويّ والسترةَ ذات اللون الهادئ الذي يعكسُ لونَ عينيها، تحضرُ كلَّ يوم لتسجِّلَ الأحداثَ التي تجري يومياً؛ لتنشرَها في الجريدةِ التي تعمَلُ فيها.

عند ظهرِ ذلك اليوم كانتْ سوزي هناك، تجلسُ مع النقيب جاك، عندما حضر شابان على عجَلٍ بادٍ عليهما الفزعُ، وبلّغا عن رجلٍ غريبٍ ظهر بشكلٍ غريب، ويتصرف كتائهٍ أو مجنون، ويسألُ أسئلةً غريبةً، ويتجول في الشوارع بلا هدفٍ، يرتدي ملابسَ غريبةً وباليةً، أكَّدَ الشابان أنَّ صديقاً لهما يتبعُ الرجلَ ليُراقبَهُ، ويبلِّغَ عن مكانِه حتى تحضرَ الشرطةُ.

رنَّ هاتف الجوال مع أحد الشابّين، وتلقَّى مكالمةً من صديقه الذي يتبعُ الرجلَ وأخبرَه أنَّه يجلسُ الآن تحتَ شجرةٍ بوسط الحديقة، على الفورِ غادرتْ سياراتُ الشرطةِ مُتوجِّهةً نحوَ الحديقةِ وهي تُطلقُ صفاراتِها، وتنيرُ الشارعَ بأنوارِها، وتفرَّقتْ ملتفَّةً حولَ الحديقةِ من كلِّ جانبٍ.

٤

عاد الرجلُ إلى حالةِ صمتٍ رهيبٍ خيَّمتْ عليه، كانتْ الأفكارُ تضطربُ بعقله ووجدانه، بعد أنْ آلَ إلى هذه الحالِ جلسَ تحت الشجرةِ؛ ليأخذَ استراحةً قصيرةً قبل أن يُعاودَ البحث عن أسرته بعد أن تذكَّر زوال بيته القابع بجانبِ قصرِ العمدةِ –الذي اختفى أيضاً– ولم يبقَ إلَّا أطلالٌ منهما..

كان الرجل مُشوَّشاً لدرجة أنَّه لم يكن قادراً على التفكير في شيءٍ، وساد الهدوءُ حوله بالرغم من أنَّ ضجيجَ السيَّاراتِ التي تعبرُ الشارع يصمُّ الآذانَ، إلا أنَّ الرجل بدا في سكونٍ مُطبق، اقتحمَ النقيبُ جاك ورجالُه الحديقة مُلوِّحين بمسدساتِهم بعد أنْ انتشروا

حوله، أصابه الوجومُ والخوفُ، حاول النهوضَ والهربَ، ولكنه أدرك أنَّه لا جدوى من ذلكَ؛ فآثر الصمودَ والمواجهةَ.

في تلك اللحظةِ غادرتْ سوزي مقرَّ الشرطةِ مع الشابين، وتوجهت أيضاً نحو الحديقةِ، وأخذتْ تُراقبُ ما يجري، وتُسجِّلُ في دفترِها الملاحظاتِ وتلتقطُ الصورُ.

قال النقيبُ جاك بعد أنْ تقدَّم إلى الأمام عبر مُكبِّر الصوتِ: المكانُ مُحاصرٌ، سلِّمْ نفسك، ضع يديك خلفَ رأسِك، لا تتحركْ وإلا سأطلقُ النارَ عليك.

قام الرجلُ وقد تملَّكه الرعبُ من هوْلِ ما رأى ومن كثرةِ رجال الشرطةِ وسياراتهم وأنوارها المتلألئة فوق سقوفها حتى ظنَّ الناسُ أنَّ هناك سطواً مُسلَّحاً أو فيلماً سينمائيّاً يصوَّرُ خاصةً عندما شاهدوا زيَّ المُتَّهمِ الغريبَ.

شاهد الرجلُ كمًّا هائلاً من الناس يُحيطون بالمكان من بُعد، وازدحمتْ السيارات وتعطَّلتْ حركةُ السير، وتجمَّعَ الصحفيون حتى بلغ منه الرعبُ مبلغه، خارتْ قُواه وأيقن بالهلاك، شعر أنَّ نهايته قد اقتربتْ، صلَّى صلاةً سريعةً: «مَنْ آمَنَ بي وإنْ ماتَ فَسَيَحْيَا».

وقف الرجل رافعاً يديه خلف رأسه مفرجاً ما بين قدميه، تقدَّمَ نحوه عددٌ من رجالِ الشرطةِ مُصوِّبين مسدساتِهم نحوه وأحاطو به، قام أحدُهم بتفتيشِه تفتيشاً دقيقاً ثم كبَّلوه بالقيودِ، لم يُعثرْ معه على شيءٍ، فقادوه إلى السيارةِ التي تنتظرُه ثم توجَّهوا به إلى مقرِّ الشرطةِ لاستجوابه.

بقيتْ سوزي تلتقطُ الصورَ إلى أن تمَّ إلقاءُ القبضِ عليهِ، فعادتْ أدراجها إلى مقرِّ الشرطةِ؛ لتتابعَ ما سيحدُثُ، أخذتْ سوزي موعداً مع الشابين في المقهى، بعد الانتهاءِ من التحقيقِ.

كان الرجلُ خائفاً مُتعباً وهو مُحاطٌ برجالِ الشرطةِ الذين لم يسبقْ له أنْ تشرَّفَ بلقائهم من قبلُ؛ فانهارَ مَغشيّاً عليه وهو يهذي: أريدُ أرضي.... أريدُ زوجتي....

نُقلَ الرجلُ إلى المستشفى، وأُعطي العلاجَ اللازمَ، ثمَّ طلبَ الطبيبُ من الشرطة تركَ الرجلِ حتى يستريحَ،... وضعتْ الشرطةُ حارساً عليه، وقُدِّمَ للرجل الطعامُ والماءُ والدواءُ.

كان لدى المحقِّق حَدَسٌ أن ثَمَّةَ ما يربط بين الجثةِ والمُتَّهم بالرغم من تقريرِ الطبيبِ الشرعيّ أنَّ الموتَ كان طبيعياً.

طلبتْ سوزي من الشبابِ أن يَرْووا، لها ما حدثَ معهم ومع الرجلِ عندما ظهرَ عليهم فجأةً، وعندما شاهدتْ سوزي الشبابَ يجلسون أمام المقهى ومن خلفِهم سياجٌ حديديٌّ كبيرٌ ولاحظتْ عُلوّ البنايةِ وعرفتْ أنَّ الرجل ظهرَ خلف الشبابِ من جهة الحاجزِ أصابَها الوجومُ كما أصابَ الشبابَ أوَّلَ مَرَّةٍ....

كان لدى سوزي اعتقادٌ أنَّ هذا الرجل ليس طبيعيّاً، وربَّما ليس من البشر وأنَّه يحملُ أسراراً غامضة.

أخذتْ سوزي المعلوماتِ الكاملةَ من الشباب وسجَّلتْ الوقتَ الذي ظهر فيه بدقَّةٍ.

٥

أُحضِرَ الرجلُ من المشفى للتحقيق معه بعد أنْ استعادَ بعضَ وعيه، المتهمُ يجلسُ على كرسيٍّ الاعترافِ في غرفةِ التحقيق، ويقابله اثنان خلف طاولةٍ مُستطيلةٍ من الخشب الأبيض، وحولها أربعةُ كراسٍ من الكروم المُنَجَّد بالقماش المخمليِّ، في الغرفةِ فتحةٌ أشبه بشباك له زجاج مُعتمٌ، بحيث لا يرى مَن بالداخل مَن هو خارجَ النافذةِ، وكان المتهم كالغريق.

المتهم يتنكَّر بزيِّ رُعاة البقر؛ يعتمر قبعةً سوداء ذات حوافّ مَطويّة على محيطها، ويلبسُ حذاءً قديماً بالياً من موديلات القرن الثامن عشر، كان الشابُّ وسيماً أشقر الشعر، بعينين زرقاوين لامعتين عامرتين بالذكاء، بوجهٍ ناعم أشبه بعذراء، طويل القامةِ، فمُه صغيرٌ بين شفاهٍ رقيقة، وله وجَهٌ قارب على نضوج الشباب، لكنَّه كان شاحبَ الوجه كأنَّه مُخَدَّرٌ أو ثملٌ.

أراد المُحقق– النقيب– أن يستجوبَ الرجل بأسلوبٍ رقيقٍ ولطيفٍ لعلَّه يصدُقُ في إجاباته.

النقيبُ: اسمُك كاملاً؟ وعمرُك؟ ومهنتُك؟

المتهم: اسمي جو مارتن ويلسون، عمري ٤٥ عاماً، من مواليد عام ١٨١٥، عملي مزارعٌ صغيرٌ في بلدةِ نيوفلج.

المحقق مشدوهٌ من إجابة الرجل على سؤاله عن عمره وتاريخ ميلاده، وهو يُحَدِّقُ في الرُّزْنامةِ الموجودة أمامه بتاريخ ١٥/٦/١٩٨٥م،

وما زال الرجلُ مُتردِّداً في الإجابة عن سؤالِ المحققِ أينَ يسكنُ وما هو عنوانُه.....

النقيب: نحنُ في عام ١٩٨٥م سيد جو! ماذا دهاك يا رجل؟ لعلك وُلِدْتَ عام ١٩٥٠م هذا معقولٌ، أو لعلك فقدْتَ عقلك عام ١٩٨٥م، هذا معقولٌ أكثر، ثم لا يوجد في البلاد كلها بلدةٌ تُدعى نيوفلج!

النقيب: لماذا أنت مُتنكِّرٌ بهذا الزي البالي القديم؟

المتهم: لا أملكُ غيره سيدي، وهذا ما تعودت عليه.

النقيب: كيف ظهرْتَ فجأةً أمام المقهى بصورةٍ مُريبة؟

المتهم: لست أدري، طلبت من أصدقائي في كوكب سيراتا الذين خطفوني قبل شهور وسجنوني في المَشفى الكبير ومنعوني من العودة أن يُعيدوني إلى ساحة البلديَّة في نيوفلج لا إلى هذا المكانِ الغريبِ.

كان النقيب جاك يذرعُ أرضَ الغرفةِ ذَهاباً وإياباً، بينما أحد الشرطة يدوِّن ما يقوله المتهم، والآخر يحملقُ في المتهم وهو يعتقدُ بأنَّ المتهم مجنونٌ لا محالةَ.

النقيبُ: أيُّ بلدةٍ تقصدُ بنيوفلج؟

المتهم: إنَّها بلدتي سيدي، وهي بلدةٌ صغيرةٌ حديثةُ عهدٍ بالبناء، وبيوتُها متواضعةٌ من الأخشاب.

ضحكَ النقيبُ بملءِ فِيهِ بصوتٍ عالٍ، وشاركه أحدُ مُساعديه باستهزاء، وقال النقيبُ في نفسِه: رجلٌ مجنونٌ!

لكنَّه آثر ألَّا يُصرحَ للمتهم بذلك لاستكمالِ التحقيق واستدراجِه لقولِ الحقيقةِ.

قال أحدُ مُساعدي النقيب: نعم يا سيدي، المتهمُ صادقٌ؛ قرأتُ عن تاريخ هذه البلدة، وكانتْ تُدعى نيوفلج ثم نيو ستي قبل أن يُصبحَ اسمها جيرسي.

المحقق: معلوماتٌ قيمةٌ، شكرًا لك للتوضيحَ.

ثُمَّ التفتَ للمتهم وقال له: يبدو أنَّك متعبٌ؛ سنأخذُ استراحةً قصيرةً لشرب الشاي.

تذكَّرَ الرجلُ ذلكَ الشقيَّ ستيف الذي داومَ على معاكسة ابنته سارة والتحرش بها فازدادَ حنقه وغضبُه، لكنَّه تناسى ذلك بعد أنْ طغى حبُّ الوطن على مشاعره، فشعرَ بالحقدِ على هؤلاء الرجال، الذين احتلوا أرضه وبلدته، بينما الرجل يُراجعُ ذاكرته غارقاً في أفكاره، يستذكرُ ما حصلَ له صباحَ ذلك اليوم وهو يحتسي فنجانَ الشاي الذي قدَّمَه له النقيبُ جاك، سمعَ صوتَ النقيبِ من جديدٍ يُعاودُ استجوابَه.

النقيبُ: أرجو أنْ تكونَ بوضع أفضلَ الآن، وتُجيبُ عن أسئلتي بصدقٍ وبلا مُراوغةٍ سيد جو مارتِن.

المتهم: نعم سيدي، لكنْ لا أعرفُ لماذا أنا هنا؟

ماذا حصلَ مني لتقبضوا عليَّ؟ أنا لم أسرقْ، لم أشتمْ أحداً، ولم أقتلْ، ما ذنبي بحقِّ السماء؟

المحقق: حسنًا، قرّبتنا من الهدف سيد جو، لقد ذكرتَ شيئاً نبحثُ عنه منذُ أيام، وجدْنا جُثَّةَ رجلٍ في المكانِ نفسِه الذي ظهرتَ فيه دون سابقِ إنذار وبصورةٍ شيطانية، فمن المعلوم أنَّ القاتلَ يعودُ إلى مكانِ الجريمة يتشمَّمُ الأخبارَ، أريدُ تفسيراً لذلك، لماذا قتلتَ الرجلَ وألقيتَه أمامَ المقهى؟

لماذا جئتَ إلى المقهى من جديدٍ؟

ما الذي تبحثُ عنه سيد جو؟

هَلا أخبرتنا!

المتهم: قتيلٌ!... جُثَّة!... عمَّا تتحدث سيدي؟ أنا لا أعرف شيئاً عن الذي تقوله، أُقسم على ذلك سيدي.

النقيب: كلُّ الدلائل تُشير بأنَّك أنتَ القاتلُ؛ ظهورُك المفاجئُ في المكانِ نفسِه، ملابسُك الغريبةُ، عدمُ انتمائك للبلدةِ، أنتَ غريبٌ عنها، تأكَّدْنا أنَّك لستَ مُواطناً أمريكيّاً أيضاً، ما هي هويتُك؟

لحِسابِ مَنْ تعملُ؟

لماذا أنت هنا سيد جو؟

المتهم: مَنْ قال ذلك سيدي؟

أنا مواطنٌ أمريكيٌ، ولدتُ عام ١٨١٥م في بلدةِ بايون، ثُمَّ أقمْتُ فترةً في بلدةِ نيوراك، وتزوَّجتُ هناك، ولما حدثَتْ الحرب الأهليةَ بين الشمال والجنوب هربْنا كباقي الناس، والتقينا بعددٍ منهم هنا عندما كانتْ هذه الأرضُ غابةً تعيشُ فيها الحيواناتُ، ونحنُ مَنْ أسَّسَ هذه البلدة، أنا مواطنٌ أمريكيٌ أصيلٌ يا سيدي.

النقيبُ: أنتَ تهذي بلا شكٍّ! -اقتربَ النقيبُ من المتهم، أخذَ يشمُّ رائحةَ فمِه ثُمَّ تابعَ-: هلْ أنتَ ثملٌ يا رجلَ؟

المتهمُ: أنا لا أشربُ يا سيدي، لا أشربُ أبداً، أنا هنا منذُ الأمس، تحتجزُني في ذلك القفصِ الحديديّ اللعين كالحيوانِ ودون سببٍ، أنا بكاملِ قواي العقليةَ سيدي.

النقيبُ: سأطرحُ عليك عدداً من الأسئلة، ما دمتَ تملكُ قُواك العقليَّةَ كما تقولُ، أرجو أنْ تُجيبَ عنها بصراحةٍ من أجلِ مصلحتِك، لم نعثرْ معك على جوازِ سَفَرٍ أو هويَّةٍ أو حتى رُخصةِ قيادة لتثبتَ بها شخصيَّتَك، من أنتَ بحقِّ السماء؟

المتهمُ: جواز سفر! رخصة! أنا لا أفهمُ ما تعني بذلك سيدي، ماذا تريدُ مني بالتحديدِ من فضلك؟

النقيبُ: أيَّ شيءٍ يُثبتُ شخصيتَك، يثبتُ مَنْ أنتَ.

المتهمُ: لا يوجدُ معي شيءٌ من هذا القبيلِ.

النقيب: لا بأس، قل لنا من أين جئت؟ كيف دخلت البلاد دون جواز سفر؟ مَنْ يقفُ خلفك؟

فكَّر المتهم قليلاً وهو أشبه بأرنبٍ يتربص به ثعلب، ثم رفع رأسه والتفت نحو النقيب الذي يبدو عليه أنَّه مخلوقٌ غريبٌ قبيحٌ ومزعجٌ أيضاً، إنَّه ضخمُ الجثةِ قصيرُ القامةِ أصلعُ بشاربين كبيرين، وعيناه صغيرتان حادتان، تابع قائلاً:

أنا من هذه البلدةِ، نعم سيدي، إنَّها بلدتي منذُ أنْ كانتْ غابةً وقبل أن.....

واختلسَ النظرَ نحو النقيبِ الذي يرهبُ جانبه، والذي يبدو عليه أنَّه فقدَ صبرَه، وأصبحَ عصبيَّ المزاجَ، ثُمَّ صمتَ ولم يُكملْ.

قال النقيبُ وقد انحلَّ من عقالِه وبدا عليه الامتعاضُ وكأنَّه يتكلَّمُ من بين أسنانه: أكملْ أيُّها الرجلُ، لماذا توقَّفْتَ؟ أنا أسمعُك جيِّداً.

أطلقَ المتهمُ من الحسرةِ زفراتٍ وتنهداتٍ، كان يخشى أن ينقضَّ عليه النقيبُ بعدما أصبحَ فريسةً سهلةً بين يديه، واقتربَ منه أكثر مِمَّا يجبُ، تابع المتهمُ بصوتٍ مخنوقٍ: قبل أنْ تحتلوها وتقتلوا أهلَها سيدي.

النقيب: يبدو أنَّك مجنونٌ فِعلاً، أو أنَّك تتقمَّصُ شخصيةَ مجنونٍ؛ لتُخفي شخصيتك الحقيقيةَ خلفها.

قال الرجل: إنَّها الحقيقةُ سيدي.

قال المحقق: أيَّةُ حقيقةٍ يا رجلُ؟

هذه البلدةُ لم تتغيرْ منذُ أربعين عاماً على الأقلِّ، وأنا وهؤلاء الرجال وكلُّ مَن في البلدة وُلِدَ هنا، وكذلك آباؤنا.... إنَّها بلدتنا وأرضُنا.

قال الرجلُ: هذا مُستحيلٌ!.... مُستحيلٌ!.... أنا لا أصدقُ أبداً!

تغيَّرَ كلُّ شيءٍ فيها، وبقيتْ الأراضي الزراعية كما هي لم تتغيَّرْ....

لقد سافرتُ للعمل قبل عِدّة شهورٍ فقط، عندما عُدْتُ إلى هنا لم أجدْ أحداً....

لم أجدْ زوجتي ولا أبنائي ولا بيتي...

أنا لم أجدْ أحداً أعرفُهُ في البلدة... أينَ بيتي؟

أخذَ الرجل يبكي ويُتمتمُ: لماذا فعلتُم ذلك؟

لماذا... لماذا؟؟

قال المحقق: يبدو أنَّك مُتعبٌ ويائسٌ.

المتهم: أنا في أحسنِ حالٍ، غير أنِّي أحبُّ أن أمضيَ في حالِ سبيلي لأبحثَ عن عائلتي، أرجوك يا سيدي.. أرجوك.

قال المحقق: كي أصدِّقَك، هل تعرفُ أحداً في هذه المدينةِ الكبيرة؟

قال الرجل: نعم سيدي، أعرفُهم كلَّهم...

ثم فكَّرَ قليلاً وقال: ولكن أينَ هم؟

لم أرَ أحداً منهم....

لم أشاهدْ رجلاً واحداً أعرفُه....

ماذا جرى لهم؟ أين أبعدتموهم؟

أريدُ أنْ يحضرَ العمدةُ نورمان، إنَّه يعرفُني جيِّداً، إنَّه صديقي، إنَّه يحترمُني كذلك.

ثمَّ وضعَ يديه حولَ رأسِه وهو يتألَّمُ.

قال المحقق: يبدو أنَّك رجلٌ مخادعٌ وكاذبٌ، وتُخفي سِرَّاً سأعرفُه بالتأكيدِ.

قال الرجلُ: أرجوك سيدي....

لم يشتمْني أحدٌ طوالَ حياتي، أنا رجلٌ مُحترمٌ، ومواطنٌ صالحٌ أيضاً، ليس لك الحقُ في أنْ تفعلَ بي هذا... ليس من حقِّك.

قال المحقق: أكادُ أُجَنُّ، قلْ لي اسمَ شخصٍ واحدٍ تعرفُهُ... قلْ أيَّ شيءٍ إن كنْتَ صادقاً.

قال المحقق: يجبُ أن تقولَ الحقيقةَ... يجبُ أن تعترفَ بكلِّ شيء.

قال الرجل: بماذا اعترفُ سيدي؟

قال المحقق: هذا كلامٌ لا يفيدُك أبدًا ولا أقتنعُ به....

أيها الشرطيُّ، احرسْهُ جيدًا، وانتبه فهو رجل خطير.

قال الرجل: أرجوك سيدي، أنا مظلوم....

أريدُ زوجتي.... أريدُ بيتي وأرضي.... أريد.....

أُعيدَ الرجلُ إلى المشفى لتلقِّي العلاجَ كما طلب الطبيبُ.

مدينة بايون ١٨٢٧م

عاش جو ويلسون مع أخيه الأصغر المُدَلَّلِ والأنانيِّ جون وأخته جوليت لأبوين فقيرين مُعدَمَينِ في منزلٍ يدلُّ على البؤس والحرمان؛ يتكون من غرفتين حقيرتين خاليتين من أبسط الضروريات، فيهما صناديق خشبية قديمة تُستخدمُ خزائنَ لملابسهم الباليةَ وبضعُ بُسُطٍ للنوم، وعِدَّةُ أغطيةٍ مُهترئة وبعضُ أواني المطبخ الكالحةَ.

كان والـدُه مارتـن ويلسـون يعمل نجاراً في محـلٍّ متواضع في أحدِ أزقَّة البلـدة بأجـرة زهيـدة بالـكاد تكفـي لقمـةَ العيـشِ، وهـو رجـلٌ ضعيـفُ البنيـة، متوسـط الطـول، أصفر البشـرة، رقيـق اليدين، عيناه عسـليتان، وأنفُـهُ دقيـقٌ، لـه لحيـةٌ ذاتُ شـعرٍ خفيفٍ، وقد عُرِفَ بسـلاطةِ لسـانِه.

أمُّـه متوسـطةُ الطـولِ، شـعرُها أشـقرُ مائـلٌ إلى الحمـرةِ، عيناهـا عسـليتان لوزيتـان، وأنفُهـا جميـلٌ، ورثَ جـو طيبـةَ أمِّـه وشـكلَ أبيـه، في حـين ورثـتْ جوليـت وجـون جمـالَ أمِّهمـا.

أحـبّ جـو أبـاه وأسـرته وآلمتـه حالـةُ والـدِه الصحيـةُ والنفسـيةُ؛ إذ كثـيراً مـا كان يتعـرَّضُ للإهانـةِ مـن صاحـبِ العمـلِ علـى مـرأى مـن الكثيريـن، فيشـتمُ ويلعـنُ وينهـرُ بـل كان صاحـبُ العمـلِ يضربُـه أحيانـاً، تلـك الحالـة الـتي كان الأبُ يتعـرَّضُ لهـا مـن أجـل تحصيـلِ لقمـةِ العيـش لأسـرته، جعلـتْ مـن جـو وحشـاً في قفـصٍ يتَّقِـدُ صـدرُه غيظـاً، وبداخلـه صـراعٌ عنيـفٌ حـولَ مَثَلِـهِ الأعلـى الـذي اهتـزَّ أمـام عينيـه مـراتٍ ومـراتٍ؛ إذ مَثُـلَ أمـام عينيـه ذليـلاً خانعـاً لأوامـر سـيِّدِه صاحـبِ العمـلِ، مِمَّـا حـدا بـه يومـاً إلى الخـروج مـن البيـتِ مُبكِّـراً هائمـاً علـى وجهـه في شـوارعِ البلـدةِ علـى غـير هُـدًى يُراقـبُ النـاسَ وأحوالَهـم، ويـرى عجبـاً مـن سـادةٍ ظلمةٍ قُسـاةٍ وفقـراء بائسـين؛ فيلعنُ الحيـاةَ وقسـوتَها، ويلعـنُ أغنيـاءَ البلـدةِ البلهـاء ذوي القلـوبِ القاسـية.

ذاتَ مسـاءٍ التقـى جـو ببعـضِ الصبيةِ من أقرانه يتسـكَّعون في شـوارعِ البلـدة قـربَ الحـيّ الـذي يسـكنُ فيـه، لكنَّهم كانـوا يلبسـون أفضلَ منه ولديهـم بعـضُ النقـودِ الـتي لم يلمسْـها يومـاً بيـده، عندمـا سـألهم عـن حالهـم عـرف أنَّهـم مـن عائـلاتٍ فقيـرةٍ مثله تمامـاً، إلَّا أنَّهـم يعملون في أسـواقِ البلـدةِ أعمـالاً مختلفـةً كالعتالـةِ والتنظيـفِ لقـاءَ بِضْـعِ بنسـاتٍ.

عندما فاق جو من حُلْم الطفولة وأصبحَ صبياً يعي ما يدورُ حوله ثار ضدَّ حياة الفقرِ الَتي يعيشُها مع عائلته، وأخذَ يفكِّرُ في رفعِ مُستوى حياتهم ومساعدةِ والدِه المسكين الذي أعياه المرضُ في وقتٍ زادتْ معه تكاليفُ الحياة.

طلب جو من الفتيه أن يقبلوه رفيقاً لهم يشاركُهم حياتَهم، ويتعلَّمُ منهم كي يستطيعَ مساعدةَ والده، ذلك الأمرُ الذي رحَّب به الجميعُ.

في صباح اليوم التالي وفي الموعدِ المتَّفَقِ عليه وفي المكان المُحَدَّدِ التقى جو بأصدقائه الجددِ ورافقَهم ذلك اليوم ليتعلَّمَ منهم، وما هي إلا أيامٌ قليلةٌ حتَّى استقلَّ جو عن رفاقه لما رأى منهم معاملةً سيئةً للفقراء والمساكين وكبارِ السِّنِّ، وأخذَ يعتمدُ على نفسِه لكنَّه اتَّبعَ سياسةً تختلفُ عن غيره فكان يقبلُ أيَّ عَمَلٍ يُعرَضُ عليه ويقبل أيَّ أجرٍ يُدفَعُ له، وكان يعمل مَجَّاناً للفقراء على شاكلة والديه؛ فيساعدهم ويشفقُ عليهم.

أحبَّه الجميعُ لإيثاره وحُبِّه مساعدةِ غيرِهِ فكان الناسُ يتعاملون معه تاركين الصبيةَ الآخرين؛ لذا كان يقضي يومَه في العملِ دون انقطاعٍ لإخلاصه وأمانته.

كان جو ينسى الشقاءَ والتعبَ عندما يعودُ إلى بيته ويضعُ تلك البنساتِ القليلةَ التي يحصلُ عليها في يد والده، وهو يرى آثارَ السعادةِ والابتسامةَ على وجه أبيه وأمه، لكنَّه سرعان ما يقبعُ في زاويةِ البيت كعادته في كلِّ مساء حزيناً كئيباً غريباً بين عائلته شاعراً بالألم والحزنِ والتعاسةِ.

الأبُ يداعبُ جون بشغفٍ ومحبة:

عزيزي جون، يا لك من ولدٍ طيِّبٍ، سيكونُ لك مستقبلٌ رائعٌ بني.

قالتْ الأمُّ وهي تحتضنُ جون: ما أجملك! وما أروعك! ستكون لنا عوناً وسنداً، سترفعُ رؤوسَنا بين الناس، وسنفتخرُ بك بني.

جو يسمع ويتألَّمُ، جوليت تنظرُ بِشَفَقَةٍ لجو، وتتمنَّى أن يكفَّ والداها عن تدليلِ جون.

تهمسُ في أذنِ أمِّها:

أمي، أرجوك لا تبالغي في تدليلِ جون، تحدَّثي مع جو مرَّة بطيبةِ قلبٍ؛ فهو يشقى ويتعبُ من أجلنا جميعًا.

يسمعُ الأبُ كلامَ ابنته:

جوليت عزيزتي، لا أحدَ يعترف بجو، الجميعُ ينادون عليَّ بوالد جون، بل يسخرون مني بسببه، بالأمس عندما جاء إليَّ المعلمُ نهرَني وعنَّفني وكاد أن يضربَني عندما علم أنَّ جو ابني، إنَّه عارٌ علينا جميعًا، انظري إليه إنَّه أشبهُ بحيوانٍ، فلتأخذْه الآلهةُ بعيدًا عنا، إنَّه لعنةٌ علينا، إنَّه سببُ ما نحن فيه من الفقرِ والعذاب، صدِّقيني بنيةُ منذ وُلِدَ هذا الأبلهُ ونحن في فقرٍ شديدٍ ومرضٍ مؤلمٍ.

جوليت: إنَّه منا وله علينا المحبةُ والاحترامُ، إنَّه يكدُّ ويشقى طوال اليوم ليساعدَنا فقط، منذ أنْ عمل جو حصلنا على أشياءَ لم نكنْ نستطيعُ شراءها من قبلُ، علينا أن نُقدِّرَ ذلك والدي.

الأب: أنتِ لا تفهمين بنيةُ، إنَّه... إنَّه يُخفي المالَ عنا، لا يُعطينا إلَّا القليلَ، لن أسامحَه على ذلك أبدًا.

يعيش جو مُتألِّما بين أسرته، هكذا يمضي أيامه ولياليه، لقد تسبَّبَ له والداه بحالةٍ نفسيَّةٍ حزينةٍ ومؤلمةٍ وصعبةٍ، لكنَّه كان يحبهم ويحترمُهم خاصَّةً أختَه جوليت، كانت دومًا تدافعُ عنه وتُشعرُهُ بحبها.

كان والداه يعطفان على أخيه الأصغرِ جون كثيراً، وكان جون الطفلَ المُدلَّلَ في العائلة، له كلُّ الحبُّ والحنان، وطلباته مُجابة، حتى غدا أنانيًّا للغاية وصعبَ المِراس، لكنَّ جو تعوّدَ على تلك المعاملة غير العادلة، كان يأملُ أن تتغيَّرَ المعادلة عندما أصبح عاملاً يساعدُ في مصروف العائلة، ولكنَّه بقي مَنسياً كالعادة.

ذات يوم عاد جو من العملِ مُبكِّرًا على غير العادةِ، كان خائفًا يرتعدُ كعصفور بلله المطر، دخل البيتَ، أغلقَ البابَ خلفه، كان يُتمتمُ بكلام غير مفهوم، أسعفته أخته بكوب من الماء، رمى بنفسه بأحضانِ أمِّه، ونظر إلى البابِ قائلاً:

المُسلَّحون يُطلقون النار في كلِّ مكانٍ، قبضوا على صديقٍ لي وأخذوه معهم، كاد أحدُهم أنْ يُمسكَ بي، لكنَّني أفلتُّ منه وهربْتُ، قتلوا الكثير من الناس في السوقِ، نهبوا المحلاتِ، سرقوا كلَّ شيء... كلَّ شيء.

قالتْ الأمُّ: – بصورةٍ عفويَّة على غير العادة– لا عليكَ بني، أنت الآن بأمان، لا أحدَ يصلُ إليك، اللعنةُ عليهم، هؤلاء الأشرارُ ليس لهم عملٌ إلَّا القتلَ والنهبَ، أينَ الشريفُ ورجالُه؟ أينَ القانونُ؟

قالتْ الأختُ: لعلهم شركاءُ لهم؛ لذلك لا يظهرون إلَّا بعد فواتِ الأوانِ، حمدًا لله على سلامتِك أخي جو.

كان المسلحون الفارُّون من القانون يعيثون في الأرض الفساد هنا

وهنـاك، تلـك الحادثـةُ أدخلـتْ الخـوفَ في نفـس جـو، كان يهـربُ حتـى عندمـا كان يـرى الجنـدَ الذيـن يُحافظـون علـى الأمـن والقانـون، وكان يعمـلُ في السـوق بحـذرٍ وخـوفٍ، ويجـدُ نفسَـه في البيـت منبـوذًا مـن الأبِ والأمِّ، حيـاة اعتادهـا جـو وعاشَـها بمـرارةٍ.

اعتـادتْ العائلـةُ كلَّ مسـاءٍ الجلـوسَ والحديـثَ، كان جـون محـورَ الحديـث دائمـاً، ونظـراتُ المحبـة والدلال تنصـبُّ عليه، فيمـا كان جو وحيـداً واضعـاً رأسَـه بـين ركبتيـه، حتَّـى يغشـاه النعـاسُ فيخلـد في نوم عميـقٍ مـن التعـبِ والشـقاء، ولم يفـقْ مـن نومِـه إلَّا في الصبـاحَ الباكـرِ علـى صـراخِ أبيـه الـذي يلكـزه بقدمِـه يطلـبُ منـه الذهـابَ إلى العمـلِ.

يسـتيقظُ جـو كلَّ صبـاحٍ مُبكـراً فيرتـدي ملابـسَ العمـل الرثَّـةَ ويتنـاولُ الطعـامَ اليسـيرَ مـعَ والـده، ونظـراتُ عينيـهِ الحزينـةُ ترقـبُ أخـاه جـون وهـو يغـطُّ في نـومٍ عميـقٍ في فـراشٍ دافـئٍ، وهـو يراقـب قُبُـلاتِ والـده الـتي تودعـه كلَّ صبـاحٍ قبـلَ خروجـه للعمـل، فيمـا كان ينتظـر جـو يومـاً آخـرَ مـن الشـقاء والتعـب في ظـلِّ ظـروفِ الشـتاءِ القاسـيةِ والأمطـارِ الغزيـرةِ والـبردِ القـارسِ.

كان يفكـرُ: كيـفَ سـيعودُ آخـر النهـارِ تقطـرُ ثيابُـه مـاءً، وهـو يرتعـدُ مـن الـبرد في حـين يـرى والـدَه يحتضـنُ جـون بشـغفٍ ومحبَّـةٍ أمـام المنـزل لـدى عودتـه مـن العمـل كلَّ مسـاء؟

هـل يتقبَّـلُ الأمـرَ فحسـب؟ أم عليـه أن يدافـعَ عـن نفسـه ويجـدَ لـه مكانًـا في قلـب والـده وبـين أسـرته؟ متـى سيشـعرُ أنَّ له قيمـةً في البيت؟

لكنَّـه كان يقـول في كلِّ مـرَّةٍ: هـذا والـدي لا أسـتطيعُ أن أتحـدَّثَ في حضرتـه، علـيَّ أن أعتـادَ علـى ذلـك.

كان جـو بسـيطاً سـاذجاً ذا رأسٍ كبـيرٍ وعينـين واسـعتين وجبـينٍ ضيـقٍ وحواجـبَ عريضـةٍ، يميـلُ إلى السـمرة، نحيفـاً، طويـلاً، سـريع اللفـظ، تفكـيرُه محـدودٌ، وهـو مـع كلِّ ذلـك متواضـعٌ وخـدومٌ.

تمضـي الأيـام والشـهورُ وجـو يـدورُ في نفس الحلقـةِ مـن البيـت إلى السـوقِ ومـن الشـقاءِ إلى الألَم الـذي كان يـدقُّ قلبَـه كلَّ مسـاءٍ عندمـا تجتمـعُ العائلـة، ويقبـعُ هـو في زاويـةِ الغرفـةِ يرقـبُ ويتأمَّـلُ ويحلـمُ في عمـلٍ أفضـلَ، بـل كان يتمنَّـى لـو يسـتطيعُ الهـروبَ مـن هـذه العائلـةِ والبلـدةِ كلِّهـا إلى أيِّ مـكانٍ؛ ليتخلـصَ مـن معاناتـه الـتي يسـبِّبُها لـه والـداه بإهمالـه الشـديد واحتضـان أخيـه جـون حتـى أصبـح أنانيـاً وجشـعاً ومُتعجرفـاً حتـى أن والـده أرسـله إلى المدرسـة ليتعلـم؛ فـكان يحصـلُ علـى كلِّ شـيءٍ دونَ أنْ يقـدِّمَ أيَّ شـيءٍ.

ديفيـد كلارك ذلـك الصديـقُ الـوفيُّ الأكثـرُ قرْبًـا مـن جـو، كان يمضـي معـه أوقـاتِ فراغِـه ومـا أقلَّهـا!

ديفيـد مـن أسـرةٍ متوسـطةِ الحـال، يعيـشُ حيـاةَ الأغنيـاء فهـو وحيـدُ والديـه، كان يرتـدي أفضـلَ الملابـس، ويـأكلُ أفضـلَ الأطعمـةِ، كان والـدُه مُوظَّفـاً هامّـاً في شـركةٍ لإنتـاجَ الفحـم، وقـد طلبـتْ الشـركةُ منـه مُؤخَّـراً الانتقـالَ إلى مدينـة (اديسـون)؛ ليسـتلمَ عملـه الجديـدَ بعـد أن تلقَّـى ترقيـةً كبـيرةً، فرحـلَ إليهـا مـع عائلتـه، لكـنَّ ديفيـد لم ينـسَ صديقَـه جـو، بحـثَ لـه عـن عملٍ كمـا وعـدَهُ حتـى يكـونَ قريبـاً منـه.

كان حُلْـمُ جـو الابتعـادَ عـن البلـدة يومـاً مـا، كان يعلـمُ أنَّ والـده لـن يسـمحَ لـه بذلـك لأسـبابٍ كثـيرةٍ، منهـا خوفُـه مـن فقـدان تلـك

البنساتِ التي يقبضُها منه كلَّ مساءٍ.

في صبيحةِ ذلك اليوم تذكَّر جو صديقَه ديفيد تذكَّرَ اللقاءَ الأخيَر بينهما عندما مرَّ أمامَ منزلِهم وشاهدَ الساحةَ التي جلسا فيها، كان يتراءى له خيالُ ديفيد وهو يُحدِّثُهُ.

قال ديفيد: لا تحزنْ يا جو، لن أنساك أبد، سأبحثُ لك عن عملٍ وسأرسلُ لكَ رِسالةً، أنا أعلمُ أنَّك تتألمُ وتريدُ الابتعادَ عن عائلتك، أعلم أنَّهم يسبِّبُون لك الأذى، أريدُ منك أن تكونَ سعيدًا وهذا واجبي.

قال جو: لن أنسى لك ذلك عزيزي، سأكونُ مُمْتَنًّا لك طول حياتي، الأمرُ أكثرُ من أن أحتملَهُ من والديَّ؛ إنَّهم يدمرونني كلَّ ليلةٍ، أنامُ وأنا أحترقُ ألمًا، أفيقُ وأنا أرتعدُ خوفاً من والدي الذي يلكزُني بقدمِهِ كلَّ صباحٍ كأني حيوانٌ، أعيشُ يومي خائِفًا من العصاباتِ والرصاصِ.

لحظةً مرَّتْ كالحُلْم تنفَّسَ الصُّعَدَاءَ عندما تذكَّرَ أنَّ ديفيد لن ينساه، واصل العملَ عَلى أنغامِ ذلك الوعد.

مضتْ شهورٌ من المَلَلِ والأَلَم وأخيرًا وصلتْ رسالةٌ من ديفيدَ يطلبُ فيها من جو اللِّحاقَ بَه بعد أنْ حصلَ له على عملٍ بأجرةٍ جيِّدةٍ، كان جو سعيداً بتلك الرسالةِ التي ستُحقِّقُ له حُلماً طالما راودَه؛ ليبتعدَ عن البيت وذكرياته الحزينة المؤلمة مع عائلته، وكانت تلك الرسالةُ والتي فيها عنوان ديفيد والموعدُ الذي سينتظرُه فيه في محطةِ القطار -كما أخبرَه صديقُ له قرأ تلك الرسالةَ له- المنقذ لجو.

مدينة جيرسي ١٩٨٥

كان المتهمُ وحيداً في المَشفى بينما شرطيٌّ مُسلَّحٌ يجلس خلف الباب بزيِّهِ الرسميّ وسلاحه، يجلس على كرسيٍّ غير مُريح يقرأ في كتابٍ ما، ويجول بنظره يراقب المارَّةَ.

في تلك اللحظةِ كان المُحقِّقُ ورجالُه يتدارسون الموقفَ.

المحقق: ما رأيُكم بهذا الرجلِ؟

قال أحدُهم: لا بدَّ أنَّه رجلٌ خطيرٌ ومخادعٌ بل ممثلٌ بارعٌ، ألا ترى -يا سيدي- الثيابَ التي يلبسُها؟

قال آخرُ: أظنُّ أنَّه رجلٌ صادقٌ لكنَّه مريضٌ عقليّاً... إنَّه مجنونٌ.

قال آخرُ: إمَّا إنَّه سجينٌ هاربٌ أو جاسوسٌ أخفى شخصيَّتَهُ، وتَخَفَّى بهذه الملابسِ حتَّى لا يشكَّ به أحدٌ.

قال المُحقِّقُ: أنا أؤيدُ هذا الرأي؛ لذلك أرجو منكم إرسالَ صورتِهِ والإعلانَ عنه في كلِّ وسائلِ الإعلام.

بعد أيام أخبرَ الطبيبُ المُحقِّقُ أنَّ الرجلَ بصحةٍ جيِّدةٍ؛ فأرسل المُحقِّق سيَّارةً لتأتيَ به إلى مقرِّ الشرطةِ لاستجوابه وحَجْزِهِ، عندما وصل الرجلُ بدأ المُحقِّقُ باستجوابه.

قال المُحقِّقُ: هل نمتَ جيِّدًا هذه الليلة؟

قال الرجل: لا أعتقدُ سيدي.

قال المحقق: هل تذكَّرْتَ شيئاً جديداً...؟

أرى أنَّك تُريدُ أنْ تقولَ شيئاً...

أليسَ كذلك؟

قال الرجل: نعم سيدي، أريدُ الخروجَ من هنا لأبحثَ عن عائلتي.

قال المحقق: لو ساعدتنا، لو قلتَ الحقيقةَ ستخرجُ بالتأكيد.

قال الرجل: أيُّ حقيقةٍ سيدي؟

الحقيقةُ التي أعرفُها ومتأكِّدٌ منها أنَّكم أفسدتُم كلَّ شيءٍ في بلدتي.

قال المُحقِّقُ: لا بأسَ... لكنْ أريدُ أن تقولَ لي أينَ كنتَ تعملُ أثناءَ غيابك عن البلدة كما سبق وأخبرتَنَا بذلك؟

لا تُنكرْ، وبالتأكيد تَعرفُ كيف وصلتَ إلى هنا.

عاد الرجلُ يضعُ يديه حولَ رأسه، ثم قال: أخبرتُكم بذلك سيدي.

قال المُحقِّقُ: أخبرني ثانيةً...

ربَّما تذكرتَ شيئًا جديدًا؟

الرجل: عندما قرَّرْتُ العودةَ لبلدتي، وطلبت من أهل كوكب سيراتا أن يُرسلوني إلى ساحةِ البلدةِ –وذلك لأنِّي لا أعرفُ الطريق– طلبوا مني الاستلقاءَ على السرير وكنتُ في نشوةٍ كبيرةٍ، وأنا أحلُمُ بلقاء زوجتي وأبنائي بعد غيابِ شهورٍ عنهم– صمتَ الرجلُ قليلاً كأنَّه يتذكَّرُ تلك الأحداثَ الأخيرةَ له قبل الوقوعِ في قبضةِ الشرطة– ثُمَّ تابع:

كنت مُستلقياً على سريرٍ وكأنَّني أحلُمُ، وكنتُ أسمعُ حولي حركاتٍ غريبةٍ....

لقد كنتُ مريضاً سيدي، وفجأةً وجدتُ نفسي هنا حيثُ بلدتي.

قال المُحقِّقُ: أحسنْتَ، أحسنْتَ أيُّها الرجلُ، أيُّها الممثِّلُ البارعُ، لقد عرفْنا عنك كلَّ شيءٍ... كلَّ شيءٍ، أخذَ المُحقِّقُ يُصفِّقُ ويضحكُ بملءِ فِيهِ بكلِّ سُخريَّةٍ، ثم غضبَ غضباً شديداً وضرب بيده الضخمة على الطاولة؛ فوقف المتهم مرعوبا، ثم صاح بالشرطيِّ:

ألقِهِ في السجنِ، لا أريدُ أنْ أراهُ.

صاح الرجل: لماذا يا سيدي؟

أقسم أنِّي قلتُ الحقيقةَ.

أنا مظلومٌ وبريءٌ سيدي.

قال المُحقِّقُ: لا تُقسمْ يا رجلُ.

كلُّ كلامك كذبٌ وخداعٌ، ولا بدَّ من معرفةِ سرِّكَ قريباً.

طلبَ المُحقِّقُ من الشرطيِّ وضع جهاز تسجيلٍ في غرفة الرجل، لعله يُثرْثِرُ بكلام يفيدُ في كشفِ هويته، لكنَّ الرجل لم يذكر سوى أرضَهُ وزوجَتَهُ وابنَتَهُ سارة، كانَ يبكي بين الحينِ والآخرِ على ما يُلاقي من سوء مُعاملة وعقوبةٍ بلا ذنبٍ اقترفَه.

طلب النقيبُ جاك من المتهم الاستحمامَ، وأحضر له ملابس جديدة لم تلقَ القبول من المتهم، لبسَها على مَضَضٍ؛ لأنَّه اعتقدَ أنَّه سيكونُ شبيهاً بهم، بدَا المتهمُ بالملابس الجديدةِ شاباً وسيمًا، يبدو عليه في بدايةِ العقد الثالث من العمر، طلبَ النقيبُ أخْذَ صورٍ للمتهم، وأُعلن عنها في جميع وسائل الإعلام بعد أن تأكَّدَ من أَنَّه يُعاني من مرضٍ نفسي وانفصامٍ في الشخصيةِ

مدينة بايون ١٨٣٠

جـو يستمعُ لصديقِهِ وهـو يقرأُ الرسـالةَ: عزيـزي جـو وجـدتُ لـك عمـلاً كمـا وعدتُـك، عليـك القـدومُ فـورًا، سـأنتظرُك بعـد ثلاثـةِ أيَّـامٍ في المحطـة، ديفيـد كلارك.

كان فـرحُ جـو كبـيراً وسـعادتُه لا حـدودَ لهـا، ألقـى السَّـلَّةَ عـن ظهـرِهِ، رقـص وغنـى كأنَّ الدنيـا أصبحـت مِلْـكَ يديـه، وأن حُلْمَـهُ الأكـبَر قـد تَحَقَّـقَ.

قـال جـو: خُـذْ السـلَّةَ صديقـي، إنهـا لـك، لـن أنسـى حياتـي بينكـم، تعلَّمْـتُ الكثـيرَ منكـم، أريـدُ منـك أنْ تكتـبَ رسـالةً لوالـدي، لـنْ أخـبرَه برحيلـي خوفـاً مـن أنْ يمنعَـني مـن السـفرِ، وأرجـوكَ لا تخـبْر أحـداً ريثمـا أغـادرُ البلـدةَ.

ثم احتضنه بين ذراعيه وودَّعَهُ وعاد إلى منزله مساءً.

قال في رسالةٍ مُختصرةٍ موجهةً لوالده:

«والـدي العزيـز، أحبُّكـم جميعـاً، لـن أنسـاكم أبـداً، وأنـا مسـافرٌ إلى بلـدة (اديسـون) للعمـلِ هنـاك، سأرسـلُ لكـم مـا أسـتطيعُ مـن النقـودِ؛ لأنَّكـم بحاجـةٍ لهـا أكثـرَ مـني.

التوقيع: ابنكم جو»

تـرك جـو الرسـالةَ في البيـتِ، غـادرَ البلـدةَ مُبكِّـراً، لكنَّـهُ كان قلقـاً جـداً، فهـذه هـي المـرَّةُ الأولى الـتي يبتعـد فيهـا عـن أسـرته ووالديـه، وهـي المـرَّةُ الأولى الـتي يُسـافرُ فيهـا خـارج البلـدة ويسـتقلُّ

فيها القطارَ، وكان يخشى ألَّا يجد ديفيد بانتظاره، كما خشي أنْ يُواجهَ مشكلةً في العثور على منزله.

أفاقَ والدُ جو مُبكراً كعادته، لكنَّه لم يجدْ جو في فِراشِه، جالَ بعينيه حتى وقعتْ على الرسالةِ الموجودةِ في موقعٍ ظاهرٍ للعيانِ في زاويةِ البيتِ،.... نظرَ إليها وأخذ يتأمَّلُها، بدا عليه القلقُ؛... كان منظرُها يُوحي لهُ بشيءٍ غير طبيعيٍّ،.... إنَّه يعلمُ أنَّ جو لا يعرفُ الكتابةَ والقراءةَ...لكنَّه كانَ خائفاً.... التقطَ الرسالةَ وأخذَ يتفحَّصُها بعينين ثاقبتين، ثم نظرَ إلى جون....

كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ، فموعدُ المدرسة لا زال بعيداً لكنَّه كان حائراً وخائفاً، فاضطُرَّ لإيقاظِ جون من منامه؛ ليقرأَ له الكلماتِ الغامضة في تلك الرسالة الرهيبة، أخذ جون يقرأ رسالة جو....

كانت دموعُ والدتِهُ وأُخْتِهُ جوليت تنهمرُ، لكنَّ الأبَ كان غاضباً وأخذَ يُتمتمُ ثم ارتفعَ صوتُه وتكلَّم بكلام غير مفهوم، لكنَّ الغضبَ سيطرَ عليهِ فتركَ البيتَ مُسرِعاً إلى حيث محطةَ القطار المتجهِ إلى البلدات المجاورة.

كانتْ المحطةُ فارغةً؛ غادرَ القطارُ قبل وصوله بفترةٍ طويلةٍ، جلس على الأرض وهو يتأمَّلُ سِكَّةَ الحديدِ، كانَ يأمَلُ لو يستطيعُ سحْبَ تلك السكةِ كأنَّها مربوطةٌ بحبلٍ؛ ليُعيدَ القطارَ إليهِ ويُخرجَ منهُ ابنَه جو ودموعُ عينيه الغزيرةُ تتساقطُ على الأرض....

كانتْ يداه تُمسكانِ بقضبانِ سكَّةِ الحديدِ وتشدَّانِ عليها بقوَّةٍ وعنف، كان الألَمُ يعصفُ بذراعيه وكتفيه ورأسه أيضاً، كانت الشمسُ قد بزغتْ ونشرتْ أشعَّتَها في كلِّ مكانٍ وتَسَمَّرَ مكانَهُ

كتمثـالٍ ونسـيَ أنَّ موعِـدَ العمـلِ قـدْ حَـانَ.

لقـد أيقـنَ أنّ جـو غـادرَ إلى الأبَـدِ، وأنَّـه لـن يعـودَ وكانَ يتمنَّـى لـو تعـودُ عقـاربُ السـاعةِ للـوراءِ ليَضُـمَّ إليـه جـو بحـبٍّ وحنـانٍ ويعوِّضَـهُ عـن قسـوةِ قلبـه وإهمالِـه لـه؛ لأنَّـه تأكَّـدَ أنَّ جـو قـدْ هـرَبَ مـن مُعاملتِـهِ لـهُ وأنَّـهُ فقـدَهُ إلى الأبَـدِ.

مـرَّ وقـتٌ طويـلٌ وهـو يُعانـي تأنيـبَ الضمـير، بينمـا كان جالسـاً علـى إليتـه رافعـاً ركبتيـه كَكُنغـرٍ يراقـبُ أعـداءَهُ، ويـداه مـا زالتـا تقبضـان بقـوةٍ بسـكة الحديـد، كان وقتـاً عصيبـاً، كان يُخَيَّـلُ إليـه بينمـا –هـو مُجهـشٌ بالبـكاءِ– أنَّ ابنَـهُ هـربَ مـن قسـوتِهِ عليـهِ وإهمالِـهِ لـهُ، وقـد صـارحَ نفسَـهُ بحقيقـة تفريـغ الضغـط الـذي كان يواجهُـهُ مـن ربِّ العمـلِ في ابنِـهِ المسـكينِ الـذي كَان يعاملُـهُ كعبـدٍ أو حيـوانٍ، لا يأبَـهُ لـه إلَّا عندمـا يأخـذُ منـهُ مـا حصـلَ عليه مـن بنسـاتٍ، لِقاءَ شـقاءِ سـاعاتٍ، كان يقسـو عليـه في الـكلام البـذيءِ والنعـتِ الذليـلِ، وعندمـا تذكَّـرَ خنـوعَ ابنِـهِ لـهُ دونَ أنْ يُجيـبَ عليـه أو النظـرِ في عينيـه يتمـزقُ ألمـاً وحزنـاً، وهـو ذليـلٌ يقبـعُ في زاويـةِ البيـتِ حتـى يغلبَـهُ النعـاسُ.

تذكَّـرَ سـاعاتِ الصبـاح الباكـرِ في الشـتاء القاسـي حـين كان يركَلُـهُ بقدمـه لينهـضَ للعمـلِ وينهـرُه بشـدةٍ وينعتُـه بالأبلـهِ، تذكَّـرَ عندما كان يَنْسَـلُّ مـن الفـراشِ ويذهـبُ دون إفطـارٍ إلى مصيرِهِ المُتعـبِ كأنَّـه يريـدُ الخـلاصَ منـه فيـزداد في النحيـبِ ويـزداد الألمُ في صـدرِه.

يُلملـمُ والـدُ جـو نفسـه ويجـرُّ جسـمَهُ المُنهَـكَ عائـداً إلى بيتـه كئيبـاً حزينـاً وقـد غابـتْ عينـاه تحت هـولِ الدمـوعِ الحارقة كمريـضٍ محموم، عندمـا رأتْـهُ زوجتُـهُ بتلـك الحالـةِ الـتي تُضمـرُ الشـقاءَ والألمَ بَـدَا عليهـا

أنَّها أكثرُ شقاءً منه؛ لقد عادَ وحيداً دونَ ابنِه، فكَّرَتْ الزوجةُ:

لو أنّها استسلمتْ لليأسِ لما استطاعتْ أنْ تتغلبَ على قسوةِ الحياةِ، كانتْ تنتحبُ ببطءٍ بجانبِ زوجِها، تشجَّعتْ قليلاً اقتربتْ منه وضعتْ راحةَ يدِها على رأسِهِ تمسحُهُ برِفْقٍ وقالتْ له:

لا تُفَكِّر كثيرًا بجو لا يُمكنُ أنْ يُصيبَه مَكروهٌ، أنا أعرفُ ذلكَ إنَّه ولدٌ طيِّبٌ وشجاعٌ وسوفَ يتدبَّرُ أمرَهُ.

قالَ والد جو بصوت مخنوقٍ:

لقدْ قسوْنَا عليه كثيراً؛ لم نُشعرْهُ يوماً بأنَّهُ ابنَنَا، لم نُعطِهِ حقَّهُ من الحنانِ والحُبِّ، لقد كُنَّا السببَ في هَرَبِهِ، كانتْ جوليت على حقٍّ، لم نسمعْ لها ولم نأخذْ بنصيحتِها، كانتْ تشعرُ به أكثرَ منَّا وكأنَّها تعلمُ مصيرَهُ، يا للمسكينِ! كيف سيتدبَّرُ أمرَهُ في هذا الطقْسِ البارد؟ أينَ سينامُ؟

ماذا سيأكلُ؟

كيف سيعيشُ؟

لن أغفرَ لنفسي ذلك ما حييتُ... أبداً....أبداً.

القطارُ يسيرُ مُسرعًا، صوتُ سكةِ الحديدِ تَئِنُّ تحتَ وطأةِ عجلاتِ القطارِ الحديديَّةِ، وهي تسيرُ بينَ التلالِ والسهولِ والركابِ في هرَجٍ وضحكٍ وفرَحٍ ومرَحٍ، سيطرتْ أصواتُهم على المكانِ كلِّهِ، بينمَا يجلسُ جو عَلى كرَسيِّهِ كئيباً كعادتِهِ يفكِّرُ في اللحظاتِ القادمة، أخذ يلومُ نفسَه على تركِ منزلِهِ وعائلته بتلك الطريقةِ، أيقنَ أنَّه تسرَّعَ في التصرُّفِ لكنْ لا مجالَ للعودةِ بعدَ

الآنَ، كان في دُوَّامَـةٍ كبـيرةٍ كأنَّـه لم يكـنْ موجـوداً مـع الآخريـن في العَرَبَـةِ وإن كان جسـدُه مُلْقًـى في العربـة كحقيبـة ملابـس.

مدينة جيرسي ١٩٨٥

بعـد سـاعاتٍ فقـط مـن نشـرِ صـورِ المُتَّهـم وصلَـتْ برقيَّـةٌ مـن أحـدِ مشـافي الأمـراضِ العقليَّـةِ في بلـدةِ (ترنتـون) الـتي تبعـدُ مسـافةَ ألـفِ كيلـو مترعـن البلـدةِ، تُؤكِّـدُ أنَّ هـذا الرجـلَ أحـدُ نـزلاءِ المَشـفى، وأنَّ فريقـاً برئاسـةِ الطبيـبِ المُشـرفِ على المريـضِ وبرفقةِ والديهِ سـيحضُرونَ لاسـتلامِهِ ومعهـم كتـابٌ خَطِّـيٌّ مـن المَشـفى.

شـعرَ النقيـبُ جـاك أنَّـهُ أصـابَ الهـدفَ، وأنَّ تخمينَـهُ كان صائبـاً، فكَّـرَ النقيـبُ بإصـدارِ أمـرِ بالقبـضِ علـى كلِّ أصحـابِ السـوابقِ للتحقيقِ معهـم بخصـوص الجثـة، لكنَّـهُ تراجـعَ أخـيراً، عندمـا فكَّـرَ ثانيـةً في البرقيَّـةِ الـتي وردتْ مـن المَشـفى:

«هـذا غـير مَنطقـيٍّ أبـداً، لا يُمكـنُ أنْ أصدِّقَـهُ» تمتـمَ النقيـبُ جـاك، ثـم صمـتَ قليـلاً بينمـا توجـه الشـرطيان بـكلِّ حواسِّـهما نحـوَ النقيـبِ وتابـع قائلاً:

هـلْ يُعقـلُ يـا سـادةُ أنَّ رجـلاً مَجنونـاً يقطـعُ هـذه المسـافةَ الطويلـةَ مـن مدينـة (ترنتـون) إلى هنـا.... شـخصٌ مجنـونٌ فاقـدُ العقـلِ لا يملـكُ مـالاً ولا هويَّـةً؟

قال شرطيٌّ: سيصلُ غداً مُوظَّفُ المَشفى مع والديه وسنتحقَّقُ من الأمر، لا أظنُّ أنَّ والديه لا يعرفانِه، بالرغم من كلِّ الشكوكِ إلا أنَّ المُحقِّق ورجالُه وجدوا في هذه البرقيةِ نهايةً لمعاناةٍ استمرَّتْ أيَّاماً في التحقيق مع الرجل بلا فائدة، كان الرجلُ يتكلَّمُ بثقةٍ وشخصيَّةٍ قويَّةٍ حتَّى أنَّهُ لم يشكّ أحدٌ فيه أنَّه مجنونٌ.

تعافى المتهمُ قليلاً وأُعيدَ إلى غُرفةِ الحجزِ في مَقَرِّ الشرطةِ، أرادَ النقيبُ اختبارَ المُتَّهَم ليرَى ردَّةَ فِعْلِهِ بخصوصِ البرقيَّةِ التي وصلتْ من المَشفى، ومنَ خلف القضبانِ تحدَّثَ إليه المُحَقِّقُ:

لكَ مُفاجأةٌ سارَّةٌ أيُّها الرجلُ.

قال الرجل: هل وجدْتُم زوجتي وعائلتي؟

قال المُحقِّقُ: نعم، وجدْنا أمَّك وأباك، وسيحضرون قريباً لرؤيتك.

قال الرجل ضاحكاً: أمي وأبي!

واستمرَّ بالضحك.

قال المُحقِّقُ: لماذا تضحك؟

يبدو أنَّك تضحكُ من الفرحة، أليسَ كذلك؟

قال الرجلُ غاضباً: أتسخرُ مني سيدي؟

قال المُحقِّقُ: لا إنَّها الحقيقةُ، اتصلوا بنا وأكَّدُوا أنَّهم سيحضرون قريباً.

قال الرجل: لكن أبي وأمي ماتا قبل سنينَ طويلةٍ سيدي.

ذُهِلَ المُحقِّقُ من جواب الرجلِ، ووقفَ واجماً للحظةٍ، واستغرب من ردَّةِ فِعْلِ المُتَّهَم الواثقِ من نفسه وهو يتكلَّمُ بجدٍّ فغضبَ ثم تركَهُ وغادرَ المكَانَ إلى مكتبهِ.

اتَّصلَ المُحقِّق بالصحفيَّةِ، وطلبَ منها عدَمَ نشرَ أيَّةَ معلوماتٍ عن المتَّهم حتى يتحقَّقَ من الأمرِ، وأطلَعَها على فحْوَى برقيَّةِ المَشفى، وطلبَ منها حضورَ الجلسةِ.

عندما وصلَ الطبيبُ ووالدا الرجلِ إلى مركزِ الشرطَةِ واجتمعوا مع المُحقِّقِ ورجالِهِ بوجودِ الصحفيَّةِ، قال الطبيبُ للمُحقِّق: كان من المفروضِ أن تتصلوا بنا فورَ إلقاءِ القبضِ عليه، خاصَّةً وأنَّ سامَ يحملُ في عنقهِ سِلسالاً به كلُّ المعلوماتِ اللازمةِ عنه.

قال المُحقِّقُ: لم نجدْ معه شيئاً يثبتُ شخصيَّتَهُ، ويبدو أنَّهُ لا يعرفُ شيئاً؛ لذلك قمْنا بتعميمِ صورته في وسائل الإعلام، ولم نقرأْ أو نسمعْ أنَّ هناك مَريضاً مَفقوداً.

أحضرَ الشرطيُّ الرجلَ إلى غرفةِ التحقيق.

كانتْ الأمُّ قلقةً وفي شوقٍ شديدٍ لرؤيةِ ابنها وكان والدُه لا يقلُّ عنها فرحةً وسعادةً، كان الجميعُ يتوقَّعُ أن يقابلَ الرجلُ والدَيه بحرارةٍ، بعد غيابِ أيَّامٍ عنهم.

الجميعُ في لهفةٍ وشوقٍ لما سيحدُثُ عندما يدخلُ الرجلُ لمُقابلةِ والديهِ والحضورِ، وكان المحقِّقُ في حيرةٍ كبيرةٍ، ويترقَّبُ تلكَ اللحظةَ باهتمامٍ بالغٍ.

كانت سوزي تتوقَّعُ مفاجأةً كبيرةً خاصَّةً عندما قال الطبيبُ أنَّ اسمَ الرجلِ سام، والرجلُ يقولُ أنَّ اسمَهُ جو، وأنَّ أمَّه وأباه ماتا منذُ زمنٍ بعيدٍ.

قال المُحقِّقُ: أرجو من الجميع عدمَ التَّكَلُّم مع الرجلِ أو التحركِ عندما يدخلُ القاعةَ؛ لنرى إن كانَ يتعرَّفُ عليكم أم لا.

دخل الرجلُ برفقةِ الشرطيِّ ووقفَ جانباً كالعادةِ ظاناً أنَّه سيتعرَّضُ للتحقيقِ ككلِّ مرَّةٍ، لكنَّ الرجل التفتَ نحوَ الموجودين وتفحّصهم ولم يحرِّكْ ساكناً، فيما كانتْ الأمُّ، تحاولُ القيامَ إليهِ وضمِّهِ إلى صدرِها بعد هذا الغيابِ لولا أوامرُ المُحقِّقِ.

كانتْ مفاجأةً كبيرةً وصدمةً لوالديه ولطبيبِ المَشفى مِمَّا أدخلَ الشكَّ ثانيةً إلى عقلِ المُحقِّقِ ورجالِهِ.

قال المُحقِّقُ: أَلَا تتعرَّفُ على ضيوفِنا؟

انظرْ إليهم أَلَمْ تعرفْ أحداً منهم؟ ألم تقابلْهم من قبلُ؟

قال الرجل: لا أعتقدُ سيدي.

رمقَ النقيبُ الأمَّ بنظرةٍ فيها إيحاءٌ لها، أنْ تتقدَّمَ نحوَ المُتَّهم- ابنِها كما تَدَّعي- وكما هو واضحٌ من لهفتِها عليهِ وحُزنِها الشديدِ لما آلتْ إليهِ حالُهُ، كأنَّها تجلسُ على الجمر في انتظارِ السماحَ لها بأخْذِه في أحضانها ومعانقَتِهِ، وقفتْ الأمُّ وعلى شفتيها ابتسامةٌ رقيقةٌ حنونةٌ وهي مُجهشةٌ بالبكاء الصامتِ دون أن تنبسَ ببنتِ شفةٍ، تقدَّمتْ نحو الشابِّ بحذَرٍ، في حين اتَّجهتْ كلُّ الأنظارِ نحوَهما في انتباهٍ يشوبُه القلقُ، بدًا على المُتهمِ العُبوسُ والتجهُّمُ

وضاقتْ عيناهُ وبدَتْ نواجِذُهُ مُحملقاً في السيدةِ، وقالَ لهَا بعدَ أنْ اقتربتْ منه كثيراً: ماذا تريدين مني سيدتي؟

أرجوكِ ابتعدي عني، لو علمتْ زوجتي بذلك، لغضبتْ منكِ أشدَّ الغضبِ.

قال المُحقِّقُ: إنَّها والدتُك يا رجلُ! أَلَا تعرفُها؟ وهذا والدُك، انظر كم هو سعيد لرؤيتك! كان الوالد واقفاً مُتحمِّساً للقائه.

قال الطبيبُ: ماذا أصابَك يا سامُ؟

هل نسيتَ أمَّك وأباك؟

كنتَ تحتضِنُهم كلمَّا جاءوا لزيارتِك في المَشفى، جئْنا لنُعيدَك لإكمالِ العلاجَ.

قال الرجلُ: سام! عمَّن تتحدَّثُ؟

لا بدَّ أنَّك تعني رجلاً آخرَ، أنا اسمي جو، جو مارتن ويلسون، وأنا لا أعرفُكم، ولم أرَ أحداً منكم من قبلُ.

ثم التفتَ نحوَ المُحقِّقِ وقالَ:

أرجوكَ سيدي لا تصدِّقْهم، والديَّ ماتا قبل سنينَ طويلةٍ كما أخبرتُك، وأنا أعيشُ مع زوجتي وأولادي منذُ زمنٍ طويل، فابنتي تبلغ أربعةَ عشرَ عاماً، ولا أدري من أينَ جاءَ هؤلاءِ الرجالُ؟

قال الطبيب بعد أن قام من مكانه ووقف أمام الرجل:

سيد سام، يبدو أنَّك متعبٌ لعدم تناولك الدواء اللازم في موعده، ما جعلك تنسى حتى والديك.

تقدم الأبُ وتقدمت الأمُّ نحو الرجل والمحقق والجميع يتابعون ما سيحدث، مد الأبُ يده نحو الرجل مصافحًا إياه، تراجع الرجل قليلاً ولم يتكلم، كانت الأمُّ أكثرَ جرأةٍ من الأب وأكثر شوقاً وحناناً له، لكنَّها كانت خائفة ترتجف، نظرت إليه بحب وحنان، تأملته جيداً، حدَّقت فيه وفي عينيه.... صرختْ الأمُّ بصوتٍ مرتفع وهي تتراجعُ إلى الوراء وتردِّدُ: مستحيلٌ، مستحيلٌ، ورمتْ بنفسها بأحضان زوجها، ما زالتْ تبكي وسط استغراب الجميع حتى زوجها، نهض الجميعُ فزعين دون أن يعلموا سببَ بُكائها.

ما زالت الأم تردد: مستحيل، مستحيل.

قال الزوج: ما هو المستحيل عزيزتي؟

قالت الأم: عيناه انظر إليهما، إنَّهما مُخيفتان تلمعُ كالجمر، كعيون الحيوانات في الليل.

أجلسَ الزوج زوجته تقدَّمَ نحو الرجلِ يُرافقه الطبيبُ، ونظر في عيني الرجل بإمعان ثم قال: حقًّا إنَّهما مُخيفتان.

نظر إلى الطبيبِ ثم أمسكَ بربطة عنقه وقال بغضبٍ:

ماذا فعلتم بابني؟

ماذا فعلتم به يا دكتورُ؟

ماذا؟

وأخذ يبكي أيضًا.

قال الطبيب: لم نفعلْ به شيئًا، أقسمُ على ذلك.

قالت الأم بصوتٍ مرتفعٍ: إنَّه سام، إنَّه ابني، لكن عيناه...

وأخذتْ تبكي وتتأمَّلُ ابنَها.

وقالتْ: عيناه ليستْ عيونَ بشرٍ أبدًا، هذا مستحيلٌ.

أكَّدَ الطبيبُ أنَّه سام، لكنَّه يتقمَّصُ شخصيةَ رجلٍ آخرَ؛ لأنَّه مصابٌ بفقدان الذاكرةِ وانفصامِ الشخصيةِ.

كان المحقُق متردداً في اتخاذ أي قرار بعدما سمع أقوالاً متناقضةً حتَّى من الذين يدَّعون أنَّه ابنُهم، والطبيبِ المشرفِ على علاجه، خاصةً وأنَّ الرجلَ أنكرَ معرفتَه لأيٍّ منهم.

بعد انتهاء الجلسةِ الأولى بين النقيب جاك والمتهم، مع مَن وصلوا من المشفى من مدينةِ بايون ومع كلِّ التأكيدات التي طرحوها أنَّ الشاب- المتهم- هو ابنُهم الذي يُعالَج في مشفى الأمراض العقليةِ والذي تمكَّن من الهربِ، أُعيدَ المتهمُ إلى غرفةِ الحجزِ؛ ليقبعَ وحيداً من جديدٍ بانتظار تحقيقٍ آخر، لكنَّه كان سعيداً؛ لأنَّه تخلَّص من هؤلاء الذين جاؤوا ليأخذوه بعيداً عن بلدته، حملقَ المتهمُ في السقف والنافذةِ ذات القضبان الحديديةِ السميكة، ونظر إلى السماء وذهب بعيداً يستذكر محطاتٍ من حياته السالفة.

مدينة أديسون ١٨٣٥

وصلَ القطارُ إلى المحطة في بلدة (اديسون)، كان جمعٌ من الناس ينتظرون، وجو ما زال قلقاً وهو يترك القطارَ بحذرٍ وخوفٍ إلى

عـالم جديـد، وعينـاه ترقـبُ النـاس أمامـه تبحـثُ عـن ديفيـد بينهـم، لكنَّـه لم يشـاهدْ إلَّا الأيـديَ تلـوحُ مـن بُعْـدٍ في آخـر الزحمـةِ حيـث توجَّـهَ نحوهـا وهـو يخـترقُ ذلـك الجمـع حتـى وصـلَ إلى خارج حشـود النـاس الـتي التقـتْ بعضهـا ببعـض مـن قادمـين ومسـتقبلين، وجـو يأمـلُ أنْ يكـونَ مثلَهـم وأنْ يلتقـي بديفيـد كمـا التقـى النـاس ببعضهـم.

لكنَّـه لم يعثـرْ عليـه كمـا كان يتوقَّـعُ، أخـذَ يبحـثُ ويُراقـبُ ويـزدادُ حزنـاً وهـو يفكر:

إلى أين سيذهب؟

وأين سيقضي ليلته؟

وكيف سيبحث عن منزل صديقه؟

جلـس علـى الأرض واتَّـكَأَ مهمومـاً علـى الحائـط، أيـن أنـت يـا ديفيـد بحـقِّ السـماء؟

وفجـأة تذكـر رسـالة صديقـه، أخرجهـا مـن جيبـه ثـم توجَّـهَ إلى أحدهـم وطلـبَ منـه أنْ يدلَّـه علـى عنـوان ديفيـد المكتـوب داخـل الرسـالة.

كان الرجـلُ يقـرأُ في الرسـالة وجـو يتأمَّلُـه ويأمـلُ أن يأخـذَ بيـده إلى منـزل صديقـه، وإذا بصـوتٍ قـادمٍ من بعيدٍ يصـرخُ: جو ... أنـا هنا....

جو أنا هنا...

التفـتَ جـو إلى حيـثُ الصـوتُ، وإذا بصديقـه ديفيـد يأتـي مسـرعاً وهـو يبتسـمُ...

نسيَ جو الرسالةَ مع الرجل، وركضَ مُسرعاً نحو صديقِه حتى إذا ما التقيا تعانقا طويلاً، وجو يبكي فرحاً من سعادته: عزيزي ديفيد خشيتُ ألَّا تحضرَ كنتُ خائفًا.

قال ديفيد: أرجو المعذرةَ جو؛ كنتُ في المدرسة، أنا سعيد بوجودك معي جو.

قال جو: لا تعلم كم هي سعادتي، أنت... أنت ديفيد مَثَلِي الأعلى، أنت الصديق الوفيُّ، أنت أكثر من أخ، وجودي معك يُشعرني بإنسانيتي، أنتَ الوحيدُ الذي يحترمُنَي.

غادرا المحطة إلى منزل ديفيد وسط البلدة، هناك وفي الطابق الأرضي (التسوية) كانت مُفاجأةٌ سارَّةٌ بانتظار جو... غرفة واسعة بها كل ما يحتاجه... حتى أنّه وجد فيها ما لم يجدْه في بيت والده؛ فكانتْ غرفةً جميلةً مريحةً، لها مدخلٌ مستقلٌّ من الجهة الغربية....

كانتْ الغرفة تحوي كرسيين من الخشب وطاولةً صغيرةً عليها بعض الصحف والمجلات، وبها سريرٌ من الحديد تعلوه فرشةٌ قطنيةٌ ذاتُ قماشٍ بلون السماء ومخدة من النوعِ ذاته، وبطانية ذات ملمسٍ ناعم مغطاة بشرشفٍ أخضر اللون، وكانَ ثَمَّةَ أواني مطبخٍ تنتشرُ في الركن المقابل للسرير، وإبريق ماءٍ من الزجاج وكأس لشَرب الماء.

سهر الصديقان بعض الوقت، وأدرك ديفيد بأنَّ جو بالرغم من فرحته إلَّا أنَّه مرهقٌ للغاية وعيناه ذابلتان شبه مطبقتين، فتركه لينام وأغلق الباب خلفه.

غطَّ جو في نومٍ عميقٍ، ولم يُفق إلا صباحاً، نظر من النافذةِ إلى الشمس وهي بالكَاد قد بانتْ، وبدأ قرصُها الذهبيُّ يرسل شعاعَه

في كلِّ مكانٍ، وتأمَّلَ الأشجار في الحديقةِ ثم استعدَّ لحضور ديفيد لينطلقَ به إلى عمله الجديدِ.

كانتْ تلك الليلةُ من أجمل الليالي التي عاشها جو مع صديقه الوفي حتى أنَّه نسيَ وتناسى والديه وأختَه وأنانيةَ جون.

في الصباح اصطحب ديفيد صديقَه جو وهو في طريقِه إلى المدرسة وسلَّمه عملَه الجديدَ، كموزِّعٍ للجرائدِ في أحياء بلدةِ (اديسون)، كان الأمرُ يبدو سهلاً للوهلةِ الأولى، إلَّا أنَّ جو واجه يوماً شاقاً، وكانت تعترضُه بعضُ المتاعبِ من الصبيةِ والعابثين... كان الناسُ غرباءَ عنه، كما هو الحالُ مع الأحياء والشوارع التي لم يسبقْ له أنْ تعرَّفَ عليها، أمضى جو يومَه بمشقَّةٍ كبيرةٍ، إلَّا أنَّه باع كلَّ ما لديه من جرائد.

هكذا تعوَّدَ جو على تلك الحياة ويوماً بعد يوم استطاعَ التأقلم، وبالرغم من تلك الحياة الصعبة التي كان يعيشُها بين أحضان عائلته، وبالرغم من أنَّ السفرَ والعمل بعيدًا عن أسرته كان حُلْمًا له وقد تحقَّقَ، إلَّا أنَّه شعر بالغربة والوحشة بل وافتقدَ تلك الأمسياتِ الحزينةَ والمؤلمة معهم؛ ذلك لأنَّه في بلدة (اديسون) يقبعُ وحيداً معظمَ أوقاته بانشغال ديفيد عنه في مدرسته ودراسته في البيت إلَّا من بعض اللحظات القليلة التي يعرِّجُ فيها ديفيد عليه كلَّ مساءٍ.

أيام وأسابيع مضتْ، تعرَّفَ فيها جو على كلَّ أحياء البلدة بل تعرَّفَ على كثير من الناس خاصة في الشارع الذي يسكنُ فيه والمحلاتِ التي يتردَّدُ عليها أو يتجوَّلُ أمامها، ووجد بعض الأصدقاء وكان سعيداً بهم كان جو يتسامحُ مع الجميع، وفي كلِّ

مـرةٍ يتعـرَّض فيهـا إلى الإهانـةِ مـن البعـض كان يضـعُ اللـومَ علـى نفسـه ويعتـبر نفسَـه مقصِّـراً مـع الآخريـن.

كان الأجـرُ الـذي يحصـلُ عليـه جـو جيِّـدًا إذا مـا قـورنَ بمـا كان يحصـل عليـه في بلـدة (بايـون)، بـل كان أكثـرَ مـن الأجـرِ الـذي كان يتقاضـاه والـده ذو الخـبرة الطويلـة، كان جـو يرسـلُ كلَّ مـا يزيـدُ عـن حاجتـه إلى والـده، وكان يرسـلُ لهـم أخبـارَه أولاً بـأولٍ عـن طريـق صديقِـه ديفيـد.

كان أصدقـاءُ جـو الذيـن تعـرَّفَ عليهـم أخـيرا قلـة، وكانـوا لا يلتقـون إلَّا في النهـارِ عـن طريـق العمـل فقـط، ولم يكـنْ ليـزورَه أحـدٌ في منـزل ديفيـد خوفـاً مـن إزعاجهـم، أحـبَّ جـو عملـه كثـيرًا، وأحـبَّ بلـدة (اديسـون) أيضـا، وكان مَثَلُـهُ الأعلـى في هـذه الحيـاة هـو ديفيـد الـذي لم يبخـلْ عليـه بشـيء؛ حتـى أنَّـه أخـذ يعلمـه الكتابـة والقـراءة إلَّا أنَّـه أصبـحَ وحيـدًا بعدمـا تفاجـأ بـأنَّ ديفيـد سـيرحلُ؛ لأنَّ والـده سيرسـله إلى مدرسـة داخليـة في بلـدة بعيـدة ممـا زاد في عزلتـه وانطوائه.

كان جـو يمضـي أوقاتـه في المنـزل بعـد العمـل في مطالعـةِ الجرائـد وكان سـعيداً بذلـك؛ لأنَّـه تعـرَّفَ علـى أخبـار العـالم مـن حولـه للمـرَّةِ الأولى في حياتـه وإن كانـتْ بصعوبـةٍ وبـطءٍ شـديدين.

ذات يـوم بينمـا كان جـو عائـداً مـن العمـل إلى المنـزل، كانـت هنـاك برقيـةٌ في انتظـاره تُخـبره أنّ عليـه العـودةَ إلى بلـده (بايـون) سـريعاً؛ لأنَّ والـده تُـوفِّي ورحـلَ عـن هـذه الدنيـا تـاركاً خلفـه مسـؤولياتٍ جسـام سـتُلقَى بالتأكيـد علـى كاهـلِ جـو وحـده؛ فجـون مـا زال صغـيراً وطالبـاً في المدرسـة، وأمُّـه تعانـي مـن مشـاكلَ صحيـةٍ كثـيرةٍ، أمـا

أختُـه جوليـت فكانـتْ العائلـة تسـتعدُّ لحفـل زفافهـا مـن ابـن صديـق العائلـة لـولا وفـاةُ والدِهـا المفاجئـةُ.

غـادرَ جـو البلـدةَ عائـداً إلى مسـقطِ رأسِـه وهـو يحمـلُ هموماً كبيرة، وتمَّ اسـتقبالُه بحـرارة بالغـةٍ مـن أمِّـه وأختـهِ والجـيرانِ والأصدقاءِ.

تقبَّـل جـو العـزاء في والـده مـن جموعِ النـاسِ، وبعـد الغيـابِ الطويل عـن العائلـة وبعدمـا أصبـحَ المـوّلَ الوحيـد لهـا ظن أنّـه أصبح السـيدَ في البيـت، وأنَّ لـه الاحـترامَ والتقديـرَ مـن الجميـع، لكنَّـه اصطـدمَ بوالدته المريضـة الـتي مـا زالـتْ تعتـبرُه ذلـك الصـبيَّ السـاذجَ والأهـوجَ، وأن جـون مـا زال محـطَّ إعجابِهـا واهتمامِهـا، ممـا حـدَا بجـو للتفكـير في العـودة إلى بلـدة (أديسـون) سـريعًا لـولا إصـرارُ والدتـه أن يبقـى حتـى تُـزَفَّ أختُـه إلى عريسـها بعـد أيـام قليلةٍ تنفيـذًا لرغبـةِ الأبِ قبل وفاته.

كان جـو يتأمَّـلُ والدتـه المريضـةَ ويتمتـمُ: أنـتِ تؤذينـني كثـيراً أمـي، أنـت تدمريـن حـبي لـك!... لمـاذا؟.. لمـاذا؟ بعـد كل هـذا الغيـاب لا تُقَدِّريـن مـا أفعلـه مـن أجلكـم!

أنـا أعيـشُ وأشـقى لكـم، كلُّ مـا لـديَّ أقدمـهُ لكـم، لمـاذا مـا زلـتِ تتجا هليننني؟

ماذا أفعلُ لتعتبرينني ابنك الأكبرَ الذي يسعى على خدمتكم؟

كان جـو حزينًـا طيلـةَ فـترة وجوده في بلده (بايـون) وبعد أنْ تمَّ زفافُ أختـه ودَّعَ جـو والدتـه، وأخبرهـا بأنَّـه سـيبقى يتذكَّرُهـم جميعًـا، وأنَّـه سيرسـلُ لهـم المـالَ، وكأنّ شـيئا لم يتغـيَّرْ، ضـمَّ أمَّـه إلى صـدره بحنـانٍ وحـبٍّ، وحـاول كذلـك مـع أخيه جـون المتعجـرفِ الذي تراجـع قليلاً، وبالـكاد وضـع يـده في يـده، وغـادر البلـدةَ يقطـرُ قلبُـه ألمـاً وحزنـاً.

في بلـدة (أديسـون) كان جـو يشـتري كلَّ مـا يحتاجُـه مـن بقالـةٍ بالجـوار، مـا زالَ جـو وحيـداً دون أصدقـاء، لكنَّـه كان يعـرف كلَّ زبائـن المحـلِّ، في الفـترة الأخـيرة رأى جـو فتـاةً تـتردَّدُ علـى المحـلِّ لأوَّلِ مـرةٍ ولم يسـبقْ لـه أن شـاهدَها مـن قبـلُ.

كانتْ الفتاةُ تحملُ أغراضًا كثيرة بالكاد تستطيعُ حملَها.

قـال جـو:- في نفسـه- يـا لـكِ مـن فتـاةٍ رائعـةٍ! أنت لسـت من هذه البلـدة؟ هـذه أول مـرَّةٍ أشـاهدُك فيهـا، بالتأكيـد أنـت بحاجةٍ لمساعدة.

فتقـدَّم جـو واسـتأذنها في حمـلِ بعـض أغراضِهـا عنهـا، رحَّبـتْ الفتـاة بالعـرض، رافقهـا إلى منزلهـا، كان قريبـاً مـن منزلـه، عندمـا وصـلَ إلى المنـزل، وضـع مـا معـه مـن أغـراضٍ، ثـم عـاد أدراجـه إلى المحِّـل، شـكرتْ الفتـاةُ جـو علـى مساعدته بابتسـامةٍ رقيقـةٍ، كانـتْ تلـك الابتسـامةُ أفضـل أجـرٍ يحصـلُ عليـه طيلـةَ حياتـه، فقـد وجـد فيهـا البلسـمَ الـذي سـيُداوي بـه همومـه وجراحَـه.

قال جو وهو يودِّعُ الفتاة:

الحيـاة تبتسـمُ لـي مـن جديـدٍ، هـذه الفتـاة تحمـلُ قلبًـا مـن ذهـبٍ، أتمنَّـى أن نلتقـيَ مـن جديدٍ.

تكرَّرَ اللقاء صدفةً عدَّة مرَّاتٍ بين جو وتلك الفتاة.

وفي إحـدى المـراتِ عندمـا كان جـو يسـاعدُها في حمـلِ أغراضِهـا، طلبـتْ الفتـاة مـن جـو أن يصعـدَ إلى منزلهـا ليحتسـيَ فنجانـاً مـن الشـاي، وافـق جـو وهـذا مـا كان يتمنَّـاه مـن قبـلُ، كانـتْ والـدةُ الفتـاة في المنـزل، رحَّبـتْ بـه كثيراً عندمـا عرفـتْ مـن ابنتِهـا أنَّـه مَـن

ساعدَها، كان جو سعيداً وهو يجدُ مَن يرحِّبُ به ويحترمُه، وكان سعيدًا أكثر بذلك التقارب وتلك الصداقة.

كانتْ الفتاةُ واسمُها ليزا قدِمتْ إلى بلدة (أديسون) مع والديها قبل أيام قليلةٍ وذلك أنَّ والدها جاء في مأموريَّةٍ لبضعةِ أسابيعَ قاربتْ على الانتِهاء، وسوف يعودُ إلى بلدة (نيوراك) حيثُ يعيشُ هناك، أحبَّتْ ليزا جو كثيرًا، وجدتْ فيه ما لم تجدْه في أصدقائها الكثيرين.

كانتْ ليزا وحيدةَ والديها، وكان والدُها يحبُّها كثيرًا، ويلبِّي كلَّ طلباتِها، وكان له مركزٌ مرموقٌ في البلدة، وله علاقةٌ كبيرةٌ بكلِّ المسؤولين فيها.

كان جو يعيشُ لحظاتٍ من السعادة إذا التقى ليزا وتحدَّثَ إليها، وهي تبادلُه بابتسامتها المعهودة كلَّما التقتْ به، وتُكِنُّ له الاحترامَ والتقدير، كانت ليزا تحبُّ في جو بساطَتَهُ وحبَّه لمساعدة الآخرين وكذلك الطيبةَ والتواضعَ، وكان جو يعيشُ على أحلام تلك الابتسامة كلما كان وحيدًا.

وجد جو في ليزا ما لم يجدْهُ في أمِّه وأخيه من حنان وحب واحترام، لكنه لم يجرؤْ يوما أن يُبديَ لها رأيَهُ فيها؛ لأنَّه يعلم أنَّه في وضْعٍ لا يسمحُ له بمجرَّدِ الحديثِ معها، فأينَ هو منها ومن عائلتها؟ وكان يظنُّ أنَّ تلك المعاملة من ليزا له لا تتعدَّى كونَها علاقةً بين سيدةٍ وخادمِها.

كان اللقاءُ الأخيرُ بينهما أمام البقالة، كان الموقفُ حزينًا وكئيباً؛ لأنَّ ليزا لم تقابلْه بتلك الابتسامةِ الشفَّافةِ التي تعوَّدَ عليها وبالترحيبِ الذي كان يُلاقيه منها مِمَّا شجَّعه على السؤال عن

حالها، وكانتْ الإجابةُ بمثابةِ صدمةٍ كبيرةٍ لجو عندما أخبرتْه ليزا بأنَّها سترحلُ مع والديها خلال أيامٍ.

حزنَ جو حزنًا لم يعهدْهُ من قبلُ حتى عند موتِ والده، فهو سيفقدُ برحيلِ ليزا إنسانةً عظيمةً لديه؛ أشعرتْهُ بإنسانيته ومكانتِه، ورفعتْ كثيرًا من معنوياته، وكان جو يشعرُ نحوها بعاطفةٍ جيَّاشة، كان سيصرِّحُ لها لولا الفارقُ الاجتماعيُّ الكبيرُ بينهما، لم يتكلَّمْ جو ولو بحرفٍ واحدٍ ولكنَّ عيناه ونظراتُه قالتْ ما فيه الكفايةُ، كانتْ ليزا أكثر جرأةً منه وبدأتْ في الكلام.

قالتْ ليزا: يبدو أنَّك حزين يا جو، لماذا؟

قال جو: كثيرًا؛ لأنك سترحلين، سأبقى وحيدًا.

قالتْ ليزا: هل تحبُّني يا جو؟

قال جو: – مُتلعثما– أُحبُّك... أنا... نعم... نعم... أنا...

قالتْ ليزا: هل تُوافق على الزواجَ مني يا جو؟

قال جو: لكن....

قالتْ ليزا: لكن ماذا يا جو؟

قال جو: أين أنا؟.... وأين أنتِ؟

فأنا فقير جدًا يا آنسة.

قالت ليزا: كلنا أبناء آدم وحواء يا جو.

يكفي أنَّك تملكُ أخلاقًا عاليةً لا توجدُ لدى الكثيرين.

قال جو: وأهلك ووالدك، هل سيوافقُ؟.

قالت ليزا: والدي يحبُّني كثيراً؛ لا يرفضُ لي أيَّ طلبٍ، فأنا ابنته الوحيدة، ثم هذه حياتي يا جو، فأنا قد بلغتُ السنَّ القانونيَّ.

قال جو: ماذا سأفعل إذن؟.

قالت ليزا: تعالى إلى منزلنا الليلة، وتحدَّثْ إلى أبي.

كانتْ تلك الليلةُ رهيبةً جدا في بيت ليزا، والدها ووالدتها يجلسان بجوار بعضِهما، وكانتْ ليزا تجلسُ بالقرب من جو الذي يجلس في خوف وقلق، لكنه لم يتكلمْ بل لم يجرؤْ على الكلامِ.

أخذتْ ليزا تحثُّهُ على أن يبدأ في الحديثِ مع والدها، أخذَ جو يتحدَّثُ ببطءٍ شديدٍ، لكنَّه يتلعثمُ كعادتِهِ من الموقفِ الجلَلِ الذي جاء من أجله، لم يفهمْ والدُ ليزا شيئًا مما يقولُ، تدخَّلت ليزا لإنقاذِ الموقفِ وإنقاذ جو مِمَّا هو فيه من رهبةٍ.

قالتْ ليزا: جو جاء إليك أبتي ليطلبَ يدي منك، لقد اتفقْنا على الزواجَ، كان جو يومئُ برأسه ويحاولُ الابتسامَ، وهو يسترقُ النظرَ إلى والد ليزا.

نهض والدُ ليزا وصرخَ بأعلى صوته في وجه جو، مُتهجِّماً عليه وقائلا:

انهضْ أيُّها الأبلهُ المعتوهُ.

كنتُ أظنُّكَ خادماً مُؤدباً، لم أتوقعْ أبدًا أنَّك وقحٌ، لتجرؤَ على مخاطبة أسيادِك والجلوسِ معهم.

وقـفَ جـو وهـو يرتعـدُ خوفًـا ولم ينبـسْ ببنـتِ شـفةٍ، وحـاولَ الهـربَ مُسـرعا إلى البـابِ.

اعترضَتْهُ ليزا وقالتْ لوالدها:

أرجوكَ يا أبي... أنا مَن طلبَ منه ذلك... فأنا أحبُّه.

قال والد ليزا: أنتِ!... لابد أنَّك تمزحين...

بل تريدين أن تسخري من هذا الأبله وتتلاعبين بعواطفه...

أليسَ كذلك يا ليزا؟.

قالـت ليـزا: لا... هـذا ليـس صحيحـاً أبـدا، أنـا جـادَّةٌ في كلِّ مـا أقولـه ومتأكِّـدةٌ مـن عواطفـي نحـوه.

قال والد ليزا: لقد جُنِنْتِ إذن!... لن أسمحَ بذلك أبدًا.

أتفهمين؟

احتـدمَ النقـاشُ بـين ليـزا ووالدهـا، بينمـا هـربَ جـو مُسـرعاً ودموعُـه تنهمـرُ بغـزارةٍ مـن عينيـه حتـى وصـل إلى غرفتـه، فرمـى بنفسِـه علـى الأرض يتمتـمُ ويبكـي ويكلِّـمُ نفسَـه.

أنا أستحقُّ أكثرَ من ذلك....

مَنْ أنا لأتزوجَ ليزا؟

أينَ أنا منها؟

أنا غبيٌّ وساذجٌ فِعلاً...

والدُ ليزا مُحِقٌّ في تصرُّفِهِ معي.... نعم، إنَّهُ مُحِقٌّ....

كان يحترمُني عندما كنتُ أساعدُ ليزا....

أما الآنَ انتهى كلُّ شيءٍ.... كلُّ شيءٍ.

وأخذ يبكي ويندبُ حظَّهُ.

كانت تلك الليلةُ قاسيةً جدًّا على جو، وعادت إليه الأيَّامُ الماضية والمؤلمة بكل أحزانها وقسوتها، إلا أنَّ والد ليزا كان أكثرَ قسوةً وأسلطَ لساناً.

وفي الصباح وهو خارجٌ من بيته إلى العمل شاهدَ ليزا تقفُ على ناصيةِ الطريقِ بانتظارِه.

تفاجأَ جو...

وابتسمتْ له ابتسامتَها المعهودةَ...

كانتْ ليزا حزينةً أيضًا تلك الليلة الماضية لما سبَّبَتْهُ له من ألمٍ كبيرٍ.

قالت ليزا: صباح الخير يا جو.

قال جو: صباح الخير آنسة ليزا.

قالت ليزا: أنا أعتذرُ لك يا جو عما حدثَ بالأمس من والدي.

قال جو: لا عليكِ يا آنسه ليزا؛ إنه ذنبي أنا الذي تجرَّأْتُ على طلبِ يدك.

قالت ليزا: أرجوكَ لا تقلْ ذلك؛ فأنت شابٌّ طيبٌ...

وأنا ما زلتُ موافقةً على الزواجَ منك.

قال جو: علينا أن ننسى الأمرَ يا آنسة ليزا.

قالت ليزا: اسمعْ يا جو، بعد غدٍ سنعود إلى مدينه (نيوراك) سأبحثُ لك عن عملٍ ومنزلٍ أيضاً، سأرسلُ لك رسالة بذلك، وهناك سنتزوَّجُ بعيداً عن أبي وسلطته، وستكونُ لنا حياتُنا الخاصةُ والجميلة، أعدُك بذلك يا جو، أمَّا الآنَ فوداعًا.

قال جو: وداعا آنسه ليزا... إلى اللقاء.

مدينة جيرسي ١٩٨٥

في صبيحةِ اليوم التالي التأمَ الاجتماعُ من جديد، وأُحْضِرَ المتهمُ الذي قضى وقتاً طويلاً تلك الليلة يتدبَّرُ أمره، ويفكر في طريقةٍ للخلاص من هؤلاء الذين جاؤوا ليأخذوه معهم –دون معرفةٍ مُسبقة– إلى مكان غريبٍ لا ينتمي إليه، كان المُتهم –في قرارةِ نفسه– حاقداً على الجميع وهو يتمتمُ بينما دار حديثٌ بين النقيبِ والطبيبِ:

ما الذي يُخططون له؟

كيف لا يُصدِّقُني أحد؟

لقد ماتوا جميعاً، كلُّ الذين أعرفهم ماتوا أو سُجنوا أو اختفوا، فهم المتهم ما يدور حوله، فعِقدتْ الدهشةُ لسانه، وبدا عليه الامتعاضُ وخيبةُ الأمل، لقد اتَّفقَ النقيبُ مع هؤلاء للخلاصِ منه، استعادَ المتهم في ذهنه صوراً للعمدةِ نورمان الذي كان يُنهي

كلَّ الخلافاتِ التي تحدثُ في البلدةِ بسرعةٍ ومحبةٍ دون أن يكذّب أحداً؛ فانتشرَ الحبُّ والاحترامُ والثقةُ بين الناس.

شعر النقيب جاك أنه بدأ يفقدُ سلسلة الأحداثِ شيئاً فشيئاً، فسواء أكان الطبيبُ صادقاً أم لا فإنَّ المتهمَ فاقدٌ للعقل؛ لأنَّه يتحدَّثُ عن شخصٍ مات قبل عقودٍ طويلة، أعاد الطبيبُ النقيبَ جاك من شروده:

سيدي النقيبُ، اعذرْني؛ فلا وقتَ لدينا، علينا العودةُ بسرعةٍ، هناك مرضًى بحاجةٍ ماسةٍ إليّ.

النقيب: عفوك سيدي، لكنَّ الأمرَ جدٌّ خطيرٍ، ولا أستطيعُ أنْ أتحمَّل مسؤوليةَ ما يحدث، فهذا المتهم لا يعرفُ أحداً منكم، ويُصرُّ على أنَّه رجلٌ آخرُ، لديَّ حدَسٌ قويٌّ -وحدسي لا يخيبُ أبداً- أنَّ هذا الرجلَ الذي لا تبدو عليه أعراضُ الجنونِ كما تدَّعي هو بين أمرين: إما أنَّه فارٌ من العدالة من أحد السجونِ، ولديَّ جثةٌ تقبعُ في المشفى، عثرْنا عليها قبل يومين، وفي نفس المكان الذي ظهر فيه الرجلُ بصورةٍ شيطانية تماماً، أو أن يكونَ جاسوساً مُتنكراً ومُتخفياً بزيِّ رُعاة البقر، ولما قبضنا عليه أخذ يُؤلِّفُ تلك الحكاياتِ لإنكار شخصيته.

قالت الأم: سيدي، إن كان حدَسُكَ لا يُخطئُ فإنَّ إحساسَ الأمِّ لا يعادلُهُ إحساسٌ آخر إطلاقاً، وأقسم لك بأنَّ هذا الشابَّ هو ابني سام، كان طالباً في الجامعة، وتستطيعُ أنْ تسألَ أصدقاءه وأساتذته؛ فهم جميعاً يعرفونه حقَّ المعرفةِ، ويعلمون جيداً ما الذي حدَثَ له، إنَّهُ ولدٌ صالح وطيب سيدي.

قال الطبيبُ: سيدي النقيبَ، نحن نضمنُ لك رسميّاً أنَّ هذا الشابَّ هو سام، ونتكفَّلُ بعلاجه وسيبقى في المشفَى، وتستطيعُ مُقابلته متى شئتَ، وسنتحمل كافَّةَ المسؤوليّاتِ القانونيةِ عنك.

شعرَ الرجلُ بأن المُحقق سيسلِّمُهُ إليهم، فقال:

سيدي لقد تذكَّرْتُ شيئا، سأقولُ لك حكايتي بالتفصيل.

قال الرجل: حكايتي غريبةٌ ولا تُصدَّقُ أعلمُ ذلك، ولا أعلمُ كم من الوقتِ مَضى على غيابي عن البلدة، وربَّما كان أحدُكم من أقربائي، وربَّما من أبنائي.

قال المُحقق: إنْ لم تَقُلْ الحقيقةَ فسوف أسلِّمُكَ إليهم بالتأكيد، لا أريدُ أنْ أسمعَ حكاياتٍ خرافيةٍ.

قال الرجل: كلُّ ما أطلبُه منكم سيدي أن تسمعوا حكايتي حتَّى النهاية.

تابع الرجل: اسمي جو سيدي، جئتُ إلى هذه البلدة عندما نشبتْ الحربُ في البلاد، كانتْ أرضًا خاليةً تسكنُها الحيواناتُ، بالصدفةِ التقينا هنا عِدَّةُ عائلاتٍ، ونزلْنا هنا للاستراحة بعضِ الوقت، ثُمَّ وافق الجميعُ على الاستقرار حتَّى تنتهيَ الحربُ، كان كلُّ واحد من الحضور ينظرُ للآخر مُستغربًا.

قال المحقق: هذا كلامٌ لا يُصدَّقُ أبدًا، الحربُ بدأتْ قبل أكثر من مائةٍ وخمسين عامًا، وعمرُك لا يتجاوز خمسةً وعشرينَ عاماً يا رجلُ!

قال الرجل: أقسم يا سيدي، إنَّها الحقيقة.

قال المحقق: أكملْ لنرى نهايةَ حكايتك.

قال الرجل: كان عُمري ٤٥ عاماً، وكانتْ الأوضاعُ صعبةً والحياةُ قاسيةٌ والعملُ قليلٌ، وكنا نحلمُ بأنْ نجدَ عملاً مُناسباً يساعدُنا على أنْ نعيشَ بكرامةٍ.

وكنتُ أعملُ مُزارعًا، وأرضي لا زالتْ كما تركتُها سابقًا، جاء الفرجُ.... رجلٌ لديه مزارعُ جنوب البلدة، على بُعدِ خمسةِ أيام من هنا، أخذ من البلدة عشرين رجلاً وأنا منهم، وفي مُنتصفِ الطريق كنتُ مُناوبًا للحراسة مع رجلٍ آخر أثناءَ الليل، ذهبتُ لقضاء حاجتي –أخذ الرجل يبكي– آه، آه –ويتمتمُ ثم تابع–:

شعرتُ بألمٍ شديدٍ في صدري كأنَّه سكينٌ غُرِزَ في القلب، بدأتُ أتخبَّط وأحاولُ طلبَ المساعدة، لكنْ لا أحدَ يسمعُني، فجأةً شعرتُ بأيدٍ تمتدُّ إلى صدري وتُمزق ملابسي مما سبّبَ لي ألماً شديداً، لكنَّني عُولجْتُ فيما بعدُ حتى شعرتُ بالراحة وزالَ الألمُ.

لم أرَ أحداً من هؤلاء الذين فعلوا معي ذلك، ووجدتُ نفسي في صندوقٍ كبيرٍ ثُمَّ طارَ في الفضاء حتى غاب في السُّحُبِ.

قال المُحقق: أينَ كان ذلك أيُّها الرجلُ العبقريُّ؟ هل على الأرض أم في السماء؟

قال الرجل: لقد كنتُ سيدي على كوكبٍ يُقالُ له (سيراتا)، وتعيش عليه مخلوقاتٌ غريبةُ الشكلِ.

قال المُحقق: وبعد ذلك أعَادوك إلى هنا، حيث ظهرتَ أمام رُوَّاد المقهى بصورةٍ غريبةٍ.

قال الرجل: لا سيدي، لقد عشتُ بينهم مدةً طويلةً بعدما تحسَّنتْ حالتي، ثم تعبتُ بعد ذلك ورجعتُ إلى المَشفى.

قال المُحقق: عظيمٌ جِدًّا.. إنَّها كما قلتَ قصةً غريبةً وخياليةً، ألَّفْتَهَا لتُبعدَ الشَّكَّ عن نفسك، هذه الحكايةُ مأخوذةٌ من حكاياتِ تراثٍ شعبيٍّ ومعروفة لدى الجميع في هذه البلدة، يبدو أنَّك سمعتَها من أحدِ الناس ووجدتَ فيها الخلاصَ، ونسيتَ أنَّها حدثتْ قبلَ مائةٍ وخمسينَ عاماً.

قال المتهم: سيدي إليك الدليلُ على صِحَّةِ كلامي –مدَّ يدَهُ إلى جيبةٍ داخليةٍ عند صدره وأخرجَ منها ورقةً– وقال: تفضَّلْ سيدي.

قال المحقق: ما هذه الورقةُ؟

قرأ المحققُ الورقةَ وضحكَ منها: ليستْ دليلاً على كلامك؛ يمكنُك الحصولُ عليها بسهولةٍ.

قال المتهم: سيدي هذه الاتِّفاقيةُ التي كتبَها العمدةُ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ.

في تلك اللحظاتِ شاهد مديرُ أحدِ السجونِ في مدينة (نيوراك) على شاشةِ التلفاز إعلاناً عن القبض على رجلٍ في مدينةِ نيوفلج وكان مديرُ السجن مُتيقناً أنَّ الرجلَ هو جيرالد السجينُ الهاربُ، وكان مُتحمساً جداً للقبض عليه ومعرفةِ سرِّ اختفائه من سيارةِ السجن بصورةٍ خياليةٍ.

أبرقَ مديرُ السجن إلى شرطةِ مدينةِ نيوفلج يخبرُهم فيها أنَّ الرجلَ المتهمَ لديهم هو سجينٌ هاربٌ من سجنِه ومحكومٌ عليهِ

بالسجن مدى الحياة، وأنَّ مُحققين سيتوجهون إلى المدينةِ، وبرفقتهم أدلةٌ وصورٌ تثبتُ ذلك.

ثم دخل القاعةَ شرطيٌّ يحملُ في يده ورقةً سلَّمها للمحقق.

حملقَ النقيبُ جاك في الورقة التي بين يديه، قطَّبَ حاجبيه، ونظر إلى مَن حوله تحذوه نشوةُ الانتصارِ.

قال المُحقق: لقد قلتُ لكم يا سادةُ أنَّ لديَّ حَدَساً لا يخيبُ أبداً بشأن هذا المتهمِ، نعم.

قال ذلك بلهجةٍ لاذعةٍ، فيها اتِّهامٌ للطبيبِ ومَن معه بمحاولةِ تضليل العدالةِ وحمايةِ المتهمِ.

قرأ النقيبُ الورقةَ ثم نظرَ إلى الرجلِ وقال:

هذا ما توقَّعْتُهُ منذ اليومِ الأول.

ثم قال للشرطيِّ: أعده للحجز.

ثم التفتَ إلى الحضور وقال لهم:

وصلتْ الآن هذه البرقية من مدينة (نيوراك) تقولُ أنَّ هذا الرجل الذين تدَّعونَ أنَّهُ ابنُكم جاسوسٌ وسجينٌ هاربٌ وقاتلٌ كبيرٌ ومحكومٌ عليه بالسجن مدَى الحياة قبل سنوات، وقد هربَ بمساعدةِ مجهولين أثناء نقلِهِ من المحكمةِ إلى السجن الذي سيقضي فيه العقوبةَ، وستصلُ لجنةٌ من محكمةِ المدينة والسجنِ، ومعهم أدلةٌ مؤكدةٌ من الأشرطةِ والتحقيقاتِ والصورِ.

ما أنْ سمعتْ الأمُّ كلام المحقق حتى انهارتْ ووقعتْ أرضًا.

وصاح الأبُ بقوَّةٍ.

لا سيدي، أرجوك لا تُصدِّقْهم، إنَّه ابنُنا وإليك دليلٌ آخرُ على ذلك.

تناول الرجلُ حقيبةَ زوجته وأخرج منها صورةً تذكارية، أُخذتْ لهما مع ابنِهما والطبيبِ المشرفِ عليه في المَشفى.

كانتْ الصورةُ تُؤكِّدُ أنَّ هذا الرجلَ هو نفسُه سام الذي يظهرُ فيها مع والديه والطبيبِ، فالشَّبَهُ كبيرٌ جِدّاً، كما أنَّ تأكيدَ الوالدين وخوفهم الشديد عليه يؤكِّدُ ذلك.

قال المحقق: سيد تشارلز، إنَّ التشابهَ في الأشكال أمرٌ طبيعيٌّ، وموجودٌ بكثرةٍ في كلِّ العالم، كذلك إنَّ عمليةَ دبلجةِ الصور أمرٌ سهلٌ وليس دليلاً ماديّاً قوياً على صحةِ ما تقول.

عندما وصلَ المحققون من مدينة (نيوراك) وتمتْ دراسةُ الملفاتِ والاطلاعُ على الصور وقرار المحكمة تفاجأ المحقق بوجه الشبه الكبير بين الرجل والمجرم أيضاً، وبعد مناقشات صاخبةٍ بين المُحقق الرئيسيّ في القضيةَ والمُحقق في مدينة (نيوراك) والطبيبِ اتفق الجميع على تسليم الرجل إلى الشرطة الفيدرالية، ومقرُّها بلدة (ترنتون) عاصمة ولاية نيوجيرسي لتبتَّ فيها بشكلٍ نهائيٍّ.

بالرغم من كلِّ التهم والتحقيقاتِ التي وُجِّهَتْ للمتهم إلا أنَّه كان يبدو على الدوام هَادئاً مُطمئناً واثقاً من نفسهِ مُتأكَداً من براءته مُؤمناً بقضيتهِ، مما أثار حفيظةَ النقيب جاك، واعتقد أنَّ المتهم رجلٌ يصعبُ الإيقاعُ به.

اتَّخَـذ النقيـبُ جـاك كلَّ الإجـراءاتِ والاتصـالاتِ اللازمـةِ لتسـليم المتهـم إلى الشـرطةَ الفدراليـةِ؛ لتتابـعَ قضيتـه، وزوَّدهـم بـكلِّ مـا توصَّـلَ إليـه حتـى تلـك اللحظـة، وتمَّ ترحيـلُ المتهـم إلى مدينـةِ ترنتـون.

تابعـتْ سـوزي كلَّ مـا جـرى للمتهـم، وكانـت تُـدوِّنُ كلَّ صغـيرةٍ وكبـيرةٍ عنـه في دفترهـا، وتأخـذُ الصـور اللازمـةَ للمتهـم ومَـن حولـه.

سـيدي النقيـب –قالـتْ سـوزي وهـي تلتفـتُ نحـوه وتتكلَّـمُ بسـرعةٍ لكـي لا تـترك مجـالاً لـه للمقاطعـةِ أو الاعتـذارِ عـن سماعهـا–: أعتـذرُ عـن تطفلـي سـيدي ولكـن..

قاطعها النقيبُ: هذا الوقتُ ليس مناسباً، فيما بعد.

تابعـتْ سـوزي الـكلامَ وهـي تقـتربُ مـن النقيـب: أشـعرُ سـيدي، بصـدقِ هـذه السـيدةِ حيـال ابنِهـا، وأعتقدُ بأنَّه صـادقٌ أيضـاً فيما يقول.

قـال النقيـبُ بعـد أنْ قطَّـبَ حاجبيـه بارتبـاكٍ واضـحٍ وفتـحَ فمَـهُ ليُقاطعهـا.

لكـنَّ سـوزي التفتـتْ نحـوَ السـيدةِ وقالـتْ لهـا: قلـبي معـك سـيدتي، أنـا متفائلـةٌ جـداً بعـودةِ ابنـكِ إليـك سـالماً قريبـاً جـداً – قالـت ذلـك بثقـةٍ وتصميـمٍ –.

دعابةٌ صحفيةٌ؟

قـال النقيـب جـاك، وقـد اصفـرَّ واخضـرَّ وجهُـه لجـرأةِ سـوزي وتجاهلهـا لـه، وأخـذ يُحملِـقُ فيهـا وهـو غـيرُ مُصـدِّقٍ أذنيـه: إنَّ تقييمَـك الصحفـيَّ لهـذا الرجـلِ وتلـك السـيدةِ غـيرُ مبنـيٍّ علـى أسـاسٍ منطقـيٍّ مُطلقـاً.

لم يكـن النقيـبُ مُـدركاً علـى الإطـلاق هـدف سـوزي مِمَّـا تفعـلُ؛ فهـي لم تكتـفِ بإقحام نفسِـها في التحقيق بكل بسـاطةٍ ودون اسـتئذان– للعلاقـة القويـة بينهمـا– بـل تؤكِّـدُ بـراءةَ المتهـم وتطلـقُ الأحـكامَ.

قـال النقيـب: أقـترحُ عليـك أنْ تختصـري الطريـقَ، وتصلـي للهـدف بسرعة.

أيُّهـا النقيـبُ –قالـتْ سـوزي، وقـد حملـتْ نـبرةُ صوتِهـا تَحَدِّيـاً جديـداً– يبـدو علـى هـذا الرجـل أنَّـه طبيعـيٌّ جِـدّاً، ولـو أنّ هنـاك خطبًـا مـا لوجدتَـه مُتأثـراً ومُنزعجـاً كمـا هـو الحـالُ لـدى كلِّ المُجرمين والمَطلوبـين، ولكنَّـني أؤكِّـدُ لـك أنَّ حكايـةَ المتهـم لم تـأتِ مـن فـراغ، وأنَّ هنـاك سـراً خفيّـاً حتَّـى علـى المتهـم نفسـه، ربَّمـا كان الطبيـبُ والمَشـفى خلـفَ تلـك القضيـة.

حملـقَ النقيـبُ في سـوزي لعـدةِ لحظـاتٍ وهـو يفكِّـرُ فيمـا قالتـه، ثـم قـال:

حسـنًا، إذا لم يكـنْ ذلـك صدفـةً والمتهـم لا يعلـمُ بمـا جـرَى لـه هـلا قلـتِ لـي لمَ فعـل الطبيـبُ ذلـك بالمتهـم؟ وكيـفَ اختفـى مـن المشـفى دون عِلْـمِ الطبيـب؟

قالـتْ سـوزي: الجـوابُ لـدى الطبيـبِ بالتأكيـد، وأنـا علـى يقـينٍ أنَّـه لـن يقـولَ الحقيقـةَ.

تقدَّمَ النقيبُ من سوزي ونظرَ في عينيها بتعجُّبٍ، وقال:

آملُ أنْ يكونَ لديكِ تفسيرٌ أكثرُ إقناعاً من ذلك.

الأمـرُ بحاجـةٍ لوقـتٍ طويـلٍ للإجابـةِ عـن سـؤالك سـيدي، وأعِـدُكَ

بذلك، أما الآنَ فيتوجَّبُ عليَّ أنْ ألحقَ بهم إلى مدينةِ ترنتون لمُتابعةِ القضيةِ وكشف الأسرارِ الغامضةِ –قالتْ سوزي–.

بذلك أنهتْ سوزي الجدلَ مع النقيب، وانسحبتْ بسرعةٍ.

مدينة نيوراك عام ١٩٨٥م

كان جيرالد شريكاً لماك وبلير، والثلاثةُ تجمعُهم مصالحُ كثيرةٌ كالعمل والرحلات العائليَّةِ، كان جيرالد متهوِّراً وصعبَ المراس وحقيراً أيضاً؛ إذ كان أنانيَّاً ومُتعجرفاً، وعلاقته بماك هشَّةٌ جِدًّا ودائمًا على خلافٍ، أما ماك فكان على العكس تماماً مُستقيماً صالحاً وطيباً، فيما كان بلير إمَّعَةً يميلُ مرةً إلى جيرالد وأخرى إلى ماك، لكنَّه كان يحبُّ الاثنين بالقدْرِ نفسه، ويحاولُ التوفيقَ بينهما دون أن ينحازَ لأحدٍ منهما.

وضْعُ جيرالد الماديَّ صعبٌ للغاية، والعمل الذي يختارُه ماك لا يؤَمِّنُ له المالَ الكافيَ لحياةٍ جيدةٍ؛ لذا خطَّطَ جيرالد لعمليةٍ كثيرةِ الربح، ومضمونة النتائج إلا أنَّها غير قانونيةٍ ومشبوهةٍ، واستطاع إقناعَ بلير بتنفيذ العمليةَ إلا أنَّ هذه العمليةَ لا تتمُّ إلَّا باشتراك ماك فيها لكونِه خبيراً في مجالِ الإلكترونياتِ والتقنياتِ الحديثةِ.

كان من المُقرَّر أنْ يجتمعَ الثلاثةُ في مقرِّ عملهم مساءَ ذلك اليوم، لكنَّ ماك كان مشغولاً مع عائلته باحتفال عيد زواجِه العاشر، وقرَّر مشاركةَ ماك احتفالَه؛ ليحاولَ إغراءَه بالمشاركة في العمليةِ المضمونةِ المكسبُ والسهلةِ التنفيذ دون الإشارةِ إلى كونها مشبوهةً،

لم يحتمل جيرالد الانتظار، اشترى هديةً قيمةً، وسارع إلى منزل ماك قبل انتهاء الحفل.

كانت راشيل زوجةُ ماك وأبناؤه الثلاثةُ (اسكندر وهاري وماري) يجلسون حول طاولةٍ مستديرة، تعلوها ملاءةٌ زهريةُ اللون، مُزيَّنةٌ برسوماتٍ ورديةٍ جميلةٍ، عليها طبقٌ من الجاتو مزينٌ بعشرِ شمعاتٍ صغيرةٍ ملونةٍ مُشتعلةٍ، وإبريقٌ من الشراب، وعددٌ من الكؤوس بعدَدِ أفرادِ العائلةِ.

وَضعتْ راشيل كاميرا كمبيوتر في زاويةٍ تستطيعُ كشفَ كلَّ مكانٍ في الغرفة، رنَّ جرسُ البابِ فذهبَ اسكندرُ ليفتحَ، كان من المفروضِ أنْ يحضرَ توم شقيقُ ماك وزوجتُه كيلي، وهُما المَدعُوَّان الوحيدان للحفل، لكنَّ ماك تفاجَأَ بجيرالد يدخُلُ البيتَ ويحمل هديةً في يده.

جلسَ ماك وجيرالد في زاويةِ الغرفةِ على كرسيين مُنفصلين عن طاولةِ الاحتفالِ بعدما أطفأَ ماك وراشيل الشموعَ، فيما بقيتْ راشيل والأبناءُ الثلاثةُ حول الطاولة في جوٍّ مُفعم بالسعادةِ والحبِّ، عرض جيرالدُ خُطَّتَهُ على ماك بصدرٍ رحب، لكنَّ ماك رفضَ الاشتراكَ في العمليَّة، كان الجوابُ مُتوقَّعاً تماماً؛ لأنَّ جيرالدُ يعرفُ أنَّ ماك لا يُمكِّن أن يعملَ فيما يخالفُ القانونَ أبداً.

أخذ جيرالد بكلِّ كِيَاسةٍ ولُطفٍ في إقناعِ ماك بالعمليةِ حتى تصبَّبَ العرقُ من صِدغَيهِ، وبدأ يفقدُ أعصابَه؛ فقد شعر أنَّه من العبثِ محاولةُ إقناعِ ماك، فَقَسَا عليه في الكلام، ثُمَّ احتدمَ الغضبُ في عيني جيرالد وتغيرت ملامحه، وامتلكَه الغضَبُ المفاجئُ وأصبح كلامُه تهديداً ووعيداً، ونسي نفسه في ثورةٍ من الغضبَ الذي سيطرَ عليه.

يعلمُ جيرالد أنَّ ماك يخافُ كثيرًا وفي مُنتهى الجُبنِ؛ لهذا لا يخالفُ القانونَ أبدا؛ لذا قرَّر جيرالد استخدام القوَّةِ لحَمْلِه على تنفيذِ المُهمَّة كسلاحٍ أخيرٍ؛ فهذهِ العمليةُ كفيلةٌ بتغييرِ حياته وسدادِ ديونِه المتراكمةِ، فقد تلقَّى الكثيرَ من التهديدِ بقتلِه مُؤخَّرًا، هدّدَ جيرالدُ ماك بقتلِ عائلتِهِ واحداً بعدَ الآخَرِ أمامَ عينيهِ.

لم ينجرفْ ماكُ في تيارِ جيرالدَ الهائجَ، ولم يكترثْ لكلامِهِ، وظنَّ أنَّ جيرالدَ لنْ يُقدِمَ على تلكَ الحماقةِ أبدًا، بحُكمِ العلاقةِ القويَّةِ، والطويلةِ بينهُما، اعتقدَ أنَّ تهديدَه جاء فقط لحمْلِهِ على المُشاركَةِ في العمليةِ.

لم تستطعْ نفسُ جيرالد المتهوِّرةُ والمجبولةُ على التكبُّرِ وعدم التنازلِ أو التراجعِ عن قرارِها؛ فوجدَ نفسَه في مأزقٍ وطالبَ ماكَ بالمُضيِّ معَهُ فوراً لتنفيذِ العمليةِ.

شعرَ جيرالدُ بخيبةِ أمَلٍ كبيرةٍ فيما بقيَ ماكُ كمَا عهدَهُ سابقاً عنيداً في مبادئه ولا يتراجعُ عنها، أخرجَ جيرالدُ مُسَدَّسَهُ وصوَّبَهُ نحوَ الابنِ الأكبرِ إسكندر الذي يجلسُ بالقربِ من والدتِهِ وبينهما مسافةُ مترٍ تقريبا، وضع إصبعه على الزناد:

«سأُطلقُ النارَ في الهواءِ نحوَ اسكندرَ وأمِّهِ» هكذا يُحدِّثُ جيرالد نفسَهُ وصوَّبَ مُسدَّسَه، حاولَ ماكُ إبعادَهُ، أطلقَ النارَ، خافَ إسكندرُ كثيراً ورمَى بنفسِه في أحضانِ أمِّه، استقرَّتْ الرصاصةُ في رأسِهِ، ماتَ إسكندرُ على الفورِ.

«يا إلهي! ماذا فعلتُ؟» يتمتمُ جيرالدُ، صُعقتْ الأمُّ وهي تحتضنُ ابنَها والدمُ يتدفَّقُ منهُ بغزارةٍ حتَّى غابتْ عن الوعي، فيما تكوّرُ

هاري وماري تحتَ الطاولةِ كأصنامٍ، وقد تجمَّدَ الدَّمُ في عروقِهِمَا.

انقضَّ ماكُ على جيرالدَ بقوَّةٍ حتَّى سقطَ على الأرضِ، وحاولَ ماكُ التقاطَ المسدَّسِ عن الأرضِ بعدما سقطَ من جيرالد ولم يفلحْ.

كان جيرالدُ طويلاً عريضَ المَنكبينِ والصدرِ قويَّ العضلاتِ؛ فتخلَّصَ من ماك بسهولةٍ وطرحَهُ أرضاً، لكنَّ ماك أمسكَ بقدَمَيْ جيرالد ومنعَهُ من الوصولِ إلى المسدَّسِ، فعاوَدَ جيرالدُ الهجومَ على ماك وألقاهُ بعيداً بحركةٍ سريعةٍ، وتناولَ المسدَّس، وأخذَ يطلقُ النارَ في كلِّ الاتجاهاتِ بشكلٍ جنونيٍّ؛ فقتلَ راشيل فسقطتْ صريعةً تتخبطُ في دمِها.

تناولَ ماكُ سِكيناً، وحاولَ الوصولَ إلى جيرالدَ إلَّا أنَّ جيرالدَ كان أسرعَ منهُ فقتلهُ أيضاً؛ فوقعَ على الأرضِ، ينزفُ الدمُ بغزارةٍ منه، فأجهزَ عليهِ برصاصةٍ في رأسه، وخافَ جيرالدُ أنْ ينكشفَ أمرُهُ، وكان هائجًا كأنَّه ثورٌ في ساحةِ مُصارعَةٍ دونَ إحساسٍ كثملٍ، شاهدَ الصغيرينِ يختبئانِ تحتَ الطاولةِ بلا حِراكٍ.

«سينكشفُ أمري سيتحدَّثُ الصغيران، سيقولان كلَّ شيءٍ» يُحدِّثُ نفسَهُ وفكَّرَ قليلاً والمسدسُ بيده: «لم يعلمْ أحدٌ أنَّني هُنا غيرَ بلير، لا يُمكنُ أنْ يفشيَ سِرِّي أبدًا، لم يشاهدْني أحدٌ عندَ دُخولي، يجبُ قتلُ الصغيرينِ، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ، نعمْ، يجبُ قتلُهم» وجَّهَ مسدَّسَهُ إلى الصغيرينِ المختبئينِ تحتَ الطاولةِ ككُرةٍ من القماشِ بلا حِراكٍ فقتلَهم، خرجَ من المنزلِ، أغلقها بالمِفتاحَ ثُمَّ تخلَّصَ منهُ وهربَ مُسرِعاً.

أمرٌ ما أعاقَ وصولَ توم وزوجتِه باكراً إلى حفلِ عيدِ زواجَ ماك

وراشيل، توم يسكنُ في ضاحيةٍ قريبةٍ من المدينةِ، فثَمَّةَ حادثٍ وقعَ في الطريقِ أثناءَ قُدومِهم عطَّلَ حركةَ السيرِ لساعةٍ أو تزيدُ، عندما وصلَ توم وزوجَتُهُ إلى منزلِ ماك كانَ المنزلُ مُغلقاً، دقَّ جَرَسَ البابِ، لم يفتحْ لهُم أحدٌ، اختلسَ توم النظرَ من النافذةِ، فتسَمَّرَ مكانَهُ.

هالهُ ما شاهدَ من فوضَى عارِمَةٍ في الغرفةِ، كانت الدِّماءُ في كلِّ مكانٍ، والجثث تبعثُ على الجنونِ، أصابَ توم الوجومُ كأنَّما باغتَهُ القدرُ بمُصيبةٍ عظيمةٍ، أخرجَ توم هاتفَهُ النَّقَّالَ واتَّصَلَ بالشرطةِ على الفورِ، وبقيَ توم مع زوجتِهِ التي ترتجفُ مذعورةً، وهُما في ذهولٍ محمومٍ من هولِ المصيبةِ.

فتحتْ الشرطةُ البابَ عَنْوَةً فَهَزَّتْ مشاعرَهم بشاعةُ ما حصلَ لعائلةِ ماك التي أُبيدَتْ من الوجودْ، كانتْ كاميرَا الكمبيوترِ ما تزالُ تعملُ، فالبرغم من هوْلِ الجريمةِ إلَّا أنَّ القبضَ على المجرمِ كانَ سهلاً من خلالِ الكاميرا، أُلقيَ القبضُ على جيرالدَ.

حاولَ جيرالدُ إنكارَ التهمةِ، وتعجَّبَ من وصولِ الشرطةِ إليه بتلكَ السرعةِ، غيرَ أنَّه اعترفَ بجريمَتِهِ عندما شاهدَ فيلماً مُصوَّراً يكشفُ أحداثَ المعركةِ؛ فتمَّ إيداعُهُ السجنِ.

تمَّ تحويلُ ملفِّ جيرالد إلى النيابةِ ثمَّ المحكمةِ، فيما بثَّتْ وسائلُ الإعلام ما حدثَ لعائلةِ ماك، شاهد الملايينُ من الناس تلكَ الجريمةَ التي أدمتْ قلوبَهم خاصَّةً الأصدقاءَ والأقاربَ.

لم تبارحْ تلكَ الجريمةُ خيالَ توم شقيقِ ماك؛ فقرَّرَ الانتقامَ من جيرالد، شاهدَ توم التقريرَ الذي بثَّهُ التلفازُ عن أصدقاءِ لجيرالد، عرفَ توم أنَّ بلير كانَ صديقاً مُقرَّباً من أخيه ماك وكذلكَ من

جيرالد، وعلمَ أنَّ ثلاثتَهم كانوا شركاءَ في أعمالٍ كثيرةٍ، من خلالِ التحقيقِ مع بلير استطاعَ توم الحصولَ على عُنوانِهم.

كان وحيدًا يعتصرُ الألمُ قلبَه، كان كمِرْجَلِ نارٍ يشتعلُ، تذكَّرَ عائلةَ أخيه، تذكَّرَ جُثَثَهُم تسبحُ في بركةٍ من الدِّماءِ توقَّدَ عقلُهُ فِكْرًا، تمتمَ بغضَبٍ: «حانَ الوقتُ أيُّها الوغدُ الحقيرُ، ستدفعُ ثمنَ جريمتِكَ البشعةِ، سأجعلُك تندمُ على فعلتِكَ، سأجعلُك تتمنَّى الموتَ ولنْ تجدَهُ، سأقتلُكَ ببطءٍ شديدٍ، ستموتُ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، ستشعرُ بمرارةِ الألم، سيموتُ كلُّ جزءٍ من جسدِكَ العفنِ موتًا يختلفُ عن الآخرِ، سأنتقمُ لكَ أخي، سأنتقمُ لزوجتِكَ وأبنائِكَ قريبًا... قريبًا.

بعد عدَّةِ شهورٍ من تلك الحادثةِ التقى توم ببلير بشكلٍ أوحَى لبلير بأنَّه عَرَضِيٌّ، تعرَّفَ عليه وعرَّفَهُ على نفسِهِ باسمٍ مُستعارٍ (راندي)، وأخبرَهُ أنَّه يعملُ في مجالاتٍ كثيرةٍ، وأنَّهُ بحاجةٍ لشركاءَ أقوياءَ صلبين، تحدَّثَ بلِيرُ عن صديقِه جيرالد ومغامراتِهِ وقوَّتِهِ، وتمنَّى لو أنَّه خارجَ السجنِ، عَرَضَ توم عليه المساعدةَ في تهريبِ جيرالد من السجنِ وتغييرِ ملامِحِهِ لدَى طبيبٍ صديقٍ وماهرٍ مع تسميتِه باسمٍ مستعارٍ؛ ليعيشَ حياتَه.

تكرَّرَتْ اللقاءاتُ بينهما وفي كلِّ مرَّةٍ يُسهِبُ بلير في الحديث عن جيرالد، كان بلير يزورُ جيرالد باستمرارٍ ويتحدَّثُ إليه عن العملِ، وحدَّثَهُ أيضاً عن صديقِهِ الجديد راندي، وعرَضَ عليه اهتمامَ راندي به وأخبرَهُ أنَّه يفكِّرُ في تهريبِهِ من السجنِ، وكان تهريبُ جيرالد هو كلُّ ما يتمنَّاهُ بلير وجيرالد أيضاً.

طلبَ توم من بلير العثورَ على اثنينِ مُخلصينِ للمساعدةِ في

تهريبِ جيرالد، أحدُهما سائقٌ ماهرٌ والآخرُ خفيفٌ سريعُ الحركةِ أشبهُ ببهلوانَ أو لاعبِ سيركٍ، كان لدَى جيرالد ما يبحثُ عنه توم ومن الأصدقاءِ المُخلصينَ.

ريتشارد شاركَ في كثيرٍ من مُسابقاتِ السياراتِ، فيما كان هنري شابّاً طويلاً خفيفَ الحرَكةِ ضعيفَ الجسم، طلبَ توم من بلير مُراقبةَ سياراتِ السجنِ ومُحاولةَ تصويرِ مَفاتيحَ البابِ الخلفيِّ لها عِدَّةَ مرَّاتٍ عند فتحِها وإغلاقِها، وطلبَ منه صُنْعَ عِدَّةَ نُسخٍ مُتقاربةٍ ومُتشابهةٍ منها.

قبلَ جلسةِ المحكمةِ أهدَى بلير علبةَ سجائرٍ إلى جيرالدَ، وفي طريق العودةِ من المحكمةِ إلى السجنِ كانتْ سيارةٌ مستأجرةٌ يقودُها ريتشارد وبجانبِهِ هنري، فيما كانَ يجلسُ بلير في الكرسيِّ الخلفيِّ كانتْ السيارةُ مكشوفةً، تبعتْ سيارةَ السجنِ مُباشرةً بحيثُ تختفي خلفَها دونَ أن يشعُرَ بها سائقُ سيارةِ السجْنِ، ريتشاردُ يقودُ السيارةَ بمهارةٍ عاليةٍ بحيث أصبحتْ قريبةً جداً من مؤخرةِ سيارةِ السجنِ، كانَ هنري يجلسُ القُرفصاءَ على مُقدِّمةِ السيارةِ، واستطاعَ الوصولَ إلى بابِ سيارةِ السجنِ، وأخذَ يُعالجُ زرفيلَ البابِ بالمفاتيحَ التي بحوزتِهِ حتَّى استطاعَ فتحَ البابِ.

كان جيرالدُ مُقيَّداً والشرطيان فاقدا الوعي بجانبِهِ، وأسلحتُهما بأحضانهمَا، فكَّ هنري قيودَ جيرالد وكبَّلَ الشرطيين، وخرجَا من السيارةِ، وانتقَلا إلى سيارةِ ريتشارد، أغلقَ هنري بابَ سيارةِ السجنِ قبلَ مغادرتِها، وعادَا إلى السيارةِ التي ما زالتْ شبهَ مُلتصِقةٍ بسيارةِ السجنِ، خفَّف ريتشاردُ سرعةَ السيارةِ مُفسحاً المجالَ لسيارةِ السجنِ بالابتعادِ.

كانَ تـوم ينتظـرُ في مـكانٍ مـا علـى الطريـقِ بسـيارةٍ مُغلقـةٍ، انتقـلَ جيرالد من سـيارةِ ريتشـارد إلى سـيارةِ توم، وعادتْ سـيارةُ ريتشـارد إلى المدينـةِ، تابـعَ تـوم وجيرالد السـيرَ إلى مكانٍ مهجـورٍ تمامـاً، كانَ مَصنعاً قديمـاً، اعتقـدَ جيرالـدُ أنَّ رانـدي -كمـا سمَّـاهُ لـهُ بلـير- يريـدُ إخفـاءَه لبعـضِ الوقـتِ عـن عيـونِ الشـرطةِ، لم يكـنْ المـكانُ مَعلومـاً لـدَى بلـير وأصدقائِـهِ بِحُجـةِ الأمـان، وعـدم ملاحقتهـم، لكونهم أصدقـاء لجيرالد.

عندمـا ترجَّـلَ تـوم وجيرالـد مـن السـيارةِ إلى داخـلِ المصنـع، عـرَّف تـوم علـى شـخصيتِهِ الحقيقيـةِ، ذُهِـلَ جيرالـدُ وظـنَّ أنَّ أصدقـاءَهُ بلـير والآخريـنَ خدعـوه، ونصبُـوا لـهُ فَخّـاً؛ لأنَّه قتـلَ صديقَهـم المُحَبَّبَ لهم مـاك، وقـعَ جيرالـد راكِعَـاً، مُتوسِّـلاً حـاولَ تبريـرَ موقفِـهِ لكنَّـه عبثـاً حـاولَ، كان تـوم يمسِـكُ بمسدَّسِـهِ الـكاتم للصـوتِ مـن نـوعِ (بريتـا)، أطلـقَ رصاصَـةً علـى قدمِـهِ اليُسـرَى؛ فَصَـرخَ بصـوتٍ مُـدَوٍّ، أخـرج سـيجارةً وأشـعلَها، وجيرالـد يتـألَّمُ بشـدَّةٍ، ثـم أطلـقَ رصاصـةً أخـرى علـى قدمِـهِ اليُمنَـى، فَخَـرَّ مَغشـيًّا عليـه، انتظـرَ لحظاتٍ، أفـاقَ جيرالد كان ينتحـبُ وقـال: أعلـم أنَّـني كنـتُ وحشـاً عندمـا قتلـتُ صديقـي، لم أُخطِّـط لذلـكَ، أقسـمُ أنَّـني لم أنـوِ قتـلَ أَحَـدٍ، كنـتُ أحبُّـه كثيـرًا، انفعلـتُ ذلـك اليـوم أردْتُ إطـلاقَ النـارِ لتخويفِـهِ فقـط، لكـنَّ إسـكندر رمـى بنفسِـه في أحضـانِ أمِّـهِ، وأصابتْـهُ الرصاصـةُ، هكـذا تمَّ الأمـرُ.

هـذا صحيـحٌ جيرالـدُ، فقتلـتَ الجميـعَ بعـد ذلـك بـدمٍ بـاردٍ، يـا لـكَ مـن سـفاحٍ!

ثـم أطلـق النـار علـى كتفـه؛ فغـابَ عـن الوجـود، بعـد دقائـقَ حاولَ النهـوضَ ولكنَّـه لم يفلـحْ، كان تـوم فـوقَ رأسِـهِ، ثـم صـاحَ جيرالـدُ: أرجـوك أرِحْـني، أطلـقْ النـار علـى رأسـي أو قلـبي؛ فأنَـا أتـألَّمُ أتـألَّمُ.

وهنا أمطرَه توم بوابلٍ من الرصاصِ فأردَاهُ قتيلاً، دفع توم الجثةَ في حفرةٍ تشبهُ حفرةَ قبرٍ، وأهالَ عليه الحجارةَ والترابَ، وعاد ثانيةً إلى حياته الطبيعيةِ بعيداً عن مسرحَ الأحداثِ، حلقَ توم لِحيَتَهُ وشعرَهُ الكثَّ الطويلَ الذي تركهُ شُهوراً لتنفيذِ خُطَّتِهِ، ومنذُ تلكَ اللحظةِ وبعدَ اختفاء جيرالد بصورةٍ غامضةٍ انشغلتْ الشرطةُ بالتحقيق في قضيَّةِ جيرالد.

كانتْ السيارةُ مُتوجِّهةً من المحكمةِ في المدينةِ إلى السجنِ الذي سينفَّذُ فيه حُكمٌ بالسجنِ مدَى الحياةِ بحقِّ جيرالد، وعندما فُتحَ بابُ السيارةِ الخلفيِّ تفاجأَ مُوظفو السجنِ عندما شاهدوا الشرطيين مُكبَّلين بالقيود ولا أثَرَ للسجينِ جيرالد على الإطلاقِ.

قامَ مديرُ السجنِ بالتحقيق مع الشرطيِّ الذي يجلسُ بجانبِ السائقِ ومع الشرطيين المُرافقين للسجينِ للتعرفِ على ملابساتِ اختفاءِ السجينِ، أفادَ السائقُ بأنَّه لم يلاحظْ أيَّةَ أمورٍ غيرَ طبيعيةٍ خلالَ رحلتِهِ من المحكمةِ إلى السجنِ، وأنَّه لا علمَ له بما جرى أبداً، كذلك أفادَ الشرطيُّ الذي يجلسُ بجانبِ السائقِ؛ فقد سارَ الأمرُ بالنسبةِ لهما بشكلٍ عاديٍّ جداً.

أما الشرطيان المُرافقان للسجينِ فقد أفادا بأنَّ السجينَ أخرَجَ من جيبِهِ علبةَ سجائرَ وأشعلَ سيجارةً، وأخذَ يتلذَّذُ بتدخينِها أمامهُما، ثمَّ عرضَ عليهما علبةَ السجائرِ؛ فأخذَ كلٌّ واحدٍ منهما سيجارةً واحدةً، وأعادا له العلبةَ، وأشعلا السيجارتين وأخذا يُدخنانها بمُتعةٍ أيضاً، ولم يشعرا بعدَها بما حدثَ لهما؛ فقد تفاجآ بأنَّهما مُكبَّلانِ بالقيودِ، ولم يلحظَا أيَّ أثرٍ للسجينِ..

لم يعثرْ أحدٌ على أعقابِ السجائرِ أو أيِّ أثرٍ يدلُّ على ذلك، لم يكنْ الشرطيان يحملان مفاتيحَ للسيارةِ، ولم توجدْ أيَّةُ آثارٍ للمُقاومةِ أو لفتحَ البابِ عَنوةً أبداً.

خمسُ سنواتٍ مرَّتْ على تلك الحادثةِ ولا جديدَ على الإطلاق، وما زالتْ القضيةُ مُستعصيةً على الحلِّ.

مدينة بايون ١٨٣٨

مضتْ الأيامُ والشهورُ وجو ينتظرُ تلكَ الرسالةَ حتَّى ظنَّ أنَّ ليزا كانتْ تسخرُ منه -كما قالَ والدُها- بالرغم من ذلك الإحساس الجميل الذي يشعر به نحوها، لكنَّه أحبَّها فِعلاً، وإن كان ذلك الحبُّ لا يؤدِّي إلى الزواج منها، حاولَ نسيانَ ليزا وأمْرِ الزواج منها، واعتقدَ أنَّ الأمرَ انتهى، وأخذَ يهتمُّ بالعملِ والعمل فقط، كانَ يُمضي بعضَ أوقاتِه في الشوارع والمنتزهِ القريبِ من مكانِ إقامتِهِ.

وفي أحد الأيامِ وصلتْ جو رسالةٌ من أخيه جون يطلبُ منه العودةَ للبلدةِ فوراً، كانتْ أمُّهُ مريضةً جِدًّا، كان جو يحبُّها حُبّاً عظيماً حتى أكثر من نفسِهِ ومن ليزا أيضًا.

عاد جو إلى بلدة (بايون) مرَّةً أخرى، وتوجَّهَ إلى منزله، كانتْ جنازة أمِّهِ في الطريق، أسرعَ جو نحوَ جُموعِ الناسِ الذين رافقوا جنازةَ أمِّهِ والتي اقتربتْ من المقبرةِ، أُنزلتْ الجنازةُ عن أكتافِ الرجال لحظةَ وصولِ جو إليها، خرَّ جو راكعًا أمامَ هذا الموقفِ الرهيبِ، لم يتمالكْ نفسَهُ، لم تقوَ قدماه على حملِهِ، ساعدَهُ

رجـلان علـى النهـوض إلى حيـثُ ترقـدُ أمُّـهُ ليُودِّعَهـا... أكـبَّ جـو علـى أمِّـهِ يقبِّلُهـا ويبكـي.

كان جـو يعلـمُ أنَّـهُ يـودِّعُ البلـدَةَ كلَّهـا بـوداعِ أمِّـهِ، لم يبـقَ لـهُ فيهـا شـيءٌ بعـد رحيـلِ أمِّـهِ، لقـد غـادرتْ أختُـهَ جوليـت البلـدةَ برفقـةِ زوجهـا، وجـون أكمـلَ دراسـتَهُ وهـو يعمـلُ في بنـكٍ صغـيرٍ في البلـدةَ (بايـون)، وهـو ليـس بحاجـةٍ لـه بعـدَ اليـوم، وهـو بطبيعـةِ الحـالِ لا يُعـيرُه أيَّ اهتمـامٍ؛ فـكانَ علـى جـو الرحيـلُ فـورًا إلى بلـدةِ (أديسـون).

لقـد أثقلـتْ كاهـلَ جـو أحـداثٌ جِسـامٌ وحيـاةٌ صعبـةٌ مريـرةٌ رافقتْـهُ منـذُ ولادتـه، كان جـو بحاجـةٍ إلى معجـزةٍ حقيقيـةٍ تنتشـله ممَّـا هـو فيـه مـن بـؤسٍ وشـقاءٍ، عـاد جـو وحيـداً، والقطـارُ يسـيرُ مُسـرعا نحـو بلـدة (أديسـون)، العربـةُ تعُـجُّ بالنـاسِ، الـكلُّ مشـغولٌ بأمـرِهِ أو مـع الآخريـن، كان جـو يعيـشُ في عـالمٍ آخـرَ، لكنَّـهُ مجبـولٌ علـى الشـقاء، أدركَ أنَّ أيامًـا صعبـةً تنتظـرُه في (أديسـون) خاصـةً بعـد رحيـلِ ليـزا ودراسـةِ ديفيـد في الجامعـةِ.

لم يبـقَ أمـام جـو إلَّا أنْ يعـودَ إلى ممارسـةِ عملـهِ في توزيـعِ الجرائـدِ وقراءتهـا، كان هنـاك فـراغٌ كبـيرٌ في حياتـه، كان بحاجـةٍ ماسَّـةٍ إلى التغيـير، فكَّـرَ مليًّـا في السـفرَ إلى أيِّ مـكانٍ يُبعـدُهُ عـن كلِّ ذكرياتِـهِ الجميلـةِ مـع ليـزا والحزينـةِ مـع عائلتِـهِ.

وصـلَ القطـارُ أخـيرًا، غـادرَهُ المسـافرون جميعًـا ولم يبـقَ إلَّا جـو الـذي أفـاقَ علـى صـوتِ الكنـترولِ الـذي طلـبَ منـه النـزولَ، خـرجَ جـو يجـرُّ قدميـهِ ببـطءٍ شـديدٍ وهـو يخـترقُ صفـوفَ وجمـوعَ النـاسِ، ربَّمـا لمْ يشـاهدْ أحـدًا منهـم، ولم يسـمعْ أصواتَهـم المرتفعـةَ، ووصـلَ

إلى منزلـه دون أن يعـرفَ كيـفَ وصـلَ، إلَّا أنَّـه وجـدَ نفسَـه هنـاك ولم ينتبـهْ إلَّا بعدمـا سمـع صوتًـا يناديـه، وعندمـا التفـتَ إلى مصـدرِ الصـوتِ رأى والـدَ ديفيـد بيـدِهِ رسـالةٌ يلـوحُ بهـا في الهـواءِ.

اقـتربَ جـو مـن والـدِ ديفيـد وألقـى التحيَّـةَ بابتسـامةٍ مُصطنعـةٍ وخجولـةٍ، ناولَـهُ الرسـالةَ وهـو يبتسـمُ أيضًـا وقـالَ لـه:

هذه الرسالةُ لك يا جو، إنَّها من ليزا...

أخـذ جـو الرسـالةَ مـن والـد ديفيـد وشـكرَهُ، وأسـرعَ نحـوَ غرفتِـهِ يحـدوهُ الأمـلُ في أنْ تكـونَ ليـزا قـد وجـدتْ لـه عمـلاً.

جلسَ على السـريرِ مُرتبكًا وفتح الرسـالةَ، بدأَ يقرأُ كلماتٍ من ذهبٍ:

عزيـزي جـو، أعتـذرُ عـن التأخـيرِ؛ فقـد واجهـتُ مُشـكلاتٍ كثـيرةً، لأنَّ والـدي يُراقبُـني ليـلَ نهـارَ، وأخـيراً وجـدتُ لنـا عمـلاً ومنـزلاً جميـلاً، أنـا بانتظـارِكَ حبيـبي، أرجـو ألَّا تتأخـرَ، سـتكونُ إحـدى صديقاتـي بانتظـارك، لا عليـكَ عزيـزي، هـي سـتتعرَّفُ عليـكَ وسـتأخذُكَ إلى المنـزلِ، سـأكونُ بانتظـارِكَ علـى أحـرِّ مـن الجمـرِ، ليـزا.

اعتـذرتْ ليـزا عـن التأخـيرِ وكذلـكَ عـن اسـتقبالِهِ في المحطَّـةِ خوفًـا مـن أنْ يكتشـفَ والدُهـا أمرَهـا.

رقـصَ قلـبُ جـو طربـاً وفرحـاً، وقـام علـى عَجَـلٍ يُلَمْلِـمُ حاجاتِـه المتواضعـةَ وودَّعَ أهـلَ ديفيـد، وشـكرَهم علـى حسـنِ الضيافـةِ، وهَـرْوَلَ مُسـرعاً إلى محطـةِ القطـارِ، وجلـسَ ينتظرُ موعدَ السَّـفرِ إلى مدينة نيوراك.

كان جـو سـعيداً جـداً بتلـك الأخبـارِ، بـدأ يرقـصُ ويُغـنِّي في المحطـةِ لا يأبَـهُ بمـن حولـهُ؛ فقـدْ كانـتْ تلـكَ الرسـالةُ المنقـذَ الوحيـدَ

لـه مـن عالَـمِ المتشـائِم، وكانـتْ بدايـةَ ولادةِ عهـدٍ جديـدٍ وبدايـةَ حيـاةٍ يأمـلُ أنْ تكـونَ سـعيدَةً، لقـد بـدَّدَتْ أحزانَـهُ، ومـلأتْ قلبَـه بالشَّـوقِ والحنـين للقـاء ليـزا مـن جديـد.

غـادرَ بلـدةَ اديسـون إلى بلـدةِ (نيـوراك)، لأوَّلِ مـرَّةٍ يشـعرُ جـو بمتعـةِ السـفر وقلبُـه ينبـضُ بالحـبِّ، وكانَ يأمـلُ لـو أنَّـه يسـتطيعُ دفـعَ عجـلاتِ القطـارِ؛ ليصـلَ بسـرعةٍ أكـبرَ، ويختصـر الوقـتَ الطويـلَ والمسـافةَ البعيـدةَ، لقـد كانَ يعتقـدُ أنَّ العربـةَ لا تتحـركُ مـع أنَّـه كان يسـمعُ صـوتَ أزيـزِ عجلاتِهـا، كان فكـرُهُ مشـغولاً بليـزا والحيـاةِ الجديـدةِ الـتي تنتظـرُه، وكان مشـهدُ المحطـةِ يـتراوحُ أمـام عينيـه بـين الفينـةِ والأخـرَى طـوالَ الطريـقِ.

مدينة جيرسي ١٩٨٥

طلبـتْ سـوزي مـن رئيـس التحريـرِ السـفرَ إلى بلـدةِ (ترنتـون) لمتابعـةِ القضيـةِ، لكـنَّ رئيـسَ التحريـرِ اعتقـدَ بعد لقائِـهِ مع المحققِ المسـؤولِ أنَّ الرجـلَ المتهـمَ مريـضٌ عقليًّـا؛ وبذلـك أقفـلَ ملـفَّ القضيـةِ، ونشـرَ ذلـكَ الخـبَر في الجريـدةِ، إلَّا أنَّ سـوزي كانَ لهـا رأيٌ آخـرُ، ولديها إحسـاسٌ بـأنَّ المتهـمَ يُخفـي معـهُ أسـراراً كثـيرةً، قدَّمـتْ سـوزي اسـتقالتَها مـن الجريـدة، وقرَّرَتْ العملَ لحسـابِها الخاصِّ وسـافرتْ إلى بلـدةِ (ترنتون).

في بلـدةِ ترنتـون حيـثُ وصلـتْ سـوزي لمتابعـةِ قضيـةِ المتهـم الـذي اعتقـدتْ أنَّـه بـريءٌ، شـعرتْ بإحسـاسٍ غريـبٍ يتحـركُ دمِهـا تجـاهَ ذلـكَ المتهـمِ وأمِّـهِ وكأنَّهمـا مـن أقـربِ الأقربـاءِ لهـا، فـكانَ ثَمَّـةَ مـا

يشدُّها إليهما خاصَّةً إذا التقت بهما، ونظرتْ في عيني المتهم، وكأنَّ نداءً داخليّاً من أعماقِ قلبها يحثُّها على مساعدتهما للخلاصِ من تأنيبِ الضميرِ الذي لازمَها منذُ التقتْ بهِ أوَّلَ مرَّةٍ.

كانتْ نسماتُ الليلِ الباردةُ اللطيفةُ في ليلةٍ صافيةٍ من أيام أيار تدخلُ غرفتَها في الفندقِ الذي نزلتْ فيه، بدأتْ تفكِّرُ في برنامجَ عملِها لعدمِ تضييعِ الوقت، بعد صمتٍ طويلٍ حدَّثتْ سوزي نفسَها:

ما الذي فعلَهُ المَشفَى بالمُتَّهَم؟

ماذا أجرُوا عليهِ من تجاربَ ليتقمَّصَ شخصيةً معروفةً في حكايةٍ شعبيةً في بلدةِ نيوجرسي؟

كما أنَّ بلدةَ ترنتون تبعدُ ١٠٠٠كم عن تلك البلدة، كيفَ سمَحُوا له بالهربِ؟

لماذا لم يُعلنوا عنهُ في وسائلِ الإعلامِ عندما هربَ من المشفى؟

بدتْ سوزي متشككةً، وأخذتْ تتلاعبُ في رأسِها أفكارٌ وأفكارٌ، ثم حاولتْ النومَ فأطفأتْ المصباحَ حتى غلبَها النومُ.

قامتْ سوزي بزيارةٍ إلى المشفى الذي كان يُعالجُ فيه سام، واستطاعتْ إجراءَ لقاءٍ مع الطبيبِ الذي كان يُشرفُ على علاجه.

قالتْ سوزي: سيدي الدكتور، كيفَ استطاع شابٌّ مريضٌ مثل سام مغادرةَ المَشفى على الرغم من الحِراسةِ المُشدَّدةِ التي يُلاحظُها الزائرُ؟ ألَا ترَى أنَّ من الصعبِ على رجلٍ عاديٍّ تجاوزَ تلك الحراسةِ؟

قال الطبيبُ: هذا صحيحٌ يا آنسةُ، ولكنَّك نسيتِ أنَّ الزوَّارَ يدخلون ويخرجون بكلِّ سهولةٍ كما دخلتِ أنتِ، وهذا يعني أنَّ أحدَ

النـاسِ اسـتطاع تهريـبَ سـام بعـد أنْ بـدَّلَ ملابسَـهُ الخاصةَ في المشـفى.

قالتْ سوزي: مَنْ له مصلحةٌ في تهريبِ سام؟

قـال الطبيـب: أنـا مُندهـشٌ فِعْـلاً، ولا أعلـمُ مَن سيسـتفيدُ مـن ذلك.

قالتْ سوزي: متى اختفى سام بالتحديد؟

قال الطبيبُ: بتاريخ ٨/٥ في الساعة ١١/٣٠ صباحًا.

قالتْ سوزي: هل أنتَ مُتأكِّدٌ يا دكتورُ بأنَّ هذا هو سام؟

قـال الطبيـبُ: بالطبـعِ، مائـةٌ في المائـةِ، فأنـا أُشـرفُ علـى علاجِـهِ منـذُ أربـعِ سـنواتٍ.

قالتْ سوزي: هلْ أبلغتم الشرطةَ عند اختفائه؟

قال الطبيبُ بعدما نظر في ساعته: أرجو المعذرةَ فلديَّ عملٌ أقومُ به.

منعـتْ إدارةُ المَشـفى زيـارةَ المتهـم لحـينِ إشـعارٍ آخـرَ، وهـو يتلقَّـى العـلاجَ علـى يـد طبيـبٍ عيَّنتـهُ الشـرطةُ الفدراليـةُ للتأكُّـدِ مـن حالتـه العقليـةِ، وأُوقِـفَ التحقيـقُ معـه لأيـامٍ.

توجـهَّتْ سـوزي إلى منـزل والـد سـام لأخْـذِ معلومـاتٍ منهـم تتعلَّـقُ بتصـرُّفِ المشـفى معهـم عندمـا هـربَ منـه سـام، اسـتقبلتْ الأمُّ سـوزي بحفـاوةٍ كبـيرةٍ، ووجـدتْ فيهـا مـا يُخَفِّـفُ عنهـا مـن آلام وأحـزانٍ، وطلبـتْ منهـا المسـاعدةَ في إنقـاذِ ابنِهـا مـن الوضـعِ الخطـيرِ الـذي هـو فيـه، سـألتْ سـوزي الأمَّ:

هل كان سام مريضًا منذُ الولادة؟

قالتْ الأمُّ: لا يا ابنتي، كان طبيعيّاً جدّاً، وكان قبل مَرَضِهِ يَدرِسُ في جامعة برنستون.

قالتْ سوزي: ماذا كانَ يَدرِسُ في الجامعة؟

قالتْ الأمُّ: كان سام ومنذُ صِغَرِهِ مُولعًا بالإلكترونيات، وكان ناجِحاً جِدّاً.

قالتْ سوزي: متى مَرِضَ سام؟

قالتْ الأمُّ: فجأةً.

بدأ يشعرُ بالصداع، تكرَّرَ ذلك عدَّةَ مرَّاتٍ، وفي كلِّ مرَّةٍ كان الألمُ يزدادُ، ذهبنا به إلى الطبيبِ، وبعد عدَّةِ زياراتٍ نصحَنا الطبيبُ بتحويله إلى المَشفى؛ ليكونَ تحتَ إشرافِ الطبيبِ باستمرارٍ.

قالتْ سوزي: قبلَ أنْ يمرضَ سام، كيف كان يشعرُ؟ وكيف تعاملَ معكم؟

قالتْ الأمُّ: كانَ مُؤدَّباً ومُتواضعاً ومَحبوباً من الجميع.

أخذتْ الأمُّ تبكي عندما عادتْ بها سوزي إلى الأيَّام الجميلةِ التي كانتْ تعيشُها مع زوجِها وابنِها، وتذكَّرتْ أصدقاءَ سام الذين كانوا يزورونه باستمرارٍ ويُضفونَ جوّاً رائِعاً على البيتِ.

قالتْ سوزي: رُبَّما كانَ الصداعُ من تأثيرِ الدراسةِ المستمرَّةِ والسهرِ الطويلِ؟

قالتْ الأمُّ: لم يشكُ سام من شيءٍ يومًا من الأيامِ قبل تلك الليلةِ المشؤومَةِ.

قالتْ سوزي: أيَّةُ ليلةٍ يا سيدتي؟

قالتْ الأمُّ: كنتُ كلَّ ليلةٍ أسألُ سام: هل تريدُ السهَرَ هذه الليلةَ؟

فإنْ قال: نعم، كنتُ أُحضِّرُ له بعضَ الطعامِ الخفيفِ والبسكويتِ والعصيرِ.

تلكَ الليلةَ أرادَ السهر ليُحَضِّرَ بحثًا كان مطلوبًا منه، فجهَّزْتُ له عشاءً خفيفاً وبعضَ المُرطِّباتِ، وعندما دخلتُ غرفتَه لم أجدْهُ بها، فانتظرتُهُ قليلاً ولكنَّه لم يحضرْ، بحثْتُ عنه في الطابقِ العلويِّ فلم أجدْهُ، نزلتُ إلى أسفلَ وكان والدُه كالعادةِ يقرأُ في كتابٍ معه ولَّما سألته عن سام فقال: إنَّه في غرفتِهِ ولم ينزلْ إلى أسفلَ.

قلتُ لوالدِهِ إنَّه غيرُ موجودٍ في الأعلى، بحثْنا عنه مرَّةً أخرى في كلِّ مكانٍ فلم نجدْ له أثراً، كنَّا نصرخُ عليه بأعلى أصواتنا لكنَّه لم يجبْ.

قالتْ سوزي: لعلَّه خرجَ من البيتِ دون أن يراه أحدٌ منكم!

قالتْ الأم: كيفَ سيخرجُ وكانتْ الأبوابُ مغلقةً والنوافذُ محميةً، ووالدُهُ في الأسفلِ لم يشاهدْهُ، أو يسمعْ له صوتًا؟ وكان من عادةِ سام إذا أرادَ الخروجَ أنْ يستأذنَ منَّا.

قالتْ سوزي: ماذا حدثَ بعد ذلك؟

قالتْ الأم: كانتْ كارثةً مرعبةً لنا، طلبتُ من والده إخبارَ الشرطةِ بالأمر لكنَّه رفضَ وقالَ: ماذا تريدين مني أنْ أقولَ لهم؟ مَن سيُصَدِّقُنَا؟ رفض بشدةٍ وبقينا على تلكَ الحالة حوالي أربعِ ساعاتٍ ونحنُ في جدالٍ وصراخٍ وبكاءٍ.

قالتْ سوزي: بعد الأربعِ ساعاتٍ هلْ عادَ سام إلى البيتِ؟

قالتْ الأمُّ: شيءٌ لا يُصَدَّقُ أبدًا، بينما كنَّا على تلك الحالة ظَهَرَ سام أعلى السُلَّمِ وقالَ بصوتٍ مرتفعٍ ومُخيفٍ لم نَعتدْهُ منه من قبلُ:

أرجوكُم لا أستطيعُ الدراسةَ وأصواتُكم مرتفعةٌ جِدّاً، ماذا جرَى لكم؟

أمَّا أنا فقد فقدتُ الوعيَ ووقعتُ أرضًا، ولم أُصدِّقْ ما رأتْهُ عيناي، وهُرِع سام وأخذَ يرشُّ الماءَ والعُطورَ على وجهي حتى أفقتُ، ونحنُ مُندهشين، بل كنتُ مرعوبةً جدًّا ممَّا حدثَ تلك الليلةَ.

قالتْ سوزي: ماذا بشأنِ سام؟ أينَ كان في تلك المُدَّةِ؟

قالتْ الأمُّ: لا نعلمُ أبدًا ولم نسألْهُ، لقد خشينا عليه، ولكنَّه استغربَ كيف مضى الوقتُ بسرعةٍ تلك الليلةَ وهو لم يعملْ شيئًا في بحثِهِ؟

بقي الأمرُ سِرّاً بيننا حتى هذه اللحظةِ.

قالتْ سوزي: عندما كنتما تزورانه في المشفى، هل كان سام يتعرَّفُ عليكما؟

قالتْ الأمُّ: نعم، كان يستقبلُنا بكلِّ حرارةٍ وشوقٍ، ويضمُّنا إلى صدره، ونجلسُ نتحدَّثُ بعضَ الوقتِ.

قالتْ سوزي: هل أخبرَكما المَشفى عندما اختفى سام منه؟

قالتْ الأمُّ: لا، كانوا يقولون لنا بأنَّ وضعَهُ لا يسمحُ بالزيارةِ.

قالتْ سوزي: متَى منعوكم من الزيارةِ أوَّلَ مرَّةٍ؟

قالتْ الأمُّ: كنَّا نزورُهُ يوميًّا ولكنَّهم منعونا من زيارته في يوم ٨/٥.

قالتْ سوزي: هل أنتِ متأكِّدةٌ بأنَّ الرجل الذي شاهدتِه في بلدةِ (جيرسي) مع الشرطةِ هو سام؟

قالتْ الأمُّ: إنَّه ابني الوحيدُ، وأنا أعرفُهُ من بين كلِّ شبابِ العالَمِ يا ابنتي، إلَّا أنَّ عينيه ليستَا طبيعيتين أبَداً.

كانتْ سوزي تحتفظُ بكلِّ ما جمعتْهُ عن الرجلِ وتُراجِعُهُ يوميًّا عندما تعودُ إلى الفندق، ثمَّ وجدتْ أنَّ هناك أمراً غريباً يدعو للشكِّ والتساؤل، كانت اللحظةُ التي اختفى فيها سام من المَشفى في بلدةِ (ترنتون) هي اللحظة نفسها التي ظهر فيها الرجل في بلدة (جيرسي) باليوم والدقيقةِ، وهذا ما أكَّدَهُ الشبابُ الأربعةُ وكذلكَ الطبيبُ ووالدةُ سام.

أخذتْ سوزي تُحلِّلُ وتضعُ الاحتمالاتِ المُتوقَّعَةَ لذلك وتتساءلُ:

هلْ يوجدُ مِن هذا الرجلِ عِدَّةُ نُسَخٍ؟

هلْ يمكنُ أنْ يكونَ هناك أكثرُ من شخصٍ في أماكنَ مُختلفةٍ لهم الشكلُ والمواصفاتُ نفسها دون علاماتٍ فارقةٍ تميِّزُ أحدَهم عن الآخر؟

هل يمكنُ أن يكونَ المشفى أجرى تجاربَ على سام؛ ليحدثَ له كلُّ ذلك من فقدانٍ لذاكرته واختلافِ عيونِه؟

أم أنَّ هذا التشابهَ جاء بالصدفةِ، ووجدَ الطبيبُ فيه فرصةً لإنقاذِهِ ممَّا هو فيه؟

تحركاتُ سوزي أثارتْ الشبهاتِ من حولها خاصَّةً لدى إدارة المشفى، لقد وجدتْ إدارةُ المشفى فرصَةً ثمينةً بظهورِ الرجلِ مرَّةً أخرى، وكانتْ تأملُ أنْ تنتهيَ على خيرٍ لولا الاتِّهامُ الجديدُ الذي ظهرَ في آخر لحظةٍ، وكانَ مديرُ المشفى يتابعُ بنفسه مجرياتِ التحقيقِ مع المحققين والمخابراتِ التي ستتولَّى هذه القضيةَ.

خشيتْ إدارةُ المشفى أنْ تقومَ الصحفيةُ بالتفتيشِ عن أمورٍ خفيَّةٍ تفتحُ البابَ على مِصراعيْهِ، وتضعُ المشفى في دُوَّامَةٍ كبيرةٍ؛ مما سيعرِّضُ المديرَ والطبيبَ إلى التحقيقِ والمساءلةِ وربَّما السجنِ، تلقَّتْ سوزي اتِّصالاً من مجهولٍ ينصحُها بمغادرةِ المدينةِ وعدمِ التدخُّلِ فيما لا يعنيها، عندَها أصرَّت سوزي على مواصلةِ المشوارِ، وتأكَّدتْ بعد ذلك الاتصالِ أنَّ هناك أموراً خطيرةً يجبُ عليها كشفَها.

في اليومِ الثاني وعندما عادتْ سوزي من جولتِها إلى الفندقِ وجدتْ رسالةً لا تحملُ عُنواناً في انتظارِها، كانتْ الرسالةُ تطلُبُ منها مغادرةَ البلدةِ، وتحملُ في ثناياها التهديدَ والوعيدَ، كان ذلك مُؤشِّراً قويّاً آخرَ على أنَّ هناك مَنْ يقفُ خلفَ تلك القضيةِ التي تُخفي أسراراً غامضةً، قرَّرَتْ سوزي مواجهةَ الأمرِ وخوضَ تلك المغامرَةِ التي ستجعلُ منها اسماً لامعاً في مجالِ الصحافةِ.

غادرتْ سوزي الفندقَ، وأبلغتْهُم أنَّها عائدةٌ إلى بلدتِها بعد أنْ أنهتْ مُهمتَها في بلدة (برنتون)، استأجَرَتْ شُقَّةً بعيدةً عن الفندقِ والمشفى، وقرَّرَتْ العملَ من تلك الشُّقَّةِ بعيدًا عن العيونِ التي تراقبُها، وأرسلتْ إلى صديقٍ لها في بلدةِ (جيرسي) كانَ يساعدُها في عملِها سابقًا، وهو يعملُ في جريدةٍ أخرى في البلدة، طلبتْ من صديقها بلير الذي وصلَ إلى بلدة (برنتون) على عجلٍ متابعَةَ القضيةِ بعدما أعطتْهُ التفاصيلَ اللازمةَ والأسماءَ المطلوبةَ خاصَّةً والدةَ سام.

٢

كان بلير يراقبُ زوَّارَ المشفى، شاهد امرأةً تتردَّدُ يوميًّا عليه، وبعد أنْ تعرَّفَ عليها طلب مُرافقتها إلى المشفى، كانتْ المرأةُ تزورُ ابنًا لها

يُعالَجُ منذ زمنٍ، كانَ ابنُها مصابًا بفقدان الذاكرةِ، سأل بلير ابنةَ تلك المرأة التي تُرافقُها يوميًّا بعدما شعرتْ تلك الفتاةُ أنَّ بلير مهتمٌ بها، ثم أخذ يسألُها عن نزلاء المشفى فتحدَّثتْ له عن قصَّةِ سام.

عرف بلير أنَّ سام مصدرُ قلقٍ كبيرٍ للطبيب ومُوظفي المشفى؛ لأنَّه اختفى مرَّةً لعدَّةِ ساعاتٍ وظهر فجأةً، ثُمَّ عاد واختفى مرَّةً أخرى وعاد وحدَهُ، إلَّا أنَّه في المرَّةِ الأخيرة اختفى ولم يَعُدْ، والجميعُ في المشفى يترقَّبونَ عودتَهُ في كلِّ لحظةٍ، وكان سام وشقيق تلك الفتاةِ في نفسِ الغُرفةِ، لكنَّ الطبيبَ منعهم من الكلام أو التحدُّثِ في الأمرِ بتاتًا، وهدَّدهم بأنَّ ذلك سيُؤثِّرُ على عَلاج ابنِهم، لم تكنْ المرأةُ تعلمُ أنَّ ابنتَها تُثرثِرُ مع بلير في زاويةِ الغرفةِ.

فَرضتْ إدارةُ المَشفى مُراقبةً صارمةً على الزوَّارِ منذ لحظةِ اختفاءِ سام، ولاحظَ أحدُ المُراقبينَ تَردُّدَ بلير على المَشفى برُفقةِ المرأةِ وابنتِها، مِمَّا جعلَ بلير يقدِّمُ نفسهُ على أنَّه خطيبُ الفتاةِ، لكنَّ الطبيبَ عندما شكَّ في أمرِ بلير أرسلَ خلفه مُوظفاً يتبعه ويعرفُ أخباره، وما أنْ انشغل في مُهمَّتِه حتى شاهدَهُ وهو يزورُ منزلَ والدَيْ سام؛ عرفَ الموظَّفُ أنَّ بلير يسكنُ في شُقَّةٍ في إحدى البناياتِ في طرفِ المدينة.

في صباح اليوم الثاني شاهدَ الموظَّفُ بلير يخرجُ من البنايةِ برفقةِ سوزي، أخبرَ المُوظَّفُ الطبيبَ بما عرفَه عن بلير، اجتمعَ الطبيبُ مع مديرِ المَشفى وأطلَعَهُ على التفاصيل، فقرَّرَ مديرُ المشفى أن يضعَ حدّاً نِهائيّاً لسوزي، وطلبَ من أحدِ أصدقائه الذين كانوا يُرافقونه في رحلاتِ الصيدِ التخلُّصَ من سوزي وصديقِها بطريقته الخاصَّة مُقابلَ مبلغٍ من المالِ وأعطاه العنوانَ.

كانـتْ الشُّـقَّةُ الـتي تسـكنُها سـوزي في الـدور الأخـير، وكانـتْ العمـارةُ الـتي بهـا الشُّـقَّةُ تُقابـلُ عمـارةً علـى الجانـبِ الآخـرِ مـن الطريـق، كانـت غرفـةُ الطعـام في شُـقَّةِ سـوزي مواجهـةً للشـارعِ، صعـدَ صديـقُ المديـر إلى سـطحَ البنايـةِ المُقابلـة، واتخـذَ وضعـاً مُناسـباً وصـوَّب بندقيَّتَـهُ نحـوَ غرفـةِ الطعـام في شُـقَّةِ سـوزي وانتظـرَ موعـدَ العشـاء، كانـتْ البندقيَّـةُ مـزودةً بـكاتمٍ للصـوتِ.

عندمـا جلسـتْ سـوزي وبلـير لتنـاولِ الطعـام أطلـقَ القنَّـاصُ عِـدَّةَ طلقـاتٍ نحوَهمـا، أصابـتْ الرصاصـاتُ النافـذةَ وحطَّمـتْ زجاجَهـا، كانـتْ الجـروحُ الـتي أصابـتْ بلـير مـن الزجـاجَ المتناثـرِ طفيفـةً، لكـنَّ سـوزي قـد كُتـبَ لهـا عمـرٌ جديـدٌ؛ حيـثُ ألقـتْ بنفسِـها أرضًـا في اللحظـةِ المُناسـبةِ فكُتبـتْ لهـا النجـاةُ، أمضـت سـوزي وبلـير تلـك الليلـةَ في خـوفٍ شـديدٍ.

بعـد حـادث إطـلاق النار شـعرتْ سـوزي بانقبـاضٍ مـؤلم في معدتها، وأخـذتْ تشـكو مـن هـولِ الأحـوال الـتي تـدور حولهـا والمصَّاعـبِ الـتي تنتظرُهـا وهـي مـا تـزالُ في بدايـة الطريـق، كانـتْ سـوزي تشـكو إلى بلـير لعلَّـهُ يُسـاعدُها في التحقيـقِ في ملابسـاتِ القضيـةِ.

«تَجَمَّـلي بالصـبر عزيزتـي سـوزي» قـال لهـا بلـير «فالطريـقُ مظلـمٌ ووعـرٌ، ليكـنْ الـرَّبُّ في عوننـا» قالـتْ سـوزي مُلتفتـةً إلى بلـير عندمـا رأتْـهُ يجهِّـزُ حقيبتـهُ: إلى أيـن سـتذهبُ؟

بلـير: إلى مدينـةِ جيرسـي، سـأعودُ حـالاً، لا أريـدُ أنْ أمـوتَ هنـا بـلا فائـدةٍ.

سوزي: وتتركني وحدي؟

بلير: بإمكانك أنْ تعودي معي؛ فالأمرُ لا يَعنيك على ما أعتقدُ.

سوزي: كيفَ أعودُ وهناك واجبٌ مهنيٌّ وأخلاقيٌّ يدعوني إلى مواصلةِ الرحلة؟

إنَّ إطلاقَ النار علينا دليلٌ قويٌّ جدّاً على تورُّطِ الطبيبِ والمشفى في الأمر، كما أنَّ هناك ما يشدُّني بقوَّةٍ نحوَ المتهم، أشعرُ وكأنَّهُ أخي أو قريبي.

بلير: إذنْ أكملي وحدك؛ لديَّ عملٌ يجبُ القيامُ به في جيرسي. أتمنَّى لك التوفيقَ عزيزتي.

غادرتْ سوزي شُقَّتَها والبلدة كلها، وتوجهتْ نحوَ نيويورك، استقلَّتْ سوزي سيارةَ أجرةٍ من المطار إلى مديرية المخابرات العامَّةِ، التقتْ فيها بمسؤولٍ كبيرٍ اسمُهُ رونالد تعرَّفتْ عليه بحكم عملها كصحفيَّةٍ عندما كانَ ذلك المسؤولُ في زيارةٍ له إلى بلدةِ (جيرسي)، رحَّبَ رونالد بسوزي، وسألها عن سبَبِ زيارتِها له.

قالتْ سوزي: سيدي أنا أتابعُ قضيةً خطيرةً، وأنا بحاجةٍ إلى مساعدتِكَ.

قال رونالد: أنا أعرفُكِ صحفيَّةً نشيطةً ومُجتهدةً سوزي، ماذا لديكِ؟

قالتْ سوزي: لديَّ طلبٌ صغيرٌ سيدي، أرجو أن أكونَ أوَّلَ مَنْ يطَّلِعُ على التفاصيلِ حالَ الكشفِ عنها.

قال رونالد: من حقِّك ذلك، هذا وعدٌ، قولي كلَّ شيءٍ.

أطلعتْ سوزي المسؤولَ رونالد على كلِّ المعلوماتِ التي لديها.

قال رونالد: هذا أمرٌ خطيرٌ جدًّا، أمسكَ بسماعةِ الهاتفِ وأجرَى مكالمةً فوريَّةً مع مديرِ المخابراتِ في بلدةِ (ترنتون) وطلبَ منه الكشفَ الفوريَّ عن الشُقَّةِ التي كانتْ تسكنُها سوزي في البلدة وإرسال تقريرٍ عن ذلك وبسرعةٍ.

أجرى رونالد عدَّةَ اتصالاتٍ هاتفيَّةٍ مع عددٍ من المسؤولين، وتمَّ الاتفاقُ على تشكيلِ لجنةٍ تتولَّى إعادة التحقيق ومتابعتِهِ حتى التوصُّلِ إلى الحقيقة، وكلَّفَ الضابطَ آدم برئاسةِ اللجنةِ.

كانتْ اللجنةُ التي يرأسُها آدمُ على مستوًى رفيعٍ من الدرايةِ والخبرةِ، وعلمَ مستر رونالد أنَّ للقضيةِ أبعاداً أخرىً غير المَشفى والطبيبِ.

يبدو لسوءِ الحظِّ أنَّ الأدلَّةَ التي ظهرتْ لم تُلقِ الضوءَ على الأحداثِ التي جرتْ في العمارةِ التي سكنتْها سوزي، ولم يُعرفْ بعدُ المتورطون فيها، تذكَّرَ آدم تحقيقاً للشرطةِ مُشابهاً شيئاً ما لتلك القضيةِ، لكنَّه تعجَّبَ لأنَّه لم تكنْ نتيجةُ البحث التي أُجريتْ عن المتهم، أو بالأحرى عن «سام» كما توقعَا على الإطلاق؛ إذ كان سام حسبَما وردَ في سجلَّاتِ التحقيق مُواطناً صالحاً ومِثالياً، ولم يَردْ أنَّه ارتكبَ جريمةً أو حتى مُخالفةَ سيرٍ، كما أنَّه درسَ في مدارسَ جيدةٍ، وتابع دراسته في جامعةٍ محترَمةٍ ومعروفةٍ، كما أنَّ سِجِلَّهُ الجامعيَّ نظيفٌ لا غُبارَ عليه، فهو طالبٌ متفوقٌ وإن كان عمرُهُ في السجلاتِ مطابقًا لعمرِ المتهم؛ لذلك طلبَ آدمُ رئيس اللجنةِ الاجتماع والبدء في التحقيقِ مع المتهمِ من جديدٍ.

مدينة نيوراك ١٨٤٠م

وصلَ القطارُ أخيرًا وحاول النزولَ قبل أنْ تقفَ العربةُ تمامًا، عندما نزلَ منها أخذَ يراقبُ الناسَ المتواجدين هناك؛ فهو لا يعرفُ كيفَ سيتعرَّفُ على صديقةِ ليزا من بين كلِّ الفتياتِ الموجودةِ هناك، كانت المفاجأةُ غير طبيعيةٍ هذه المرَّةَ.

ليزا مع بعض الأصدقاء في الانتظارِ، كانتْ الفرحةُ عظيمةً وهو يشاهدُ تلك الابتسامةَ من جديدٍ، وتعرَّف على أصدقائها، واصطحبته في الحالِ إلى الكنيسةِ، كان كلُّ شيءٍ مُعَدًّا، وتَمَّ عقدُ القرانِ، وتوجهَ الجميعُ نحوَ المنزلِ الجديدِ.

في المنزل المتواضع الذي استأجرتْهُ ليزا، كانَ ثَمَّةَ بعضُ الأصدقاءِ المُقرَّبين من ليزا ينتظرونَ داخلَ البيتِ وقدْ أعدُّوا مفاجأةً كبيرةً، وأقيمتْ حفلةٌ صغيرةٌ ومتواضعةٌ، استمرَّتْ حتى منتصف الليل.

جو يتمتمُ- أنا في الجنةِ، لقد عوَّضني اللهُ عن عائلتي بليزا، إنَّها أعظمُ إنسانةٍ في العالم، ماذا أريدُ أكثرَ من ذلك؟ لقد حقَّقَ اللهُ لي أكثرَ مِمَّا طلبْتُ وتمنَّيْتُ، يجبُ عليَّ أنْ أخدمَها بكلِّ ما أستطيعُ، يجبُ أنْ أجعلَها لا تندمُ على زواجِها منِّي أبدًا.. أبدًا.

أصبحتْ ليزا زوجةَ جو وشعرَ بأنَّهُ يعيشُ في الجنّةِ، بيتٌ جديدٌ وزوجةٌ رائعةٌ وأصدقاءٌ يحترمونهُ، ولم يكنْ يحلُمُ يومًا أن يعيشَ كمَا يعيشُ الآنَ، فكانَ يحسدُ نفسه، وهو يبذل كلَّ ما يستطيعُ من أجل ليزا التي وهبتْهُ نفسها، وضحَّتْ بكلِّ أهلِها وثروتِهم من أجله.

غادرتْ ليزا بيتَ والديها دونَ سابقِ إنذارٍ، تركتْ لهما رسالةً تقولُ فيها أنَّها ستُغادرُ البلدةَ إلى المجهولِ بعيداً عن عيونِ والدِها وعيونِ أعوانِه، كانَ لدى ليزا المالُ لكنَّه كان محدوداً، وكان عليها أنْ تعملَ جنباً إلى جنبٍ مع زوجها جو في مصنعٍ للنسيج، بدأتْ حياة الزوجين بالتعاون في البيت والعمل، وكان جوٌ في منتهى السعادة، وليزا أكثر سعادةً منه وهي تجدُه يعملُ من أجلها بكلِّ حنانٍ وحبٍّ.

والدُ ليزا جُنَّ جنونُه، عندما وجدَ رسالةَ ابنتِه الوحيدةِ تخبرُهُ أنَّها ستغادرُ البلدةَ إلى مكانٍ مجهولٍ، اعتقدَ والدُها أنَّها عادتْ إلى بلدة (أديسون) حيثُ يسكنُ جو، أرسلَ خلفها أحدَ أصدقائه؛ ليعيدَها إلى بيتها، كما أرسلَ عيونَه خلفها في كلِّ مكانٍ في بلدة (نيوراك) أيضاً، عندما علم أنَّ جو غير موجودٍ في بلدة (أديسون)، وأنَّه سافر إلى جهةٍ غير معلومةٍ زاد قلقُه وخوفُه على ابنتِهِ، فوظَّف تحرِّياً خاصّاً ليقومَ بالبحثِ عنها، وطلبَ إليه أنْ يقتلَ جو إذا ما كانتْ ليزا معه.

كانتْ مولي صديقةً عزيزةً لليزا، وكانت على علاقةٍ وثيقةٍ بليلى التي تعملُ في مكتبِ والدِ ليزا، وكانتْ مولي تبعثُ بأخبارِ والد ليزا أوَّلاً بأوَّلٍ إلى ليزا عن طريق فتاةٍ تعملُ مع ليزا في المصنع وتُدعى ماري، كانتْ تلك الخليَّةُ من الفتياتِ مُوفَّقةً إلى حدٍّ كبيرٍ في عملها؛ حيثُ استطاعتْ ليزا أنْ تبتعدَ عن عيونِ والدِها طيلةَ تلك الفترةِ.

كانتْ ليزا تعلمُ جيِّداً أنَّ والدَها عنيدٌ جدّاً وأنَّه سيواصلُ البحثَ عنها حتى يجدَها، وهي على ثقةٍ تامَّةٍ أنَّ والدَها سيجبرُها على الرجوع إليه، ويُطَلِّقُها من جو إذا ما عثرَ عليهما حتى لو أدى ذلك إلى قتله، لم تندمْ ليزا يوماً على اختيارِها جو

كشريكِ حياتِها، كانَ يُعاملُها كسيدةٍ حقيقيَّةٍ، ويعتبرُ نفسَه مجرَّدَ خادمٍ أمينٍ لها، يحرصُ على راحتها وسعادتها.

بالرغم من سعادةِ جو وليزا إلَّا أنَّ تلك السعادةَ كانتْ ناقصةً، فكانا يعيشان في سجنٍ اختياريٍّ، ولم يستمتعا بحريةِ الحركة، وهذا ما لم تعتدْهُ ليزا في حياتها، فقرَّرَتْ الرحيلَ واختارتْ العودةَ إلى بلدةِ (باتريسون) حيثُ مسقطُ رأسِ والدتها وأولُ مدينةٍ رأتْ النورَ فيها وترعرعتْ بين أحضانها.

لقد بعثتْ ليزا برسالةٍ إلى سيليفيا إحدى صديقاتها هناك، وطلبتْ منها البحثَ عن منزلٍ مناسبٍ وعملٍ لها ولزوجها، عندما جاء الردُّ غادرتْ ليزا وزوجُها بعدما تَخَفيّا في زيٍّ شرقيٍّ؛ حتى لا يشكَّ بهما أحدٌ من عيونِ والدها المنتشرةِ هنا وهناك.

مدينة باتريسون ١٨٤٥م

في مدينة (باتريسون) وجدتْ ليزا نفسَها مع زوجها، وعاشتْ أحلى أيام عُمرها، وأنجبتْ طفلتها الأولى سارة عام ١٨٤٧، كانت ليزا على اتصالٍ دائم بصديقتها مولي، لكنَّ الرسالةَ الأخيرةَ التي وصلتْها من مُولي تحمِلُ أخباراً غير سارةٍ؛ فقد علمتْ أنَّ والدَها أوصى بجميع أمواله لجمعياتٍ خيريةٍ، وحرَمَ ابنتَهُ الوحيدةَ لأنَّها خرجتْ عن طوعه وإرادته.

لم تكترثْ ليزا لذلك الخبرِ؛ لأنَّها تعيشُ حياتها بكل معانيها مع الرجل الذي أحبَّته، ووجدتْ فيه ما لم تجدْهُ في الآخرين،

وقد كانتْ على يقينٍ –من تجاربها وخبرتِها في الحياة– أنَّ المالَ ظلٌّ زائلٌ، والسعادةُ في ظلِّهِ وقتيةٌ لا تدومُ.

مضتْ سنةٌ ورُزقتْ ليزا بغلام أسمتْهُ جورج، ومضتْ سنةٌ أخرى ورُزقتْ بغلامٍ آخرَ أسمتْهُ نكسون، وما زالتْ السعادةُ ترفرفُ على الزوجينِ.

لأوَّلِ مرَّةٍ يدخلُ جو المقهى ويجلسُ على طاولةٍ، بالقربِ من الباب على الطاولة المقابلة يجلسُ روبرت وزوجتُه هيلاري وصديقتُهم ساندي، يدخلُ المقهى كوفي صديق العائلةِ وينضمُّ إليهم.

قال روبرت: أهلاً بك كوفي، كيف حالك؟

قالَ كوفي: بخيرٍ.

قالَ روبرت: أعرِّفُكَ على ساندي صديقةِ هيلاري.

قالَ كوفي: مرحبًا بكِ ساندي، كيف حالُكِ؟ أنتِ جميلةٌ حقًا.

قالتْ ساندي: أهلاً بكَ كوفي، أنا بخيرٍ، شكرًا لكَ.

قالتْ هيلاري: ساندي تشبهُكَ تمامًا كوفي؛ فهيَ مِن مُحِبِّي الطبيعةَ والحيواناتِ والغاباتِ.

قالَ كوفي: حقًّا ساندي، هذا يدلُّ على أنَّك تتمتَّعين بحسٍّ مُرهَفٍ وجمالٍ روحيٍّ.

قالتْ ساندي: شكرًا لكَ، يبدو أنَّك شاعرٌ أيضًا.

قال كوفي: أقترحُ عليكم أنْ نذهبَ في رحلةٍ للصيدِ، فأنا أعرفُ مكاناً رائعاً على بُعدِ أيامٍ من هنا، غابةٌ كثيفةُ الأشجارِ وكثيرةُ الطيورِ والحيواناتِ.

قال روبرت: أنا أقترحُ عليكم شهرَ عسلٍ في الغابةِ الجميلةِ.

قالتْ هيلاري: سيكونُ شهرَ عسلٍ ممتعٍ ورائعٍ، ما رأيُكِ ساندي؟

قالتْ ساندي: يبدو أنَّ كوفي لا تُعجبُهُ الفكرةُ.

قال كوفي: هذا يعني أنَّك مُوافقةٌ؟

روبرت: لنشربْ نُخبكما إذًا.

قالتْ هيلاري: سأكونُ وصيفتَك ساندي، وسأجعلُ عُرسكما مُميَّزاً وجميلًا.

شاهد كوفي جو يسترقُ النظرَ إليهما وهو يجلسُ وحيداً، طلبَ من جو الانضمامَ لهم ومشاركتَهم فرحتَهم، تعرَّفَ جو على الجميع، ودعاه كوفي لحضورِ حفلِ زواجِهما.

مدينة ترنتون ١٩٨٥

في غرفةِ التحقيق جلس المتهمُ وهو يُشكِّكُ في نوايا آدم عندما شاهدَهُ للمرَّةِ الأولى، كان آدمُ رجلاً طويلاً ضَخماً عيناه أشبهُ بعيني لبؤةٍ، وله ذقنٌ عريضٌ ولحيتُه قصيرةٌ موصولةٌ بشاربين دقيقين، مظهره يوحي بالرهبةِ والاشمئزاز.

قال المحقق: اسمك؟ وسنك؟

قال الرجل: اسمي جو، ثم توقَّفَ.

قال المحققُ سألتك عن عمرك، كم هو؟

قال الرجل: لقد سمعتُ ذلك، لكنْ لا أدري ماذا أقولُ؛ فلا أحدَ يُصدِّقُني!

قال المحقق: أنا أُصدِّقُك، تكلَّمْ.

قال الرجل: خمسةٌ وأربعون عاماً.

قال المحققُ: سنفترض بأنَّ عمرك خمسةٌ وعشرون عاماً، هل تذكَّرْتَ شيئاً سيد جو؟

قال الرجلُ: قلتُ لكم كلَّ ما أعرِفُه، ولا أحدَ يُصدِّقُني، حتى أنتَ يا سيدي لم تُصدِّقْ أنَّ عُمري خمسةٌ وأربعون عامًا.

قال المحقق: هل سافرتَ إلى خارجَ البلاد؟

قال الرجلُ: نعم، لقدْ عشتُ مدَّةً من الزمنِ على كوكب سيراتا، ولا أعلمُ كم كانت.

قال المحقق: عندما ظهرْتَ في بلدةِ (جيرسي) كنتَ خائفًا ومُختبئًا خلفَ السور، لماذا حاولتَ الهربَ؟ ما حكايتُك بالضبطِ؟ ماذا تُخفي عنا سيد جو؟

قال الرجل: أسبابٌ كثيرةٌ، غادرتُ البلدةَ قبلَ أربعةِ أو خمسةِ شهورٍ، وعندما عدتُ إليها وجدتُ أرضي مُحتلَّةً وعائلتي وأهلَ بلدتي غيرَ مَوجودين، ولا أعلمُ إنْ كانوا أحياءَ أم أمواتًا، وجدتُ

كلَّ شيءٍ في بلدتي مُختلفاً ومُتغيرًا، كأنَّها قد تبدَّلتْ بأخرى، أنا مُشتاقٌ لزوجتي وأبنائي.

بدأ الرجلُ يبكي ويتمتمُ: ماذا فعلتُم بهم؟ أين سأجدُهم؟ أصبحتُ وحيداً وغريباً، كأنَّني في حُلمٍ مرعبٍ ومخيفٍ.

قال المحقق: يكفي بُكاءً وتمثيلاً، أنتَ كما قلتَ غريبٌ عن هذه البلادِ كلِّها، ومن مصلحتِكَ أن تعترفَ وأنْ تقولَ لنا مَن يقفُ خلفك؟ ولحسابِ مَن تعملُ؟

التقاريرُ التي بين يديَّ تقولُ أنَّك جاسوسٌ تعملُ لحسابِ أعدائنا، وهم كُثْرٌ وفي كلِّ مكانٍ، فالإرهابُ استفحلَ في العالم، والرئيسُ منشغلٌ ليلَ نهارَ في مكافحةِ الإرهابِ من أفغانستانَ إلى العراقِ وإيرانَ والشرقِ الأوسطِ كلِّه، أمْنُنَا مُهدَّدٌ في العالم كله بسبَبِ الإرهابِ، لديَّ اعترافٌ منك بذلك، وأستطيعُ تنفيذَ الحُكمِ فيك، الإعدام.

لدى سماعِهِ بالإعدام فَقَدَ الرجلُ وعيَهُ، وطلبَ له المُحقّقُ الطبيبَ لإسعافه، كان المحقّقُ واللجنةُ يتشاورون في أمرِ الرجل، لم يَبْدُ عليه التمثيلُ أو الخوفُ، كانَ يُصِرُّ دائماً على أنَّه جو.

احتدمَ الغضبُ في صدر المتهم بعد أنْ وُجِّهتْ له اتهاماتٌ جديدةٌ وخطيرةٌ، ولاحَ في وجهه ظَلامٌ شديدٌ، وتفجَّرَ الغضبُ في باطنِهِ، ضاقت عيناهُ وبدتْ نواجِذَهُ، وصرخَ بأعلى صوتِهِ وللمرَّةِ الأولى منُذ أنْ تَمَّ إلقاءُ القبضِ عليهِ وردَّدَ: قتلةٌ، أغبياءُ، قتلةٌ.

سرتْ قشعريرةٌ في جسد المتهم وغضبٌ شديدٌ سيطرَ عليه، وحاولَ النهوضَ والخروجَ من الغرفةِ بجسَدِهِ المُثقل إلَّا أنَّه سقطَ أرضاً خلفَ البابِ كثَمِلٍ، بعدَ أنْ استعادَ بعضَ توازُنِهِ وهدوئِهِ

نُقِلَ إلى غُرفةِ الحجزِ، جلسَ على سريره وأخذَ يتأمَّلُ الأشجارَ الباسقةَ والنسيمَ العليلَ يُحرِّكُ أغصانَها بلُطْفٍ، والطيورَ التي تغرِّدُ وتُحَلِّق حولَها مُرطِّبةً الجوَّ ومُهدِّئةً أعصابَه، فراحَ ذهنُه يجولُ بذاكرتِه وعاد جو إلى أجملِ أيَّامِ حياته مع ليزا، كيفَ تمَّ الزواجُ بصورةٍ لم تخطرْ له على بالٍ.

بدا له غيرَ معقولٍ أبداً ألَّا يجدَ أحداً قادراً على إعطائه دليلاً على براءته وصدقه، كان مَغموماً لدرجةٍ أنَّه كان يتقبَّلُ الأمرَ بِذُلٍّ كأنَّه عِقابٌ إلهيٌّ؛ لأنَّه ترَكَ أصدقاءَهُ أثناءَ السفرِ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ للعمل وذهبَ مع غرباءَ، كان يُصلِّي دائماً وهو في غرفتِهِ المعزولةَ عن الناس بالمشفى، لا يرى أحداً ولا يكلِّمُه إلا الطبيبُ الذي يأتي إليه مرَّةً كلَّ يوم لمُتابعةِ علاجه، كان يرقدُ في السرير قبل أنْ يداعبُه النعاس، حتَّى يغرَقَ شيئاً فشيئاً في بحر الماضي المتلاطمِ الأمواج؛ ليهربَ من واقعِهِ الحالي المُهين.

سافرتْ اللجنةُ إلى بلدة (جيرسي) من جديدٍ، وقابلت مسؤولَ المخفرِ فيها النقيب جاك الذي أشرفَ على التحقيقِ مع الرجل، قابلتْ اللجنةُ الشبابَ الذين تفاجأوا أوَّلَ مرَّةٍ برؤيةِ الرجلِ الغريب، وعاينتْ المقهى الذي ظهر فيه الرجلُ، وقابلتْ بلير صديقَ سوزي، ذهبتْ اللجنةُ إلى مقرِّ البلديَّةِ وتحدثتْ مع المسؤولين عن نشأتِها وعن حكايةِ جو الشعبيةِ المتوارَثَةِ في المدينةِ.

مدينة باتريسون ١٨٥٠

كانتْ العربةُ جميلةٌ بجمال العروسين؛ فقد كانتْ مُزينةً بأجملِ الوردِ الزاهيةِ الألوانَ، وهي تنسابُ برِفْقٍ خلفَ اثنين من الخيولِ البيضاء.

كانتْ ساندي طويلةَ القامةِ رشيقةً جميلةً بشكلٍ ملحوظٍ، وكانتْ عيناها سوداوين لامعتين عامرتين بالحنان، وذاتَ شفتين مُشرقتين وخدَّين مُوردين.

تقتربُ العربةُ من السَّاحةِ التي ستشهدُ الاحتفالَ الكبيرَ بالعروسين الشابين حيثُ الأهلُ والأصدقاءُ وجمعٌ غفيرٌ من المدعوين والمُتطفلين وعُشَّاقِ الغناء والطرب وفرقةٌ موسيقيةٌ لإحياء تلك الليلة.

ظهر كوفي ببدلته السوداءِ وعن يمينه عروسُهُ الجميلةُ ساندي بفستانها الأبيضِ الرائع، وكانت ترتسمُ على شفتيهما ابتسامةٌ عريضةٌ، وتبدو في وجهيهما فرحةٌ غامرةٌ بعد أن تمَّ عقدُ قرانهما في الكنيسةِ.

توقَّفتْ العربةُ أمام الحشدِ الكبيرِ، ترجَّل العروسان منها، وكان في الاستقبال روبرت وزوجته هيلاري، روبرت من أعزِّ أصدقاء العروسين، وهو عريفُ الحفلِ والمشرفُ عليه مع زوجته صديقة ساندي العزيزة.

تعالتْ الأصواتُ بالفرح والسرور، بدأتْ الموسيقى تصدحُ بصوتٍ عذبٍ يملأُ المكانَ، فيما توسَّطَ العروسان جميعَ الحضورِ الذين يرقصون ويغنون، واستمرَّ الاحتفالُ حتى منتصفِ الليل، تخلَّلَهُ عشاءٌ وشرابٌ، ثم غادرَ العروسان إلى بيت الزوجيةِ وسطَ هتافاتِ المحبين.

كان كوفي ينتمي لعائلةٍ ثريةٍ، جعلتْ تحتَ تصرُّفِهِ كلَّ ما يريدُه

ويتمناه، وكان والدُه يهتمُّ به كثيراً فلا يمنعُ عنه أيَّ شيءٍ يطلبُه ولا يردعُهُ عن فعلٍ يُقدِمُ عليه، عندما علمَ والدُه بنيَّتِهِ في العيشِ في الغابةِ هدَّدَهُ بالتخلِّي عنه، لم يكترثْ كوفي وقرَّرَ المُضِيَّ قُدُمًا في قرارِه.

الطبيعةُ بجمالها وسحرِها ومناظرِها الخلَّابةِ وحيواناتِها البريَّةِ المختلفة وتغريدِ الطيور وزقزقتِها كلُّ ذلك كان يستأثرُ على اهتمامِ كوفي منذُ صِغَرِه.

كان شهرُ العسلِ الذي خطَّطَ له العروسان غريباً ومُثيراً وجميلاً، كان رحلةً إلى عالَمِ الأدغالِ حيثُ الطبيعةُ بجمالها كما خلقها الله –سبحانه–، حيثُ وجَّهَ كوفي الدعوةَ إلى خمسةِ أصدقاءٍ متزوجين وكان روبرت بطبيعةِ الحال من بينهم.

زوَّدهم كوفي بكلِّ ما يحتاجونه في رحلتهم من الخيول والعربات والطعامِ والشرابِ وكذلك السلاحُ.

وفي الصباحَ الباكرِ من يوم الأحَدِ غادرتْ القافلةُ المدينةَ نحوَ الشرقِ، وبعد ثلاثةِ أيام من السير توقَّفَ الأصدقاءُ في وسطِ الغابةِ عندما شاهدوا نبعَ ماءٍ ينسابُ من حيثُ تمتدُّ الغابةُ الكثيفةُ الأشجارِ، وهو أحدُ روافدِ نهرِ برونكس وحيثُ الطيورُ تصدحُ بأعذبِ السيمفونيَّاتِ مع حفيفِ الأشجارِ وخريرِ المياهِ.

كانتْ أشجارُ الصنوبرِ العاليةِ تُعانقُ السماءَ وأشجارُ السروِ الداكنةِ اللونَ تُعطي جمالاً أخَّاذًا، وكذلك كانتْ أشجارُ الخرُّوبِ والسنديانِ تُزيِّنُ الغابةَ بعشوائيَّةٍ، مما يُوحي للناظرِ بالعظمةِ والجمال، وكان ثَمَّةَ أشجارٌ متناثرةٌ صغيرةٌ هنا وهناك، والأشجارُ عند مجرَى النهرِ الصغيرِ قليلةُ الكثافةِ فيها مُتَّسعٌ من المساحةِ

لبناءِ كوخٍ من أغصانِ الأشجارِ الميِّتَةِ واليابسةِ، والمياهُ صافيةٌ عذبةٌ تنطلقُ رشَيقةً زرقاءَ، وفي قاعِ النهرِ كانَ الحصى أبيضًا لامعًا يعكسُ أشعَّةَ الشمسِ الوهاجةِ، وكانتْ أوراقُ الأشجارِ المتساقطةِ المتراكمةِ منذُ زمنٍ أشبهَ ما تكونُ بسِجَّادٍ يفرشُ الأرضَ، وفي البُعْدِ في قلبِ الغابةِ كانَ النهرُ أكبرَ وأعمقَ، وكانتْ ثَمَّةَ أسماكٌ تعيشُ فيه، وفي جوفِ الغابةِ تعيشُ الأرانبُ والماعزُ البريَّةُ وغيرُها بأمانٍ، ولم تخلُ من الثعالبِ والذِّئابِ.

قرَّرَ كوفي وأصدقاؤه، إقامةَ مُخيَّمِهم بالقربِ من بركةِ ماءٍ صافيةٍ عذبةِ المياهِ تتوسَّطُ جدولَ الماءِ القادمَ من أعلى الغابةِ؛ ليتعرَّجَ في أحشائها حتى نهايتها، وكانتْ رحلةَ العمرِ لكوفي وزوجتِهِ بلْ للأصدقاء جميعاً، واُعتبرَتْ بدايةَ حياةٍ سعيدةٍ وطويلةٍ كما ظنَّ العروسان، ولذلك كان كوفي يُخطِّطُ لإقامةٍ طويلةٍ وربَّما دائمةٍ بعدما عشقَ الاثنان حياةَ الغابةِ على طبيعتها.

اقترحَ كوفي إقامةَ منزلٍ من الأخشابِ ووجدَها الأصدقاءُ فكرةً جيدةً، وقدْ اعتادَ الجميعُ ومنذُ اليومِ الأوَّلِ مُغادرةَ المُخيَّمِ والتجوالَ في الغابةِ للتعرفِ على أسرارها وصيدِ ما يحتاجونه من حيواناتها لأغراضِ الطعامِ.

أخذَ الأصدقاءُ يقطعون بعضَ الأشجارِ الهرمَةِ والمريضةِ ثمّ تنظيفها وتقطيعها بأطوالٍ مختلفةٍ حسبَ الحاجةِ، ثمَّ غرسوا بعضها في الأرض وشدّوا الأخرى مع بعضها البعض، وركّبُوا له سُلَّماً خَشبيّاً يتدلَّى من المنزلِ إلى الأرضِ ويَسهُلُ رفعُه عند الغروب أو مغادرةِ المكان، فكان منزلاً جميلاً وعملاً رائعاً، ثم أحاطوه بسياجٍ خشبيٍّ، ممَّا تبَقَّى من الأغصانِ الصغيرةِ.

لم يكنْ أحدٌ من الأصدقاءِ أكثرَ ابتهاجاً وسعادةً من ساندي بذلك المنزل الجميل وكأنَّه بيتُ العمرِ، وأمضى الجميعُ شهراً كاملاً من المُتعةِ والإثارة، ثمّ قرَّرَ روبرت وأصدقاؤهُ العودةَ إلى المدينةِ لمتابعةِ أعمالهم، وكانَ ذلك بمثابةِ صدمةٍ قويةٍ لكوفي وزوجته؛ لأنَّهما قرَّرا البقاءَ في الغابةِ.

وعد روبرت وهيلاري بالعودةِ لزيارتهما في أقربِ وقتٍ مُمْكِنٍ؛ ليزوداهما بما يحتاجانه من أغراضٍ إلَّا أنَّ سحابةً سوداءَ قاتمةً خيَّمتْ على سماء كوفي وزوجته بعد قرارِ الأصدقاءِ بالرحيل، وفي الصباح الباكرِ غادرَ الأصدقاءُ المُخَيَّمَ وتركوا خلفهم حُزناً عميقاً وألماً كبيراً، وكان ذلك اليومُ من أصعبِ الأيام التي مرَّتْ عليهما طيلةَ حياتِهما، حتى أنَّ اليأسَ والتشاؤمَ ظهرَ على ساندي بعدما أصبحا وحيدين في تلك المنطقةِ المهجورةِ والبعيدةِ.

بعدما لاحظ كوفي ذلك الوجهَ الحزينَ خشيَ أنْ تضعفَ ساندي وتقرِّرُ اللحاقَ بالأصدقاء، فحملَ سلاحَهُ ورفعَ السُّلَّمَ وانطلقَ مُمْسِكاً بيدِ ساندي عبرَ الغابةِ مُبتعداً عن المخيَّم، وأخذَ يُغنِّي وينشدُ بصوتٍ مُرتفعٍ؛ ليبعدَ شبحَ الخوفِ عنهُ أوَّلاً وعن ساندي ثانياً، وما هي إلَّا لحظاتٍ حتَّى أخذتْ ساندي تُشارِكُهُ الغناءَ.

كان الزوجان يُمضيان يومَهما في الصيدِ والتعرُّفِ على أماكنَ جديدةٍ من الغابةِ المُحيطةِ بهما، وفي المساء وبعد تناوُلِ العشاء يعكفان في منزلهما يتبادلانِ الحديثَ ويكتبان مغامراتِهما اليوميةَ، وهكذا أمضى الزوجان مُدَّةً قاسيةً بعضَ الشيءِ نظرًا لعدم وجودِ أُناسٍ يختلطون بهم في الغابة، كانَ كوفي يأملُ أنْ يعودَ صديقُهُ روبرت لزيارته كما وعدَهُ إلَّا أنَّ الأيامَ تمضي وكأنَّ صديقَهُ نسيَ أو

تناسى ذلك الوعدَ الذي يعيشُ على أنغامِهِ كوفي وزوجتُه.

مساءَ أحدِ الأيام ولدى عودةِ كوفي وزوجتِه إلى المنزلِ شاهدا حِصاناً أمامَ منزلِهما وعربةً في زاويةِ الحديقةِ، فنظر إلى ساندي وقال لها:

انظري، لا بدَّ أنَّه حصانُ روبرت وتلك عربتُه، أليسِ كذلك؟

قالتْ ساندي: نعم، إنَّه هو بالتأكيد.

أسرعَ الاثنان نحوَ المنزل، ولكنْ بحذَرٍ شديدٍ خشيةَ ألَّا يكونَ روبرت مَن في المنزلِ، وعندما وَصَلا إلى بوَّابةِ السِّياجَ المُحيطِ بالمنزل، صاح كوفي وبندقيته مُوجهّةٌ إلى حيث الباب: مَنْ هناك؟ مَنْ في المنزل؟

كانَ كوفي ينظرُ إلى بابِ المنزل وكانتْ ساندي تختفي خلفَ العربةِ وإذا بالباب يُفتحُ، وروبرت وزوجتُه هيلاري يخرجان مبتسمَين فرحَين، فصاح كوفي مُخاطباً ساندي:

إنَّهما روبرت وهيلاري.....

تعانقَ الاثنان، تعانقتْ الاثنتان، وغمرتْ كوفي وساندي فرحةٌ لم يسبقْ لها مثيلٌ وكأنَّهما لم يفترقا إلَّا للحظاتٍ قليلةٍ.

أحضرَ روبرت معه أشياءَ كثيرةً خاصَّةً الذخيرةَ التي يحتاجُها الجميعُ للصيدِ والحمايةِ، لقد تذكَّر روبرت وهيلاري تلك الأيامَ الرائعةَ في أحضان الطبيعةِ؛ لذا قرَّرَا العيشَ فترةً طويلةً من الزمنِ إلى جانبِ كوفي وساندي.

كَثُرَ الحديثُ في الآونةِ الأخيرةِ عن خِلافاتٍ حادَّةٍ بين كِبَارِ المسئولين في الولايات الشمالية في البلاد عندما قرَّرَتْ عددٌ من الولايات الجنوبية الانفصالَ عن الاتحادِ، وكانتْ مشكلةُ العبيدِ

وتحريرِهم تطغَى على الأحداثِ، وذلك عندما فازَ إبراهيم لنكلون في انتخابات الرئاسةِ الأمريكية؛ حتَّى عجزَ الجميعُ عن إيجادِ حلٍّ وسطٍ يُرضي كافةَ الأطرافِ، بل لم يوافقْ الرئيسُ لنكلون على التفاوضِ مع الجنوبيين، وأعطى بعضُهم الضوءَ الأخضَرَ لأتباعِهم بإطلاق النار لإرهابِ الآخرين وحمْلِهم على الرضوخِ لمطالبهم وشروطِهم.

لم يستطعْ أحدٌ إيقافَ فُوَّهاتِ البنادقِ ولا حتَّى السيطرةَ على الشعبِ وأفراد الجيشِ المُوالي لهذا الطَرَفِ أو ذاك؛ ممَّا أدَّى إلى اشتعالِ النيرانِ في كلِّ مكانٍ؛ فأصبحتْ شيئاً فشيئاً حرْباً شاملةً ومريرةً في طول البلاد وعرْضِها، حيثُ يُحاولُ كلُّ طرَفٍ جاهداً إثباتَ وجودِه وإسماعَ صوتِه وتحقيقَ طموحاتِه على جُثَثِ أتباعِه وأشلائهم المُمزَّقَةِ في كلِّ الميادين.

مدينة ترنتون ١٩٨٥

عادتْ اللجنةُ إلى بلدة (ترنتون) وقابلتْ الطبيبَ ومديرَ المشفى، عاينتْ كذلك الشُّقَّةَ التي كانتْ تسكنُها سوزي، لم يكنْ هناكَ ما يُثبتُ كلامَ سوزي؛ كلُّ شيءٍ فيها على طبيعته، ولم يسمعْ أحدٌ من السكَّانِ تلك الليلةَ صوتَ إطلاقِ النارِ؛ وهذا ما دعا اللجنةَ إلى إجراءِ تحقيقٍ مُطوَّلٍ مع سوزي أيضاً.

أرسلتْ اللجنةُ مذكرةً إلى مديرِ المشفى والطبيبِ الذي كان يُشرف على علاجَ سام للمُثولِ أمام اللجنةِ في مقرِّ المخابراتِ في المدينة، وتمَّ استجوابُهما كُلًّا على حِدَةٍ.

قال المحققُ: عندما هربَ سام من المشفى لماذا لم تخبرْ الشرطةَ؟

قال المديرُ: لأنَّ ما حصلَ لسام أمرٌ لا يُصَدَّقُ.

قال المحققُ: كيفَ؟ أنا لا أفهمُ! ماذا تقصدُ؟

قال المديرُ: كما شاهدتَ بنفسِك سيدي، هناكَ حِراسةٌ مُشدَّدَةٌ على المشفى، ولا يمكنُ لأيِّ شخصٍ الهروبُ منهُ.

قال المحققُ: إذاً كيفَ هربَ سام؟ ماذا تريدُ أنْ تقولَ؟

قال الطبيبُ: سام لم يهربْ سيدي، لقد اختفى من المَشفى كأنَّه بخارٌ.

قال المحققُ: ماذا تعني؟ هلْ انشقَّتْ الأرضُ وابتلعتْه؟ أم أنَّه طارَ في السَّماءِ؟

قال المديرُ: لا أدري ماذا أقول لك سيدي؟ لكنْ هذا ما حصلَ وها أنتَ لم تُصدِّقْ، فماذا تريدُ مني أنْ أقولَ للشرطةِ؟ وكيفَ سيصدِّقُونني؟

قال المحققُ: هل اختفى سام قبلَ ذلك؟

قال المديرُ: نعم، اختفى عِدّةَ مرَّاتٍ لساعاتٍ، لكنَّه كان يعودُ وحدَه.

قال المحققُ: هلْ اختفَى أحدٌ غيره؟

قال المديرُ: لا سيدي.

قال المحققُ: كان من الواجبِ عليك إبلاغُ المسئولين بكلِّ شيءٍ، تَفَضَّلْ الآنَ وانتظرْ في الخارجَ، طلبَ المحققُ الطبيبَ وقال له:

أنت الطبيبُ المشرفُ على سام، هلْ أنتَ متأكِّدٌ بأنَّ الرجلَ هو سام الذي تُشرِفُ عليه؟

قال الطبيبُ: نعم سيدي.

قال المحققُ: بماذا تفسِّرُ اختفاءَ سام؟

قال الطبيبُ: لا أعلمُ سيدي، إنَّه أمرٌ يدعو للحيرةِ!

قال المحققُ: لقد أخبرتَ الصحفيَّةَ سوزي بأنَّ سام اختفى يوم ٨/٥ الساعة ١١/٣٠ صباحًا، هلْ هذا صحيحٌ؟

قال الطبيبُ: لا سيدي، أنا لم أقابلْ أيَّةَ صحفيَّةٍ.

كذبَ الطبيبُ، ولدى المحققِ الشريطُ الذي سجَّلتْه سوزي معه، وهنا أمسكَ آدم طرفَ الخيطِ.

طلبَ المحققُ من مديرِ المشفى والطبيبِ التعاونَ مع اللجنةِ وتبليغِها بأيِّ معلوماتٍ يحصلان عليها، وشكرهما المحققُ.

توجَّهتْ اللجنةُ إلى بيتِ والد سام: «عُذراً للإزعاجَ سيدي» قال النقيبُ آدم: يتوجَّبُ علينا أنْ نستفسرَ من سيادتك عن بعضِ الأمور، قد تكشفُ عن سرِّ اختفاء ابنِكم.

«نحنُ في خدمتك سيدي» أجابَ والدُ سام، وتابع قائلاً: نرجو أنْ تُطمئنني عن ابني سيدي، ما أخباره؟

هلْ توصَّلتم لشيءٍ عمّا أصابَهُ؟ مَن كان السببُ في ذلك؟

المحقُق: أعتذرُ لك سيدي، لكنْ ما زلْنا نحققُ في الأمرِ، إنَّها مسالةُ وقتٍ ليسَ إلَّا.

قـال المحقـقُ: هلْ حدثَ يومًا شـيءٌ غريبٌ مع سـام قبـلَ أنْ يمرضَ؟

قال الأب: ماذا تعني بغريبٍ يا سيدي؟

قال المحققُ: أرجوكَ قلْ كل ما تعرفُهُ من أجلِ مصلحةِ سام.

قال الأبُ: نعم سيدي.

قَصَّ الأبُ حكايةَ اختفاءِ سام تلك الليلةَ بالتفصيلِ.

قـال المحقـقُ: كيفَ كانَ شـعورُ سـام بعد ذلك؟ كيفَ تصرَّفَ معكم؟

قـال الأبُ: كانَ طبيعيّـاً جـدّاً كأنَّـه لا يعلـمُ شـيئاً ممَّـا حـدثَ، بـل تعجَّـبَ كيـف مضـى الوقـتُ بسـرعةٍ تلـك الليلـةَ، فعرفْنَـا أنَّ في الأمـرِ سـرّاً، وأخفينـا عنـه ذلـك وبقـيَ الموضـوعُ سـرّاً حتـى هـذه اللحظـةِ.

قـال المحقـقُ: هـل لاحظتُـم تغـيُّراً علـى سـام بعـد ذلـك في التفكـيرِ والتصـرفِ والدراسـةِ؟

قـال الأبُ: لا سـيدي، كلُّ شـيءٍ بقـيَ كمـا كانَ مـن قبـلُ إلَّا أنَّـه كان يشـكو مـن الصـداعِ اللعـينِ.

قال المحققُ: أرجوكُما أنْ تذكُرَا لي أسماءَ كلَّ أصدقاءِ سام.

ثـم قـال لـلأمِّ: سـيدتي لقـدْ رأيـتِ الرجـلَ- المتهـم- جيـدًا، هـلْ أنـتِ متأكِّـدةٌ أنَّـه سـام ابنُـكِ؟

قالـتْ الأمُّ: مـا الحكايـةُ سـيدي؟ هـلْ هنـاك شـابٌّ آخـرُ يُشـبهه إلى هـذه الدرجـةِ؟

قال المحققُ: أنا مَن يسألُ، فأنتِ أمُّهُ وأقربُ الناسِ إليه.

فكـرَّتْ الأمُّ قليـلا ثـم قالـتْ للمحقـقِ: بالرغـم مـن أنَّـني لا أشـكُّ في ذلـك أبـدًا، ولكـنِّي سـأخبرُك يـا سـيدي بشـيءٍ هـامٍّ وأنـتَ سـتحكُمُ بعـد ذلـك إنْ كان ابـني أمْ لا.

قال المحققُ: ما هوَ؟

قالـتْ الأمُّ: يوجـدُ لابـني علامـةٌ في صـدرِهِ في الجهـةِ اليُسـرَى، والعلامـةُ نتيجـةٌ لعمليَّـةٍ جِراحيَّـةٍ أجريناهـا لـه قبـلَ سـنواتٍ، عندمـا كان في الخامسـةِ عشـرةَ مـن عمـرِه.

المحقُـق: نعـم، عرفـتُ ذلـك مـن خـلالِ التحقيقـاتِ السـابقةِ، أؤكِّدُ لكمـا بأنَّنـا سـنعملُ كلَّ مـا نسـتطيعُ لتأمـينِ عـودةِ سـام إليكمـا، وأرجو منكمـا التعـاونَ وإعلامَنـا بـكلِّ ما لديكما مـن معلوماتٍ قدْ تُفيـدُ التحقيقَ.

كان المحقُـق يعتقـدُ أنَّ شـخصاً مَجهـولاً يقـفُ خلـفَ مـا يحـدثُ لسـام، وأنَّ بدايـةَ ذلـك السـرِّ تكمـنُ في المشـفى، وأنَّ الطبيـبَ الـذي غـيَّر أقوالـه وأنكـرَ أنَّـهُ قابـلَ الصحفيَّـةَ –مـع أنَّهـا سـجَّلتْ ذلـك اللقـاءَ علـى شـريطِ تسـجيلٍ– هـو الوحيـدُ الـذي يعـرفُ الحقيقـةَ.

٢

بـدتْ علـى شـفتي المتهـم ابتسـامةٌ سـاخرةٌ عندمـا أُحضـرَ للتحقيـقِ مـن جديـدٍ مـع النقيـبِ آدمَ الـذي أصبـحَ يشـمئزُّ مـن مجـرَّدِ رؤيتـهِ أو سمـاعِ صوتـه، وأخـذَ يُكِـنُّ لـه العـداءَ لاتِّهامِـهِ إيـاه بأمـورٍ بشـعةٍ لا علاقـةَ لـه بهـا، ولم تخطـرْ علـى بالـه، ولم يسـمعْ عنهـا مـن قبـلُ.

اشمـأزَّ جـو مـن التحقيـقِ مـع النقيـبِ آدم؛ لأنَّـه أخـذَه إلى أهـلِ

كوكبِ سيراتا الذين يُكِنُّ جو لهم العَداءَ والكرهَ؛ لأنَّهم السببُ في كلِّ ما هو فيه، ولو أنَّهم أعادوه إلى بلدتِه فورًا ما حدثَ كلُّ ذلك العذابِ والألمِ له، ولما فقدَ زوجتَهُ وعائلتَهُ.

قال المحققُ: قلتَ بأنَّك كنتَ تعيشُ على كوكبِ سيراتا، وكنتَ مريضاً تُعالجُ هناكَ، صفْ لي الغرفةَ التي كنتَ تنامُ وتتلقَّى علاجَكَ فيها.

قال الرجلُ: كانتْ الغرفةُ مليئةً بالأجهزةِ والأضواءِ المختلفةِ، وبها موسيقى مُستمرَّةٌ، وكان المَشفى بنايةٌ ضخمةٌ، وفي البدايةِ كان الطبيبُ يعالجُني دونَ أنْ أراهُ، ولكنِّي كنتُ أسمعُ صوتَه وهو يُحدِّثُني.

قال المحققُ: كيفَ كانَ يُعالجُك دونَ أنْ تراهُ مع أنَّك ذكرتْ أنَّك عشتَ معهم عِدَّةَ شهورٍ؟

قال الرجلُ: علمتُ فيما بعدُ أنَّ أشكالَهم تختلفُ عنَّا؛ لذلك حرصَ الأطباءُ على عدم رؤيتِهم خوفاً على حياتي، لكنْ بعدَ أنْ شُفيتُ من مرضي وصفَ لي الطبيبُ أشكالَهم حتَّى لا أتفاجَأُ عندما أراهم، ثم بعدَ ذلك أصبحتُ أراهم وتأقْلَمْتُ معهم.

قال المحققُ: هلْ يتحدثونَ لُغتنَا؟

قال الرجلُ: لا سيدي، ولكنِّي تعلَّمتُ لغتَهم في معهدٍ للغاتِ، فمنهم مَنْ يعرفُ لغتَنَا.

قال المحققُ: قلتَ أنَّك مُتزوِّجٌ ولديكَ أطفالٌ، ما اسمُ زوجتِك؟ وكم عمرُ ابنتِك؟

قـال الرجـلُ: اسـم زوجـتي ليـزا، إنَّهـا امـرأةٌ عظيمـةٌ، وعمـرُ ابنتي الآنَ حوالـي أربعـةَ عشـرَ عاماً.

قـال المحقـقُ: إذا كانَ عمـرُك لا يتجـاوزُ ٢٥ عامـاً، فكيـفَ يكـونُ عمرُهـا أربعـةَ عشـرَ عامـاً؟

قـال الرجـلُ: إنَّ عمـري خمسـةٌ وأربعـون عامًـا، أخبرتـك بهـذا مـن قبـلُ، وأقسـمُ أنَّ هـذه هـي الحقيقـةُ.

قـال المحقـقُ: يبـدو أنَّـك فعـلاً جاسـوسٌ، وتؤلِّـفُ هـذه الحكايـاتِ الـتي لا تُصَـدَّقُ.

قال الرجلُ: جاسوسٌ! ماذا تعني بذلك سيدي؟

قـال المحقـقُ: يعـني أنَّـك عميـلٌ، يعـني أنَّـك تأخـذُ أسـرارَ الدولـةِ والوطـنِ وتُرسـلُها إلى الأعـداء.

قـال الرجـلُ: أقسـمُ بأنِّـي لا أعـرفُ شـيئاً عمَّـا تتحـدَّثُ عنـه، وكلُّ مـا أخبرتُكـم بـه صحيـحٌ.

قـال المحقـقُ: يكفـي كذبـاً وخِداعـاً، وإنْ لم تقـلْ الحقيقـةَ فسـتبقَى في السـجنِ حتـى المـوتِ، هـلْ تفهـمُ؟

قـال الرجـلُ بغضـبٍ: أرجـوكَ أنـا مريـضٌ، أنـا متعـبٌ، أنـا مظلـومٌ، سـاعدوني أريـدُ أرضـي... أريـدُ زوجـتي.

فقـدَ الرجـلُ وعيَـهُ مـن جديـدٍ ووقـعَ أرضـاً، وتمَّ نقلُـه إلى مَشـفًى عسـكريٍّ تحـتَ الحراسـةِ المُشـدَّدَةِ.

جـاء تقريـرُ الكشـفِ عـن شُـقَّةِ سـوزي المسـتأجَرَةِ، كانـتْ النتائـجُ

الـذي تضمَّنَهـا تقريـرُ اللجنـةِ المُكلَّفـةِ بالتحقيـقِ في قضيـةِ الاعتـداءِ بإطـلاقِ النـارِ علـى الصحفيَّـةِ سـوزي صحيحـاً ١٠٠٪ وأكَّـدَ الخـبراءُ في التقريـرِ البنـودَ التاليـةَ:

الزجـاجُ المواجـهُ للشـارعِ رُكِّـبَ حديثـاً، وقـد وُجِـدَتْ آثـارٌ مـن الزجـاج القديـمِ فيهـا.

هناك مَنْ قام بدَهْنِ جُدرانِ الشُّقَّةِ وتنظيفِها.

سمـعَ بعـضُ سُـكَّانِ البنايةِ المقابلـةِ– في الدور الأخـيرِ – صوتَ إطلاقِ النـارِ، والرجـلُ الـذي أطلـقَ النـارَ قـامَ بتهديدهم إذا مـا أبلغُوا الشـرطةَ.

وجـاءَ تقريـرُ لجنـةِ الأطبَّـاءِ ليؤكِّـدَ أنَّ الرجـلَ المتهـمَ سـليمٌ جسـديّاً وعقليّـاً، كمـا وردَ فيـه أنَّ الرجـلَ أجريـتْ لـهُ عمليـةٌ جِراحيَّـةٌ في صـدرِهِ في الجهـةِ اليُمنَـى قبـلَ سـنواتٍ، وأنَّ آثـارَ تلـك العمليـةِ مـا زالـتْ موجـودةً، كمـا أكَّـدتْ التقاريـرُ الطبيَّـةُ الـتي أجرتْهَـا اللجنـةُ أنَّ فصيلـةَ الـدم الـتي يحملُهـا الرجـلُ وبصمتُـهُ تتطابقـانِ مـع سـام وكذلـك الحمـضُ النَـوويُّ، كمـا أكَّـدَ التقريـرُ أنَّ عمـرَ هـذا الرجـلِ هـو حوالـي ٢٥ عامـاً فقـط؛ ممَّـا يجعـلُ عودَتَـه إلى والديـهِ أمـراً طبيعيّـاً.

كانـتْ هـذه التقاريـرُ الـتي اطَّـلعَ عليهـا المحقـقُ، تؤكِّـدُ أنَّ هـذا الرجـلَ هـو سـام مـع إنـكارِه لذلـك كلِّـهِ؛ وهـذا الـذي جعـلَ المحقـقَ يشـكُّ بـأنَّ الطبيـبَ وسـام يعمـلانِ لدولـةٍ مُعاديـةٍ، اسـتطاعتْ توظيفَهما لحسـابها، وعندمـا انكشـفَ أمـرُ سـام أنْكَـرَ نفسَـهُ وتقمَّـصَ شـخصيَّةَ رجـلٍ آخـرَ خاصَّـةً أنَّ الطبيـبَ مـن مواليـدِ مدينـةِ جيرسـي، واخـترعَ تلـك الحكايـاتِ ليبعـدَ الشـبهةَ عـن والديـه.

التقـى المحقـقُ في الجامعـةِ بأسـاتذةِ سـام وأصدقائِـه ولـدَى التحقيـقِ

معهم أكَّدَ الجميعُ أنَّ سام شابٌّ ذو خلقٍ وصادقٍ، وأنَّهُ لا همَّ له إلَّا الدراسَة فقط، وكانَ مُجتهداً ومُتفوِّقاً في دراسته.

وظّفَ المحققُ رجلاً من المخابراتِ العامَّةِ لملاحقةِ القنَّاصِ الذي أطلقَ النارَ على شُقَّةِ سوزي، ثُمَّ عُمِّمَتْ أوصافُهُ على أجهزةِ المخابراتِ والشرطةِ بعد أنْ حصلتْ عليها من سكانِ العمارةِ الذين هدَّدهم ومن بلير صديقِ سوزي الذي شاهدَهُ ذلك اليوم يُراقِبُهُ من بُعْدٍ، وكان ذلك بدايةَ الكشفِ عن عِدَّةِ أمورٍ غامضةٍ تتعلَّقُ بالرجلِ.

بعد أيام تمَّ اعتقالُ القناصِ، وبعد التحقيق معه اعترفَ أنَّه تلقَّى عرضاً مُغرياً من صديقه مديرِ المشفى شخصيًّا لملاحقةِ سوزي وإرغامها على مُغادرةِ المدينةِ، واعترفَ الرجلُ أنَّه قام بتهديدِ سُكَّانِ العمارةِ خوفاً من إبلاغِ الشرطةِ عنه.

ألقتْ الشرطةُ القبضَ على مديرِ المشفى والطبيبِ وعلى كلِّ مَنْ له عَلاقةٌ بتلك الأحداثِ، وتمّتْ مواجهتُهم بشريطِ التسجيل، واعترفَ الطبيبُ بعدما حاولَ المديرُ التملُّصَ من هذه القضية، الأمرُ الذي جعل المحققَ يحوِّلُ ملفَّهم إلى المحكمةِ، اعترفَ مديرُ المشفى بعلاقته بتلك الحادثة، لكنَّه أكَّدَ أنَّ هدَفَهُ من ذلك لا يتعدَّى الضغطَ على سوزي لمغادرةِ البلدةِ، لئلَّا تكشفَ سرَّ اختفاءِ سام الذي يجعلُ إدارةَ المشفى موضعَ اتِّهامٍ ويضعُهم في دُوَّامَةٍ لا أوَّلَ لها ولا آخرَ.

لم تجْد اللجنةُ دليلاً مُقنعاً على سِرِّ اختفاءِ سام ولا حتَّى على تأكيدِ شخصيَّةِ الرجلِ المتهم حتى تلك اللحظةِ، وبعد اجتماعاتٍ طويلةٍ قرَّرَ المُحقِّقُ المسؤولُ اعتبارَ القضيَّةِ مُنتهيَةً، وأنَّ الرجلَ هو سام ولكنَّه فاقدٌ للذاكرةِ، وتمَّ إغلاقُ ملفِّ القضيَّةِ.

أطلَعَ المسؤولُ في المخابراتِ المركزيَّةِ الصحفيَّةَ سوزي على كلِّ التفاصيلِ المُتعلِّقةِ بالرجلِ، وسمحَ لها بنشرِ تقريرٍ صحفيٍّ عنه لعلَّ مَنْ يقفُ خلفَ تلكَ القضيَّةَ يعيدُ استغلالَ هذه الفترةَ، ويبدأُ نشاطَهُ من جديدٍ خاصَّةً عندما يعلمُ بأنَّ ملفَّ القضيَّةَ قد أُغلِقَ.

حكمتْ المحكمةُ على مديرِ المشفى والطبيبِ والمُتورِّطين في تلك القضيَّةِ بأحكامٍ مُختلفةٍ مع إقصائِهم عن وظائِفِهم، ونشرتْ الصحفيَّةُ أخبارَ ذلكَ القرارِ، كانتْ سوزي على اتصالٍ دائم مع والديّ سام وتزورُهما باستمرارٍ وتتحدَّثُ إلى ذلك الرجلِ (سام) وهيَ تُحاولُ مساعدةَ والديه، والكشفَ عن سِرِّهِ، واعتقدَ الجميعُ أنَّ هذه هي نهايةُ الحكايةِ، وأنَّ الوضعَ سيبقى على حالِهِ، وعكفتْ الصحفيَّةُ على كتابةِ روايةٍ لها بعنوانِ (الرجل المجهول)

حرب أهلية9 ٦٢ ١٨م

أحدثتْ الحربُ فوضَى كبيرةً في أوساطِ الشعبِ من جميع فئاته وانتماءاته، واختلفَ الكثيرون بين مؤيِّدٍ لذلك الطرفِ أو لهذا الطرفِ، فمنهم مَن خشيَ على نفسِه وعلى عائلتِهِ من تلك الحربِ وما ينجمُ عنها من قتلٍ ونهبٍ وتشريدٍ؛ فاختاروا الابتعادَ عن المناطقِ المُشتعلةِ وذهبوا بعيداً عن ساحاتِ الوغَى على غيرِ هُدًى، ولتذهبْ بهم الطريقُ إلى أيِّ مكانٍ آمنٍ، يُمكنُ العيشُ فيه بهدوءٍ مع الزوجةِ والأولادِ.

و»رُبَّ صُدْفَةٍ خيرٌ من ألفِ ميعادٍ» هذا ما ينطبقُ على أمرِ

الصديقين كوفي وروبرت وزوجتيهما ساندي وهيلاري، فبينما كانوا ذاتَ يوم خارجَين للصيْدِ في مكانٍ لم يسبقْ لهم أنْ ذهبوا إليه من قبلُ شاهَدوا عدداً من العرباتِ تسلكُ طريقاً جانبياً، فصاحَ كوفي عليهم حتى توقّفتْ، وترجّلَ من إحداها رجلٌ وصاحَ عليهم:

ماذا تريدون؟

ومَنْ أنتم؟

فأنَا التاجرُ مارتن.

أسرعَ كوفي وروبرت إلى تلك العرباتِ وألقيَا التحيَّةَ عليه وعلى مُرافقيه، وعرفَ الصديقان أنَّ التاجر مارتن يمرُّ كلَّ شهرٍ مرَّةً ذَهاباً ومرَّةً إياباً من ذلك الطريقِ، وذلك بعد أنْ غيَّر طريقَهُ المُعتادة بعد اندلاع الحربِ، وهنا طلبَ كوفي من التاجرِ زيارتَهم وهو في طريقِ العودةِ، وأشار إلى مكانِ منزلهما فوافقَ التاجرُ مارتن على طلبه.

طلبَ كوفي من التاجرِ مارتن أنْ يحضرَ معه أغراضًا مختلفةً عند عودته، تمنَّى مارتن لهما التوفيق ووعدَهما بإحضارِ ما طلباه منه حين عودته.

أحضرَ روبرت معه بذوراً لنباتاتٍ كثيرةٍ عند قدومه في المرَّةِ الثانية، وقام الاثنان بمساعدة ساندي وهيلاري بزراعة حديقةٍ حولَ المنزل، وكان من السهولةِ بمكانٍ إحضارُ الماءِ لها من الجدولِ المارِّ بجانبها، فكانتْ الخضرواتُ التي يحتاجونها من بندورةٍ وبطاطا وغيرها مُتوافرةً على الدوام، وغرسوا حولها بعض الأشجار المُثمرةِ التي زيَّنتْ ساحةَ المنزل، اتَّفقَ الجميعُ على التعاونِ مع التاجرِ مارتن، فإذا توفَّرَ لديهم فائضٌ من أيِّ شيءٍ كانوا يُعطونه

لـه مُقابـلَ مـا يحصلـون عليـه مـن أشـياءَ يجلبُهـا لهـم.

انقضتْ شـهورٌ مـن حيـاة الهنـاءِ والسـعادة والمُتعـةِ الفريـدة في ربـوع الطبيعـة وقلـب الغابـة حيـثُ لم يسـبقْ لأحـدٍ أنْ قـام بزيارتهـم مـن قبلُ أو المـرور في طريقـه عليهـم غـير التاجـر مارتـن ورفاقـه، ولكـنَّ الأصدقـاء فُوجئـوا يومـاً وهـم يمـرُّون بجانـب الطريـق الـتي يسـلُكُها التاجـرُ مارتـن، بعـددٍ مـن العربـات تتقـدَّمُ في غـير الموعـدِ الـذي اعتـادوا عليـه مـع التاجـر مارتـن ورفاقـه ممَّـا أثـارَ دهشـتَهم.

كان الأمـرُ غريبـاً بـل ومُثـيراً، لكـنَّ كـوفي قـرَّر لقـاء العربـاتِ واعتراضهـا والتعـرُّفِ إلى أصحابهـا وتقديـم المسـاعدةِ لهـم.

كان السـيدُ بـول في العربـةِ الأولى مـع عائلتـه، وكان يبـدو عليـه القلـقُ والتعـبُ، وكان رجـلاً مُتعلمـاً لبـقَ الحديـث، وبعدمـا أوقـفَ بول العربـةَ والقافلـةَ مـن خلفـه عندمـا شـاهدَ كـوفي يحمـلُ بندقيَّتَـهُ مُتَّجِهًـا نحوهـم وقـال لمَـنْ معـه مُندهشـاً وقلقـاً؛ لأنَّـه لم يسـبقْ لهـم طيلـةَ الطريـقِ خـلالَ الأيـام الماضيـةِ أنْ قابلـوا أحـدًا فقـال بـول: يـا إلهـي!

هذا رجلٌ يقتربُ منا يحملُ سلاحه...

يبدو أنَّه يُقيمُ هنا!

وصلَ كوفي... وترجَّلَ بول من العربة لمقابلته.

قال كوفي: ... مرحبًا يا سيدي.

قال بول: ... مرحبًا أيُّها السيدُ.

قال كوفي: إلى أين تتجهون يا سادة؟

قال بول: إلى أيِّ مكانٍ آمنٍ.

قال كوفي: أرَى على وجهِك ملامِحَ القلقِ والتعبِ....

ما الأمرُ أيُّها السيدُ؟

قال بول: أكثرُ ممَّا تعتقدُ... فالطريقُ طويلٌ وشاقٌّ ومعنا أطفالٌ ونساءٌ.

قال كوفي: إذنْ يُمكنُكم الاستراحةَ عندنا؛ فلدينا منزلٌ بالجوارِ.

قال بول: أتسكُنُ وحدَك هنا؟

قال كوفي: تسكنُ معي زوجتي وكذلك صديقي روبرت وزوجتُه، وأشار كوفي إلى حيثُ ينتظرُ الآخرون.

ألقى بول نظرةً إليهم وعندما شاهدهم أطمأنَّ قلبُه، وطلبَ ممَّن معه اللحاقَ به.

ترجَّل بول وكوفي أمام العرباتِ، وكان كوفي يتحدَّثُ عن المنطقة وجمالها، وأشارَ بيده إلى روبرت ليعودوا إلى المنزل بينما كان بول قلقاً ويحملُ همومًا كبيرةً.

التقى الجميعُ أمامَ العرباتِ، وترجَّلَ منها رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ وكوَّنوا حلقةً حيثُ رحَّبَ كوفي بالجميع، وتعرَّفَ كلٌّ منهم إلى الآخرِ، ثُمَّ ذهبتْ ساندي وهيلاري إلى المنزلِ لإعدادِ وجبةٍ من الطعامِ الساخنِ للضيوف، بينما انتشرَ الأطفالُ حولَ المنزل وتحت ظلالِ الأشجارِ حيثُ الهواءُ العليلُ والطيورُ التي تنتشرُ في كلِّ مكانٍ.

قال كوفي: أنتم أوَّلُ مَنْ يزورُنا منذُ أنْ أقمْنَا هنا قبلَ عامٍ.

قال بول: توقَّعْ أنْ يزورَكم الكثيرون بعدَ الآنَ.

قال كوفي: ما الأمرُ يا سيدي؟

قال بول: كأنَّكم لا تعلمون شيئاً، فالحربُ اندلعتْ في كلِّ مكانٍ، وهربَ الناسُ من المدنِ والقُرَى إلى أماكنَ أكثرَ أمنًا.

قال كوفي: إذنْ يمكنُكم الإقامةُ هنا، وسنتعاونُ جميعًا على بناء منازلَ للجميع؛ فالأشجارُ كثيرةٌ، والأرضُ واسعةٌ، والماءُ متوافرٌ، والمكانُ كما تشاهدون جميلٌ ورائعٌ.

كان الطعامُ جاهزاً فاجتمعَ الجميعُ حولَ المائدةِ في ساحةِ المنزلِ، وتنفَّسَ الصِّغارُ والكبارُ الصُّعداءَ، وشعروا بالأمنِ والراحةِ.

وفي صباح اليوم التالي تعاونَ الجميعُ على قطعِ الأشجارِ وتجهيزها وتنظيفها، وتمَّ تحديدُ الأماكنِ التي سيَبنيَ فيها كلٌّ منهم بيتَهُ بشكلٍ مُنظَّم ومُرَتَّبٍ، كان أولُ بيتٍ يقامُ من نصيبِ روبرت ثمّ بول ثمّ دانكن ثمّ نيكسون، وخلالَ أيام كانتْ نواةً لقريةٍ صغيرةٍ، وتوقَّع الجميعُ وصولَ الكثيرِ من العَائلاتِ، وإنْ كانت الصدفةُ وحدَها هي التي جمعتْ بينهم.

التقى فيليب قبلَ أيام بتوم، ومِنْ ثَمَّ التقيَا بجاك وهم يتقدمون نحوَ تلك المنطقةِ من الغابَة التي يسكنُها كوفي والآخرون، وعندما قاربوا على الوصول أوشكَ النهارُ على الرحيل، والشمسُ تسحبُ خيوطَها الذهبيَّةَ خلفَها شيئاً فشيئاً، حيثُ بلغَ التعبُ منهم مبلغَهُ وهم يبحثون عن مكانٍ مناسب؛ يقضون ليلتَهم فيه، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتى شاهد جاك دُخَّاناً يتصاعدُ من وسطِ الغابة.

صاح جاك قائلاً: انظروا... انظروا إلى تلك الغابة أمامنا، فالدخَّانُ يتصاعدُ منها.

قال توم: إذنْ لا بدَّ أنَّ في المكانِ أُناساً آخرين.

قال فيليب: نعم، هيَّا بنا إلى هناك لنقضيَ هذه الليلةَ.

فرح الجميعُ وصاحَ الأطفالُ ابتهاجاً، واستبشرَ الجميعُ؛ لأنَّ كميات الطعام والماءِ شارفتْ على نهايتها، وعندما وصلَ الموكبُ المُنهكُ إلى حيَثُ الدخانُ يتصاعدُ تفاجأَ الجميعُ بوجودِ منازلَ خشبيةٍ رائعةٍ مقامَةٍ في المكانِ وعددٍ من الأشخاص أمامها، كانَ بول أوَّلَ مَنْ شاهدهم فسارَ نحوهم حتَّى إذا ما وصلَ إليهم توقَّفَتْ العرباتُ وترجَّلَ منها الرجالُ.

قال بول: حمداً للّهِ على سلامتِكم جميعاً.

أنا اسمي بول، وقد وصلتُ إلى هنا قبلَ أيَّام برفقةِ أصدقائي، فوجدتُ السيدين كوفي وروبرت وزوجتيهما يسكنانِ هنا منذُ زمنٍ، فوجدنا المكانَ رائعاً، وقرَّرْنَا الانضمامَ إليهم، وأنا أدعوكُم أيضاً للانضمام إلينا.

كان بول يتحدَّثُ إليهم وهم يتقدَّمون نحوَ المنازلِ حيث استقبلَهم الجميعُ وسطَ دهشةٍ واستغرابِ القادمين، شكرَ فيليب الجميعَ على دعوتهم واستقبالهم، ووافقَ مع رفاقهِ جاك وتوم على الإقامةِ معهم، وتعاونَ الجميعُ في تلكَ الأمسيةِ في إعداد الطعامِ لهم، وتمَّ التعارفُ فيما بينهم.

دعا كوفي الجميعَ إلى الاجتماعِ صباحَ الغدِ بعد أنْ كثُرَ السكانُ في تلك المنطقة، وتوقَّعَ الكثيرون أنَ يصلَ إليهم الكثيرُ من الهاربين، خشيَ كوفي أنْ تعمَّ الفوضى؛ ولذلك طالبَ الجميعَ بتخصيص موقعٍ لكلِّ جديدٍ بشكلٍ منظَّم؛ ليكونَ بين تلك المنازلِ شوارعُ تساعِدُ الجميعَ على التنقُّلِ والحركةِ، وطلبَ منهم التعاونَ لدعمِ

القادمين الجُدُدِ والوقوفَ إلى جانبهم، وأنْ يقومَ كلُّ واحدٍ منهم بزراعةِ الأرضِ حولَ بيته بالخُضرواتِ والأشجارِ.

وافقَ الجميعُ على مطالبِ كوفي وخاصَّةً في تسميةِ تلك المنطقةِ باسم (نيوفلج)، وساعدَ بول الجميعَ؛ لأنَّه مهندسٌ زراعيٌّ، وزوَّدَهم كوفي وروبرت بالبذورِ اللازمةِ التي كانَ يحصلُ عليها من التاجرِ مارتن، لقد وجدَ كلُّ من وصَلَ إلى تلكَ المنطقةِ الساحرةِ مَوقعاً مُناسباً للإقامة المُؤقَّتةِ؛ حتَّى تنتهيَ زوبعةُ الحربِ، وحتَّى يجدَ الفرصةَ المُناسبةَ للعودةِ إلى وطنِهِ ومَسقطِ رأسِهِ.

لم يكنْ لأحدٍ منهم حبُّ البقاء فيها إلى الأبدِ، لكنْ لا أحدَ يعلمُ ماذا يُخفي له القدرُ؟

ما زالَ الكثيرون من الناسِ يتوافدون إلى تلك المنطقةِ ويستقرُّونَ فيها، وكانتْ لهم مِهَنٌ مختلفةٌ وعاداتٌ وتقاليدُ متباينةٌ وحتَّى ثقافاتٌ وهُويَّاتٌ مختلفةٌ؛ ممّا أغنى تلك المنطقةَ وجعلَها بيئةً مناسبةً لتكونَ مُجتمعاً مُتكاملاً، حيثُ وجدَ البعضُ منهم مصدرَ رزقٍ له، فيما كان أكثرُهم عاطلاً عن العملِ بانتظارِ نهايةِ الحربِ.

أخذتْ تلك النواةُ تكبرُ يوماً بعد يوم.

كانتْ بدايةَ تكوينِ القريةِ التي كانتْ قبلَ شهورٍ فقط غابةً تسرحُ فيها الحيواناتُ وتمرحُ إلى أنْ جاء إليها العروسان كوفي وساندي برفقة الأصدقاء لقضاءِ أغربِ شهرِ عسلٍ في ذلك الزمانِ،..... بدأتْ الحكايةُ بالصدفةِ المحضةِ في مقهًى بمدينةِ برانس عندما التقى كوفي وروربرت.....

كانَ هناك بين الحينِ والآخرِ إبلاغٌ عن سرقةٍ هنا أو هناك وعن

عَبَثٍ وحركاتٍ مشبوهةٍ في الليل بين الفينةِ والأخرى، شكَّ الناسُ بأنَّ ثَمَّةَ نفرًا من المجرمين وصلوا المكانَ في الفترةِ الأخيرةِ؛ طلبَ كوفي وعددٌ من الناسِ مُراقبَةَ البلدةَ خاصَّةً في المساءِ والليلِ، يبدُو أنَّ العابثين قدْ علموا بالأمرِ فالتزمُوا الصمْتَ حتى صبيحةِ يوم أَحَدٍ، كانَ الناسُ نِيامًا وإذا الصراخُ المُتتالي بطَلَبِ النجدةِ، سمعهُ كلُّ مَنْ في البلدةِ، أفاقَ الناسُ على الصوتِ، خرجَ الرجالُ لاستجلاءِ حقيقةِ الأمرِ، كانتْ هناك خيولٌ تجري مُحدثةً غبارًا كثيفًا في أحياء القريةِ، سمعَ بعضُهم صوتَ إطلاقِ النارِ بكثافةٍ في وسطِ البلدةِ، لحظاتٌ وانتهى كلُّ شيءٍ واختفى العابثون كأنَّهم سرابٌ.

اشتكى كثيرٌ من الناسِ، فمنهم مَنْ قال إنَّهم سرقوا، وبعضُ النِّساء قُلْنَ أنَّهنَّ قدْ تعرَّضْنَ للتحرُّشِ، وحينَ تجوَّلَ الناسُ في البلدة وجدوا عددًا من السكَّانِ في أزقَّةِ البلدة قد تعرَّضوا لإصاباتٍ وتنزفُ الدماءُ من جروحِهم.

قال كوفي- والجميعُ مُحتشدٌ، في وسطَ البلدةِ-:

هلْ رأى أحدٌ منكم العابثين أو عرفَ أحدًا منهم؟

قال أحدُهم: نعم، أنا رأيتُ رجلا اسمُه كارتر، رأيتُ صورةً له على الجدرانِ وهو مطلوبٌ ومحكومٌ عليه بالإعدامِ؛ فقدْ قتلَ كثيراً من الناسِ.

قال كوفي: هذا أمرٌ في غايةِ الخطورةِ، ألَا يكفي ما نحنُ فيه؟ ماذا تقترحون أيُّها الرجالُ؟

قال توم: علينا أنْ نتناوبَ على الحراسةِ ليلَ نهارَ، ربَّما عادتْ تلك العصابةُ مرَّةً أخرى وقتلتْ الناسَ على حينِ غِرَّةٍ.

قال روبرت: لا أعتقدُ أنَّهم سيعودون مرَّةً أخرى؛ فالجميعُ هنا فقراءُ ولا يملكون شيئاً يستحقُّ عودتَهم والتعرُّضَ للقتل.

قال كوفي: ربَّما كان هذا صحيحًا، لكنْ لا بدَّ من المُراقبةِ والحذرِ.

قال توم: سنقومُ بالحراسةِ بشكلٍ يوميّ؛ فالوقايةُ خيرٌ من العلاج.

بعد فترةٍ قليلةٍ من الزمن أصبحتْ منطقةُ (نيوفلج) قريةً مُتكاملةً، بالرغم من عدم وجودِ روابطَ عائليَّةٍ تربطُ بين السكانِ وعدم وجودِ قانونٍ يحفظُ حقوقَهم وواجباتِهم، وبالرغم من تناقُضِ المصَالحِ بينهم كانتْ المشاكلُ والخلافاتُ التي تحدُثُ بينهم سرعانَ ما تنتهي؛ لأنَّ الرابط الوحيدَ الذي جمعهم هو حبُّهم للحياة وخوفُهم من الحربِ الدائرةِ رحاها في البلاد.

مدينة ترنتون ١٩٨٥

قرَّرَ المحققُ عودةَ الرجلِ- على أنَّه سام- إلى والديه، وطلبَ من والديه التعاملَ معه بكلِّ حَذَرٍ على أنَّه ضيفٌ وليسَ كابنٍ؛ لأنَّه ما زالَ يُنكرُهم؛ حتى يتعوَّدَ على الحياةِ معهم من جديدٍ.

لقد توقَّعَ والدا سام بعد عودَتِه إليهما أنَّ السعادةَ ستعودُ من جديدٍ إلى بيتهم إلَّا أنَّ الرجلَ خيَّبَ آمالَهما، ولم يستطعْ التأقْلُمَ مع الحياةِ السائدةِ في المنزلِ والمدينةِ كلِّها، ظلَّ غريباً بينهم يسيطرُ عليه الحزنُ والكآبةُ طيلةَ الوقتِ، وكان يُردِّدُ دائماً كلامًا يتعلَّقُ بأرضِه وزوجتِهِ وابنتِهِ.

حزنتْ الأمُّ التي ترى ابنَها يعيشُ معها ولا يعترفُ بها، ولا يُعيرُها أيَّ اهتمام حتَّى كسيِّدَةٍ ترعاهُ وتخافُ عليه، وممَّا زادَ في حزنِها أنَّها وجدَتْ نفسَها عاجزةً عن مساعدتِه والتخفيفِ عنه حتَّى ساءتْ حالتُها النفسيَّةُ والصحيّةُ.

بعد عودةِ المتهم إلى أحضانِ عائلةِ سام ليعيشَ معهم كانَ دائماً يشعرُ بالوحدةِ وكأنَّه ما زالَ في السجنِ، كان المتهمُ مُراقباً ليلاً ونهاراً، ولا يستطيعُ أنْ يتحرَّك بمفرده أبداً، كما أنَّ والدا سام فشَلا في إقناعه بأنَّهما والداه بالرغم من كلِّ المُحاولات التي بذلوها.

بكتْ الأمُّ منذُ اليوم الأوَّلِ للقائِه في مقرِّ الشرطةِ بمدينةِ جيرسي، وزادَ بُكاؤها وهي ترعى ابنَها الكئيبَ الحزينَ على الدوام وبشكلٍ فيه تفانٍ، كان المتهمُ كأنَّه محكومٌ عليه بالإعدام، إنَّه يعاني من أحلامٍ تطاردُهُ على الدوَامِ كأحلام اليقظةِ، ويعيَشُ مع أُناسٍ يعتقدونَ بأنَّه يتقمَّصُ شخصيةَ رجلٍ ماتَ منذُ عقودٍ، لم يسمحْ لوالديه بإطالةِ الحديثِ معه مُكتفيًا بردٍّ مُوجَزٍ ومُقتضَبٍ وأحياناً بالإشارةِ، مِمَّا زادَ في عذابِهما وقلقِهما على سلامَتِه، قرَّرَ الوالدان التناوبَ على السهَرِ بجانبِهِ أو عن بُعْدٍ ليلَ نهارَ خوفًا من أنْ يُقدِمَ على عملٍ يؤذي نفسَه أو على الأرجح أنْ يؤذيَهما بشكلٍ أو بآخرَ.

لم يراودْ الكَرَى عيونَ سام- المتهم- تلك الليلةَ بعد أنْ عصفتْ برأسِهِ أيامٌ عصيبةٌ عاشَها وزوجته أثناءَ الحربِ الأهليَّةِ، وأخذَ يستيقظُ من حُلمٍ يعيشُهُ؛ لأنَّ حياتَه تلكَ الأيَّامَ نشّطتْ خيالَه من جديدٍ، وفيما هوَ يتنقَّلُ في الطابقِ الأرضيِّ استيقظتْ الأمُّ مُنزعجةً، واجتاحَ فؤادَها فجأةً شعورٌ بالرهبةِ من عملٍ قدْ يُقدمُ عليه ابنُها الأسيُر في عقلِ «جو» الميتِ.

التفتْ سام إليها وخاطَبَها قائلاً: أنا مُحرَجٌ منك سيدتي؛ لأنَّني أيقظتُكِ في هذه الساعةِ المتأخرةِ من الليل.

الأمُّ: لا تقلْق بنَّني، أنتَ في بيتِك، ويجبُ ألَّا تعتذرُ أبداً، هلْ أُعِدُّ لك القهوةَ؟

المتهم: لا سيدتي، لا أريدُ شيئاً، كلُّ ما هنالك أنَّني لم أستطعْ النومَ؛ فأردتْ أنْ أجلسَ هنا وحدي؛ فلديَّ اهتماماتٌ أخرى أبحثُها مع نفسي.

ضحكتْ الأمُّ ضحكةً لطيفةً وقالتْ: هذا مفهومٌ بني، لا داعيَ لأنْ تقولَ ذلك، لكنَّني أردتْ أنْ أعرفَ إنْ كنتَ بحاجةٍ للمساعدةِ أم لا.

أحسَّ سام- المتهمُ- بأنَّه مُراقَبٌ: أشكرُكِ سيدتي، لستُ بحاجةٍ لشيءٍ على الإطلاقِ، إنَّكِ بغايةِ اللطفِ معي سيدتي ويُمكنُكِ أنْ تذهبي لتنامي.

الأمُّ: لا تُوجَدُ مشكلةٌ بنيَّ؛ فأنَا مُستيقظَةٌ بطبيعةِ الحالِ.

المتهمُ: أرجوكِ سيدتي أنْ تعودي إلى سريرِك؛ فأنا أستمتعُ بالجلوس وحدي.

بدتْ الأمُّ مُرعبَةً ومُتوتِّرَةً وخائفةً من لهجتِهِ التي تغيَّرتْ حِدَّتُها: أمتأكِّدٌ أنَّك لنْ تشعرَ بالوحدةِ؟ سألتْ الأمُّ.

كلَّا، على الإطلاقِ سيدتي، ففي الوحدةِ متعةٌ كبيرةٌ لي: قالَ مُبتسماً.

«كما تريدُ بنيَّ، تُصبحُ على خيرٍ، وإنْ احتجتَ لأيِّ شيءٍ أرجوكَ لا تتردَّدْ في إيقاظي» قالتْ الأمُّ، راقبَها المتهمُ وهي تصعدُ الدرجاتِ وتختفي، ثم عادَ إلى الأريكةِ مُقابل الشباك المُطلِّ على الحديقةِ وجلسَ يتأمَّلُ، كانَ الفزعُ الذي تشعرُ به أمُّ سام رهيباً

لدرجةِ أنَّها لم تكنْ قادرةً على النوم ولو للحظةٍ، تساءلَتْ فيما إذا كانَ ابنُها يُشَكِّلُ خطراً حقيقيّاً لهمَا، وقرَّرَتْ البقاءَ جالسةً في الظلامِ مُراقبةً كلَّ حركةٍ يأتي بها.

شعرَ المتهمُ أنَّ خيالَه بدا يشتُّ بعيداً، وعادَ إلى بلدةِ نيوفلج منذُ أنْ حلَّ بها أوَّلَ الأمرِ، كانَ على وشكِ أنْ يضحكَ بصوتٍ مُرتفعٍ، لكنَّه كتمَ صوتَه، وكانَ يعتقدُ أنَّ هناك سِرّاً مَوجوداً في مكانٍ مَا في بلدةِ نيوفلج، وتذكَّرَ حياةَ الأصدقاء التي كانتْ تدوِّي في المَقهى، وكلٌ يتحدَّثُ عن نفسِهِ وحياتِهِ وقصةَ وصولِهِ إلى بلدةِ نيوفلج منذُ تأسيسِها.

الهروب ١٨٦٢

لقد انقطعتْ كلُّ الاتصالاتِ والأخبارِ بين جو وأخيه جون وكذلكَ أختِهِ جوليت، لم تَعُدْ ليزا تعلمُ شيئاً عن أخبارِ والدِها بعدما غادرَتْ صديقتُها مولي البلدةَ، كانتْ السنواتُ العشرُ التي عاشتْها ليزا مع جو بمثابةِ شهرِ عسلٍ قصيرٍ ما لبثَ أنْ عكَّرَتْهُ غماماتٌ سوداءُ لاحتْ في الأفقِ.

بدأتْ الحربُ الأهليَّةُ تنسجُ خيوطَها السوداءَ في كلِّ مكانٍ، أخذَ الناسُ يهربون طلباً للأمن، لكنَّ جو وليزا فضّلا البقاءَ في المدينة، عندما اشتدَّ سعيرُ الحربِ وكادتْ أنْ تنالَ من عائلةِ جو أجبرتْهما على شدِّ الرحالِ إلى المجهولِ كغيرهم من الناسِ، لكنَّهما كانا وحيدين لا يعرفان إلى أين يسيران، وتركَ جو العنانَ لحصانِهِ يقودُهُ حيثُ شاءَ، إلى أنْ قُدِّرَ لهما الالتقاءَ بالسيدِ نورمان.

بعد ثلاثةِ أيام من الوحدةِ والمعاناةِ والخوفِ الذي ألمَّ بجو وعائلته التقى بالسَّيد نورمان وعائلته على مُفترَقِ طُرُقٍ.

رحَّبَ السيدُ نورمان بجو ودعاه إلى مُرافقَتِهِ إلى حيثُ شاءَ اللّهُ لهمَا أنْ يصِلا، كانَ ذلك من دواعي سرورِ جو وعائلته؛ إذ شعرَا بالأمنِ والاطمئنانِ مع نورمان، كان جو كعادته خدوماً مُخلصاً للآخرين، كانَ نورمان رجلاً بَشوشاً حليماً وكريماً، كانَ السيدُ نورمان يستمعُ باهتمام إلى حديثِ جو الذي كانَ يحبُّ الحديثَ عن نفسِهِ ورحلةِ حياتِهِ الشاقَّةِ التي سردها على أسماعِهِ كلمَّا حطَّا رِحَالهما للاستراحة من عناء السفرِ، خلال الأيام القليلةِ التي رافقَ جو فيها السيدَ نورمان عرفَ أنَّه إنسانٌ بسيطٌ جدّاً ورجلٌ غير عاديٍّ، وتوقَّعَ له رحلةً صعبةً في هذه الحياة؛ لذلك قرَّرَ مساعدَتَه في ظلِّ ظروفِ الحربِ؛ لئلَّا يتعرَّضَ إلى المجاعةِ أو الاستغلالِ من الآخرين مكافأةً له على إخلاصِهِ وتواضُعِهِ.

واصلتْ القافلةُ مَسيرها حتى وصلتْ مساءَ أحدِ الأيام إلى قريةِ نيوفلج حديثةِ العهدِ والتي نمتْ بعد الحربِ الأهليَّةِ مُباشرةً بالصدفة المحضةِ، كان السيدُ نورمان يستقلُّ مع عائلته عربةً رائعةً وخلفَهما عربةٌ أخرى تحمل أثاثَ منزلِهِ وبرفقتِهِ مساعدُهُ آندي.

عندما وصلَ السيدُ نورمان وجو إلى منطقة (نيوفلج) أوقفَ نورمان العرباتِ في وسطِ التجمعِ السكانيِّ الكبيرِ ثُمَّ ترجَّلَ من العربةِ، تجوَّلَ قليلاً فيها باحثاً عن مكانٍ مناسبٍ عندما علم أنَّ هذه البلدةَ الناشئةَ هي وليدةُ الحربِ الدائرةِ وأنَّ بإمكانِهِ إيجادَ مكانٍ له في البلدةِ.

عـاد السـيدُ نورمـان وركـبَ العربـةَ، ولحـقَ بـه جـو، وجمـعٌ مـن النـاسِ يتبعونَـهُ ويتأمَّلونَـهُ لجمـالِ عربَتِـهِ ولهيبتِـهِ وملابسِـهِ الراقيـةِ حيـث كان برفقتـه زوجتُـهُ مادلـين وابنُـهُ الكسـندر، في طـرفِ البلـدةِ وقـفَ السـيد نورمـان وجمـعُ النـاسِ مـن حولِـهِ فنظـرَ إليهـم مُتفحِّصـاً كلَّ واحـدٍ منهـم ثـمّ قـال:

أيُّها الناسُ، هلْ هذهِ الأرضُ لأحدٍ منكم؟

هلْ لأحدٍ منكم اعتراضٌ على إقامتي هنا؟

نظـر النـاسُ بعضُهـم إلى بعـضٍ، ولم يجـبْ أحـدٌ، ثـم أعـادَ الرجـلُ مـا قالـه مـرَّةً أُخـرى.

أيُّهـا النـاسُ، أريـدُ أنْ أبـنيَ بيتًـا علـى هـذه الأرضِ، إنْ كانَ لأحـدٍ منكـم اعـتراضٌ فليتقدمْ.

تقدَّمَ أحدُ الرجالِ ووقفَ أمامَهُ وقال:

لا يـا سـيدي، ليـسَ لأحـدٍ هنـا حـقُّ الاعـتراضِ علـى إقامتـك، أنـتَ أو غـيرُك تسـتطيعُ أنْ تبـنيَ بيتـك متـى شـئتَ.

شـاهد جـو كـوفي وهـو يتحـدَّثُ إلى السـيد نورمـان، تقـدَّمَ إلى الأمـام مُخاطِبًـا إيَّـاهُ:

كيـفَ حالُـك كـوفي؟ أنـا جـو، التقينـا في المَقهَـى، ودعوتـني لحضور زفافك.

قال كوفي: أهلاً بك جو.

كانَ جـو يقـفُ خلـفَ السـيد نورمـان احترامًـا لـه وتقديـرًا، تقـدَّمَ

إلى جانبه وقال مُخاطِبًا جمعَ الناسِ من حوله: هلْ جاءَ إلى هذا المكانِ رجلٌ يُدعى «جون مارتن ويلسون»؟

قال كوفي: نعم يا سيدي، إنه يسكُنُ هنا مع زوجَتِهِ.

كان جو يُتمتمُ ويتحدَّثُ مع نفسِهِ: هلْ سيستقبلُنا جون؟

هل سيساعدُنا كما كنتُ أساعدُه من قبلُ؟

أم أنَّه بقيَ بخيلاً وأنانيًّا كسابق عهده...

ربَّما تغيَّرَ إلى الأحسنِ بعدما تزوَّج.

ثم قال جو: أيُمكنُ يا سيدي أن تأخذَني إليه؟

قال كوفي: بكلِّ سرورٍ يا سيدي.

كيفَ وصلتَ إلى هنا؟

قال جو: أنا برفقةِ السيد نورمان.

ثم وجه كوفي كلامه إلى جاك قائلاً: من فضلك يا جاك، أوصلْ السيد إلى منزل جون ويلسون، وأنا سأصطحبُ السيد نورمان إلى منزلي.

قال كوفي: نحنُ جميعًا في خدمتك إن أردتَ المساعدةَ سيد نورمان.

قال نورمان: أنا سعيدٌ بمعرفتِك يا سيد كوفي.

ثم تابع قائلاً: غدًا صباحًا أرجو أن تحضرَ إليَّ؛ فأنا بحاجةٍ إلى بنّاءٍ ماهرٍ وعمالٍ، وأرجو يا سيد كوفي أنْ تقبلَ العملَ معي وأن تُشرفَ بنفسك على البناء.

قال كوفي: هذا من دَوَاعي سروري يا سيد ي.

obeikan.com

قال نورمان: من فضلكَ سيد كوفي، هلْ يوجدُ فندقٌ أو نزلٌ في هذا المكانِ؟

قال كوفي: لا يا سيدي.

قال نورمان: إذنْ سنقضي هذه الليلةَ في العربات.

قال كوفي: لا يا سيدي، أرجو أنْ تقبلَ دعوتي للمبيتِ عندي، فسيكونُ ذلك من دواعي سرورِ زوجتي أيضًا.

قال نورمان: أشكرُكَ يا سيدي على كرمك واستضافتِكَ لنا.

شكرَ جو السيدَ نورمان على مساعدتِهِ له خلالَ تلك الرحلةِ، ثُمَّ شكرَ كوفي على تعاوُنِهِ معه.

ثم قال كوفي: تفضَّلْ يا سيدي، من هنا الطريقُ إلى منزلي.

هربَ جون بعد الحربِ مع زوجتِهِ جيسي إلى أنْ وصلَ منطقةَ (نيوفلج)، كان جون بخيلاً وأنانيًّا، عندما وصلَ إلى تلك المنطقةِ واستقرَّ فيها اتَّخذَ من منزلِهِ مكتبًا للصرَافَةِ، يعملُ أعمالَ البنوك من إقراضٍ وتأمينِ أموالٍ، بذلكَ كان جون الأوفرَ حظًّا في القريةِ من الناحيةِ العمليَّةِ.

كانتْ زوجةُ جون رائعةً؛ فهيَ على عكسِ زوجِها تمامًا، تحبُّ الناسَ ومساعدَتَهم إلَّا أنَّ القدَرَ حرمَها من الأولادِ.

تفاجأَ جون عندما شاهدَ أخاهُ جو وعائلَتَهُ أمام منزلِهِ وظهرَ عليه التشاؤمُ والغضبُ، في حينِ كانتْ فرحةُ جيسي زوجةِ جون كبيرةً عندما علمتْ أنَّ جو هو الأخُ الأكبرُ لجون ومعهُ عائلةٌ رائعةٌ بعدما كانتْ تعتقدُ أنَّ جون وحيدٌ ومقطوعٌ من شجرةٍ كما أخبرَها سابقًا.

لاحظتْ زوجةُ جو استياءَ جون لكنَّها عانقتْ جيسي بحرارةٍ، وأدخلتْ أبناءَها إلى بيتِ جون برفقةِ جيسي وسطَ ترحيبٍ حارٍّ منها، كانتْ سارةُ ابنةُ العشرِ سنواتٍ مَحَطَّ اهتمامِ جيسي ورعايتِها، سارعَ جون مع الآخرين في بناءِ بيتٍ مُتواضعٍ لجَو في منطقةٍ مُنعزلةٍ لكنَّهُ قريبٌ من بيتِ السيدِ نورمان الذي اختَارَهُ بعنايةٍ في منطقةٍ مُرتفعةٍ في أحدِ أطرافِ البلدةِ؛ وذلكَ حتَّى يتخلَّصَ من أخيهِ وعائلتِهِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

لم يكنْ النقيبُ مُرتاحاً لفكرةِ إعادةِ المُتهمِ إلى والديَّ سام المزعومين، لكنَّهُ كانَ مُطمئنّاً بأنَّ المتهمَ تحتَ المُراقبةِ الدائمةِ، وفجأةً عصفتْ برأسهِ فكرةٌ رهيبةٌ واعتقدَ أنَّها ستكونُ بدايةً لكشفِ سرِّ المتهمِ والجُثَّةِ الغريبةِ.

فخاطبَ زميليهِ في القصَّةِ: «أنتما تُدركانِ أنَّكما ستكونان مُجبران على المُضيِّ معي قُدُماً في هذه القضيَّةِ مهما كانتْ النتائجُ» قال النقيبُ آدمُ لمُعاونيه.

قال المعاونُ: ماذا تقترحُ سيدي؟

قال النقيب آدم: عزيزيَّ، أنتمَا تعلمان جيِّداً أنَّ الجثَّةَ ما زالتْ تقبعُ في المَشفى دونَ إجابةٍ وأنَّ المتهمَ ما زالَ يُصرُّ على أنَّهُ جو الذي ماتَ منذُ عقودٍ ولم يعترفْ بأحدٍ آخرَ أبداً؛ وتبعًا لهذا فإنَّه من الحكمةِ أنْ نجاريَه في الأمر، ونساعدَه على ذلكَ، ونطمئنَه أيضاً أنَّنا سنُحاولُ العثورَ على عائلتِهِ التي هَلَكَتْ، أليسَ كذلك؟

«إذنْ علينا أنْ نعودَ إلى مدينةِ نيوفلج حيثُ يعتقدُ المتهمُ أنَّ لهُ عائلةً ومنزلاً هناك» قال المعاونُ سايمون.

«بالضبطِ» قال النقيبُ آدم: علينا الآنَ التوجَّهُ إلى منزلِ والدِ سام وأن نعرضَ على المتهم الأمرَ، وسيكونُ سعيداً ومُتعاوناً أعِدُكم بذلك، وسنتركُ له البحثَ بحريةٍ وأمامَ أعيُنِنَا؛ لنَرَى هلْ يستطيعُ العثورَ على منزلِهِ المزعوم أمْ لا؟ وإنْ فعلَ سنَتَحقَّقُ من مِلكيَّةِ الأرضِ وما إذا كان للمتهمِ هناكَ أيَّةُ دلائلَ وعلاماتٍ تدلُّ على صدقِهِ.

قال المحققُ للرجلِ: سيد جو هلْ تريدُ الذَّهابَ إلى بيتِكَ وأهلكَ؟

قال الرجلُ فرِحًا غيرَ مُصدِّقٍ هذا التحوُّلَ في لهجةِ المُحقِقِ: نعم يا سيدي، هذا كلُّ ما أتمنَّاه، كمْ أنا مُشتاقٌ لزوجتي وأبنائي خاصَّةً حبيبتي سارةَ!

ثُمَّ طأطأَ الرجلُ رأسَهُ وأخذَ يبكِي.

قال المحققُ: ما يُبكيكَ يا رجلُ؟

لا بدَّ أنَّ ذلكَ من الفرحةِ، أليسَ كذلك؟

قال الرجلُ: لا سيدي، لقدْ مضَى زمنٌ طويلٌ على سَفَرِي ولا عِلْمَ لي بما حصَلَ لهم.

قال المحققُ: سنذهبُ الآنَ، وستُرشِدُنا أنتَ إلى منزلِكَ، أظنُّكَ تعرفُ أينَ يقعُ؟

قال الرجلُ: بالتأكيدِ سيدي، لكنَّه خربَ الآنَ ولا يوجدُ بهِ أحدٌ، لكنْ أشكرُك كثيرًا، أخيرًا ستعرِفُ أنَّي صادقٌ عندما تقابلُ زوجتي وعائلَتي.

منذُ اللحظةِ الأولى التي قابلتْ سوزي فيها الرجلَ وهيَ تشعرُ بإحساسٍ غريبٍ يملؤُهُ التعاطفُ معَهُ، كانتْ سوزي جازمَةً بأنَّهُ صادقٌ ولم يَكُنْ يُمثِّلُ أبدًا بالرغمِ من كلِّ التناقضاتِ التي ظهرتْ على السطحَ، كانتْ تتمنَّى مساعَدَتَهُ وإخراجَهُ من المِحْنَةِ التي وقعَ فيها، بلْ تمنَّتْ لو أنَّها كانتْ أوَّلَ مَنْ شاهدَهُ لوقفتْ إلى جانبِهِ ولم تُخْبِر عنه الشرطةَ، ولقامتْ بنفسِها بالبحثِ معه عن أهلِهِ.

توجَّهَ المحققُ ومعاوناه واصطحبوا معهم سوزي برفقةِ الرجلِ إلى المكانِ الذي يعتقدُ الرجلُ أنَّهُ منزلُهُ، لكنَّه أخذَهم إلى خارجَ البلدةِ واتَّجَهَ نحوَ المزارعِ ثُمَّ تأمَّلَ البلدةَ وعادَ أدراجَهُ من الجهةِ الشرقيَّةِ من خارجِ البلدَةِ، وتوجَّهَ نحوَ طرفِها الغربيِّ الشمالي، كانَ المكانُ مَهجوراً إلَّا من بعضِ المنازلِ القديمةِ.

شاهدَ عن بُعْدٍ الكنيسةَ التي لم يشهدْ بناءَها لكنَّه شاهدَها مرَّةً عند أصدقائِهِ في كوكبِ سيراتا عبرَ الشاشةِ الكبيرةِ، إنَّها في وسطِ البلدةِ وفي الساحةِ العامةِ، وهناكَ في طرفِ البلدةِ شاهدَ بيتًا كبيراً «لابدَّ أنَّهُ بيتُ العُمدةِ نورمان» تمتمَ المتهمُ: إنَّهُ بجانبِ بيتي، لكنَّه تغيَّرَ كثيرًا!

تابعَ سيرَهُ وكأنَّهُ وجدَ ما يبحثُ عنهُ.

قالَ النقيبُ آدمُ وقدْ بلغَ التعبُ منهُ مَبلغَهُ وهو يركضُ خلفَ المتهمِ الذي أسرعَ السيرَ: كيفَ تسيرُ الأمورُ أيُّها الرجلُ؟

المتهمُ: كلُّ شيءٍ على ما يُرامُ سيدي.

ما زالَ المتهمُ يُجِدُّ في السيرِ، والنقيبُ آدمُ والمعاونان وسوزي يركضونَ خلفَهُ بتعبٍ شديدٍ.

توقَّفَ المتهمُ قليلاً، بدَا عليهُ الانزعاجُ عندما وصلَ طرفَ البلدةِ.

كانَ المكانُ أشبهَ بآثارٍ أكلَ عليها الدهرُ وشربَ، وما زالَ الرجلُ يتقدَّمُ، وكلَّمَا شاهدَ الرجلُ بيتًا خَرِبًا وقفَ أمامَهُ وتأمَّلَهُ قليلاً وقالَ: هذا بيتُ فلانٍ.

حتَّى وصلَ إلى آخرِ منزلٍ تهدَّمَ سقْفُهُ وبعضُ جوانِبِهِ، وعلَتْ الأعشابُ والقاذوراتُ أرضَهُ وداخلَهُ، جلسَ الرجلُ على الأرضِ وأخذَ يبكي ويصيحُ ويحثو الترابَ على نفسِهِ، والمحققُ وسوزي يتعجَّبانِ من تصرُّفِهِ.

قال الرجلُ: هذا مُستحيلٌ! إنَّ بيتي أصبحَ خَرِبًا! أينَ زوجَتي؟

أينَ عائلَتي؟

كانَ الرجلُ ينْدُبُ حظَّهُ على ما آلَ إليهِ منزلُهُ وعائلتُهُ، لكنَّ دهشةَ سوزي كانتْ أكبرَ من المُحقِق، وكانتْ تُتمتِمُ وتُكلِّمُ نفسَها مُستغربَةً من تصرُّفِ الرجلِ، وكانتْ بدايةً لتُغيِّرَ موقفَها نحوَهُ، حتَّى أنَّها أخذتْ تُؤيِّدُ المحققَ في توقُّعاتِه من الرجلِ وقالتْ:

إنَّهُ كذَّابٌ ومخادعٌ! هذا مُستحيلٌ! إنَّه كاذبٌ يا سيدي.

سمعَ المُحقِقُ كلام سوزي وشاهدَ استغرابَها فقالَ لها:

ماذا بكِ يا آنسةُ؟ كأنَّكِ تُحدِّثينَ نفسكَ!

قالتْ سوزي: نعم سيدي، إنَّهُ رجلٌ كاذبٌ، لقدْ استطاعَ أنْ يخدَعني فِعْلاً.

قال المحققُ: ولكنْ كيفَ عرفتِ أنَّهُ كاذبٌ؟

قالتْ سوزي: يَدَّعي أنَّ هذه الأرضَ لهُ! وأنَّ هذا البيتَ ملكُهُ.

قال المحققُ: وماذا في ذلكَ؟ ربَّما كانَ صادِقاً؟

قالتْ سوزي: لأنَّ هذه الأرضَ أرضُنا، ورثناها أباً عن جَدٍّ.

صاح الرجلُ: لا يا آنسةُ، أنَا لستُ كاذِباً، هذا بيتي وهذه أرضِي، وأنَا أقسمُ بذلكِ، كنتُ أظنُّكِ إلى جانبي! لكنّكم كلَّكُم سواءٌ ملمسٌ ناعمٌ وقلبٌ أسودُ.

قال المحققُ: يكفي هذا، لماذا كنتَ تبكِي وتصرُخُ؟

قال الرجلُ: كيف لا أصرخُ وأبكي وهذا بيتي قد خَرِبَ ولا أحدَ فيه؟ أينَ عائلتي؟ يا للمُصيبةِ!

أنَا أتوسَّلُ إليكَ سيدي بحقِّ السَّمَاءِ أنْ تُطلقَ سَرَاحي؛ لأبحثَ عنها، أرجوك سيدي أرجوك.

ثم تَدَخَّلَ المُحققُ وأخذَ يربتُ على كتفَي الرجلِ ويقولُ لهُ:

سيد جو، لقدْ غبتَ عنهم مُدَّةً طويلةً؛ ولهذا تركُوا البيتَ ليسكنوا في منزلٍ جميلٍ كالمنازِلِ التي أمامنا هذهِ –وأشارَ المحققُ بيدِه نحوَ المنازِلِ الحديثةِ في طرَفِ المدينةِ– فلا تحزنْ يا رجلُ، وسنأخذُكَ إليهم قريباً.

قال الرجلُ: أحقّاً سيدي ما تقولُ؟ أحقاً أنَّهم رحلُوا ويعيشون في المدينِة في منازلَ جميلةٍ؟

قال المحققُ: سترى بنفسِك عندما نأخذُك إليهم.

ثُمَّ وقفَ الرجلُ أمامَ بابِ منزلِهِ ونظرَ بداخلِهِ وابتسمَ بحزنٍ، وأخذَ

يُشيرُ بإصبعِهِ إلى داخلِ المنزلِ وقالَ: هنَا كُنَّا نتناولُ الطعامَ، هنا كنتُ أنامُ مع زوجتي، في هذه الزاويةِ كانتْ تنامُ سارةُ والصغيران. وأخذَ يزيلُ الترابَ عن رأسِهِ ووجهِهِ، والتفتَ نحوَ المحققِ وقال:

سأُثبتُ لك سيدي ولهذه الفتاةِ أنَّ هذه أرضي، فهُنا سِرٌ لا يعرفُهُ أحدٌ غيري، أرجو أنْ تنظرَ إلى تلكَ الزاويةِ في ساحةِ المنزلِ.

نظرَ المحققُ ونظرَتْ سوزي فلم يجدَا إلَّا أعشاباً وقاذوراتٍ تراكمَتْ منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ، وكأنَّ هذا المكانَ لم يلمسْهُ إنسانٌ من عُقودٍ مضتْ.

قال المحققُ: أنا لا أرَى شيئاً غيرَ عاديٍّ.

قال الرجلُ: أريدُ فأساً لأحفرَ هنا.

طلبَ المُحققُ من مُرافِقِهِ إحضارَ فأسٍ، وطلبَ منهُ أنْ يحفرَ في تلكَ الزاويةِ.

قال الرجلُ: أرجوكَ أنْ تحفرَ بحذَرٍ شديدٍ، دَعْني أنَا أحفرُ أعطِني الفأسَ.

قال المحققُ: ماذا يُوجدُ هنا يا جو؟

قال الرجلُ: عندما سافرتُ للعملِ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ، أعطاني مَبلَغاً من المالِ فدفنتُ نصفَهُ هنا وأعطيتُ الباقيَ لزوجتي.

-وأبلغَ الرجلُ المُحققَ عن المبلغِ بالتفصيلِ- وأخذَ الرجلُ يحفرُ وقاطَعَهُ المحققُ وقال:

يبدو أنَّه لا يُوجدُ شيءٌ جو.

لم يكترثْ الرجلُ لمَا قالَهُ المحققُ، وتابع الحفرَ ثُمَّ أخرجَ علبةً صدئةً وهو يضحكُ بصوتٍ مُرتفعٍ، وقال للمحققِ:

انظرْ سيدي إنَّها أموالي، وضعتُها بنفسي هُنا، وتَدَّعِي هذه الفتاةُ أنَّها أرضُها!

ثُمَّ أخرجَ الرجلُ مِنديلاً من العِلْبَةِ، وعندما فتَحَهُ كانتْ فيه عدَدٌ من القِطَعِ النقديَّةِ المعدنيَّةِ ثُمَّ أعطاها للمُحقِّقِ.

استغربَ المحققُ ممَّا شاهدَهُ بأمٍّ عينِه، واندَهشتْ سوزي وهما يتساءلان عمَّا حدثَ: كيفَ استطاعَ هذا الرجلُ العثورَ على هذه النقودِ؟ كيفَ فعلَ ذلكَ إنْ لم يكُنْ قدْ وضعَها بنفسِه؟

كانَ معجزةً حقيقيةً ما شاهدَهُ المحققُ، وما زالَ مُندهشاً ولم يصدِّقْ لو لم يكنْ شاهدَهُ بنفسِهِ وهو يعلمُ أنَّ الرجلَ يتحدَّثُ عن فترةٍ زمنيةٍ تعودُ لعشراتِ السنين.

قال الرجلُ: والآنَ يا سيدي، أريدُ أنْ تأخذَني إلى عائلتي، ستكونُ مفاجأةً سارَّةً لهم عندما أعودُ بعدَ هذهِ المدةِ الطويلةِ، كمْ أنَا مُشتاقٌ لهم! وكمْ أنا سعيدٌ لأنَّ أرضي هذه ستعودُ لنا! وسأبني فيها بيتاً جديداً لنعيشَ فيها بسلامٍ.

قال المحققُ: صبراً يا جو، سنعملُ لك كلَّ ما تريدُ.

أرسل المحقق تلك النقودَ إلى المختبرِ للتأكُّدِ من تاريخها، وطلبَ المحققُ من المسئولين عن الأراضي تقريراً عن تلك الأرضِ، والتأكُّدِ من اسم مالِكِها الأوَّلِ وحتَّى تاريخِه.

نـزل النقيـبُ آدمُ وزمـلاؤه والمتهـمُ في فنـدقٍ بالمدينـةِ، وكانَ المتهـمُ في غرفـةٍ مُستقلَّةٍ تُغلَـقُ بالمِفتـاحَ مـن الخـارجَ ولا يُسـمَحُ لـه بالخـروجَ، كانـتْ الغرفـةُ تُطِـلُّ علـى مَجـرَى النهـرِ، ذلـك النهـرُ الـذي كانَ الشـريانَ الرئيـسَ للبلـدةِ منـذُ نشـأتِها، والسـببُ الوحيـدُ الـذي حـدَا بالنـاسِ إلى النـزولِ عنـدَ تلـك الأرضِ، تنهَّـدَ المتهـمُ وهـو يُـذرفُ الدمـوعَ بسـخاءٍ، ويتأمـلُ النهـرَ والغابـةَ مـن حولـهِ عـن بُعـدٍ والحدائـقَ الـتي تُحيـطُ بـهِ، كانَ بيـتُ العمـدةِ يتربَّـعُ كالصخـرةِ الشـامخةِ وإلى اليسـارِ كانـتْ دارُ البلديَّـةِ الـتي جمعـتْ أهـلَ البلـدةِ تحـتَ كلمـةِ العمـدةِ.

نيوفلج ١٨٦٣

كانَ السـيدُ نورمـان ثريّـاً، تاجـراً ناجحـاً، وبعـدَ أنْ حـطَّ رِحالَـهُ وعـرفَ مـن كـوفي مـا تحتاجُـهُ البلـدةُ أرسـلَ مُسـاعدَهُ علـى الفـورِ لتأمـينِ ذلـك بالسـرعةِ المُمكنَـةِ، لم يكُـنْ السـيد نورمـان جَشِـعًا كمـا اعتقـدَ البعـضُ، لكـنَّ همَّـهُ الأوَّلَ هـو توفـيرُ مـا يحتاجُـهُ النـاسُ بأقـلِّ الأسـعارِ والـتي تكـونُ في متنـاول الجميـع.

منـذُ الليلـةِ الأولى لوصولِ السـيدِ نورمان أخذَ كـوفي على عاتِقِهِ الاهتمامَ بالسـيد نورمـان؛ فـكانَ يحـرسُ عرباتِـه كلَّ ليلـةٍ خوفـاً مـن سـرقتها حتَّـى تَمَّ بنـاءُ البيـتِ الـذي كانَ مُمَيَّـزاً في البلـدةِ كصاحبِهِ الثـريِّ، وكان السـيد نورمـان رجـلاً ضَخمـاً ذا هيبـةٍ ووقـارٍ وكريماً شـهماً ومثقفـاً أيضاً.

اتَّسـعتْ البلـدةُ وأخـذَ كلُّ واحـدٍ فيهـا يحـاولُ إثبـاتَ وجـودِهِ وتأمـينَ مصـدرِ رزقٍ لـه، الطبيـبُ سـكوتي اتَّخـذَ مـن منزلِـهِ عيـادةً

لاستقبالِ المرضى، فيليب أنشأَ مَقهًى شعبيّاً في وسطِ البلدةِ يُقدِّمُ فيهِ القهوةَ والشايَ، ووُجِدَ الحدَّادُ والنجَّارُ والخبَّازُ والبقَّالُ وغيرُها من المهنِ المختلفةِ.

في البدايةِ كانتْ الأراضي التي تصلُحُ للزراعةِ –وهي بعيدةٌ نوعاً ما عن البلدةِ – محدودةً جدًّا، وقدْ اتَّفقَ الموجودون في ذلك الوقتِ على تقسيمِها بينَهم بالتَّساوي، وكانَ من بينِهم جون ويلسون شقيقُ جو، وتمَّ إصلاحُها وزراعتُها بأنواعٍ مُختلفةٍ من الخُضراواتِ.

أرادَ السيدُ نورمان مُكافأةَ كوفي على كلِّ ما قدَّمَهُ لهُ من مساعداتٍ وخدماتٍ وخاصَّةً في فترةِ ضِيافَتِهِ له قبلَ إنشاءِ منزلِهِ؛ فأوكلَ إليهِ إدارةَ تجارتِهِ في البلدَةِ وطلبَ منه عدمَ استغلالِ الظروفِ وحاجةِ الناسِ والاكتفاءَ بالقليلِ من الربحَ.

مع زيادةِ السكانِ واختلافِ المصالحِ تزايدَتْ الخلافاتُ والمشاكلُ اليوميَّةُ؛ فانزعجَ الكثيرون وخاصَّةً السيدَ نورمان، وفي صبيحةِ أحدِ الأيام بينمَا كانَ المقهى يعجُّ بالرجالِ العاطلين عن العملِ تحدَّثَ الناسُ عن المشاكلِ وعن إيجادِ حلٍّ لها، وتحدَّثَ الناسُ أيضًا عن السيدِ نورمان وما يقدِّمُهُ من خدماتٍ للبلدةِ وللمُحتاجينَ فيها.

اقترحَ البعضُ أنْ يُرسلوا في طلبِ كوفي وهوَ الأكثرُ قُرْبًا من السيدِ نورمان لاستشارتِهِ في الأمرِ، وعندما جاءَ كوفي وعلمَ ما يجولُ في خاطرِ البعضِ منهم وقفَ أمامَهم وقالَ لهم:

«أيُّها السادةُ كما تعلمونَ أنا أكثرُكم قُرْبًا ومعرفَةً بالسيدِ نورمان، وعرفتُ عنهُ الكثيرَ خلالَ إقامَتِهِ عندي، والكلُّ يعلَمُ ماذا قدَّمَ لهذهِ البلدةِ.

أنَـا علـى علْـم أنَّ هنـاك الكثـيرَ ممَّـا سـيُقدِّمُهُ لهـا قريبًـا، ونحـنُ جميعًـا في حاجـةٍ إلى رجـلٍ حكيـم ومُثقَّـفٍ مثلِـهِ؛ فنحـنُ هنـا نعيـشُ بـلا قانـونٍ ولا حاكـمٍ يُديـرُ شـؤونَ البلـدةِ.

لـذا أقـترحُ عليكـم تعيـينَ السـيدِ نورمـان كعمـدةٍ للبلـدةِ؛ ليُشـرِفَ عليهـا، وأنَـا مُتأكِّـدٌ أنَّـه سـيبذلُ كلَّ مـا يسـتطيعُ خاصَّـةً وأنَّ الحـربَ تبـدُو طويلـةَ الأمَـدِ ولا نهايـةَ لهـا».

بـدأَ الرجـالُ في مشـاوراتٍ جانبيَّـةٍ بينهـم، وأكـدُّوا جميعًـا أنَّ السـيدَ نورمـان هـو أفضـلُ رجـلٍ يُمكـنُ أنْ يكـونَ مسـؤولاً عـن البلـدةِ.

صاحَ الجميعُ: مُوافقون... مُوافقون يا سيدُ كوفي.

قـال كـوفي: أيُّهـا الرجـالُ، لنذهـبْ جميعًـا إلى منـزلِ السـيد نورمـان لإبلاغِـه بقرارِنَـا هـذا، توجَّـهَ الرجـالُ إلى منـزلِ السـيدِ نورمـان في موكـبٍ كبـيرٍ أشـبه بمسـيرةٍ أو احتفـالٍ، وعندمـا وصلـوا كان السـيدُ نورمـانُ جالسًـا مـع زوجتـه أمـامَ المنـزلِ، عندمـا شـاهدَ السـيدُ نورمـان الرجـالَ قادمـين نحـوَ المنـزلِ قـالَ لزوجتِـهِ:

تَفَضَّلي عزيزتي إلى الداخلِ؛ فالأمرُ غيرُ طبيعيٍّ.

اعتقـدَ السـيدُ نورمـان أنَّ أهـلَ البلـدةِ غـيرُ مُرتاحـين لوجـودِهِ؛ لأنَّـه يتدخَّـلُ في كلِّ صغـيرةٍ وكبـيرةٍ في البلـدةِ الأمـرُ الـذي لم يـرُقْ لبعضِـهِـمْ، عندمـا وصـلَ الرجـالُ وكانَ في مُقدِّمتِهـم كـوفي استبشـرَ السـيدُ نورمـان خـيرًا، فنهـضَ مـن مكانِـه وتقـدَّمَ إلى بـابَ المنـزلَ.

قال كوفي: مرحبًا يا سيدي.

قال السيدُ نورمان: أهلاً بك يا سيدُ كوفي....

ما الأمرُ؟

قال كوفي: لقد اتَّفقَ الرجالُ في البلدةِ على تعييِنكَ عمدةً لها، وهاهم جاؤوا إليكَ؛ ليطلبوا منك المُوافقَةَ، وهم مُصرُّون على ذلك.

قال السيدُ نورمان: عمدةً للبلدة!!

لقدْ فاجأتموني أيُّها السادةُ بهذا القرار، أرجو من الجميعِ العودةَ إلى المقهى وسألحقُ بكم حالاً.

أخبرَ السيدُ نورمان زوجته بقرارِ أهلِ البلدةِ ففرحتْ كثيرًا به.

وصلَ السيدُ نورمان إلى المقهى، واستقبلَهُ الجميعُ بالتصفيقِ والهتافِ، وقفَ أمامَ الجميعِ وأخذَ يتفحَّصْ الموجودين في المقهى ثم قال:

«تفضَّلُوا جميعًا بالجلوسِ» ثُمَّ التفتَ نحوَ الساقي وقال له:

«من فضلكَ، قدِّمْ للجميعِ القهوةَ على حسابي» ثُمَّ قال:

أشكرُكم جميعًا على هذه الثقةِ، واعلمُوا أنَّ هذه مسؤوليةٌ كبيرةٌ وليستْ سهلةً عليّ ولا عليكم، وتتطلَّبُ من الجميعِ تضحيَّاتٍ كثيرةً.

قال الجميعُ: نحنُ موافقونَ على كلِّ ما تراهُ مُناسبًا، والجميعُ مستعدٌّ للمساعدةِ والوقوفِ إلى جانبِكَ يا سيدُ نورمان، يا عمدةَ البلدةِ.

قال السيدُ نورمان: أينَ السيدُ بول والدكتورُ سكوتي؟

قال كوفي: الدكتورُ في عيادتِهِ، والسيدُ بول في مزرعتِهِ.

قال السيد نورمان، مُوجِّهًا كلامَهُ إلى جو:

لـو سمحـتْ يـا جـو، اذهـبْ واطلـبْ منهمـا الحضـورَ فـوراً؛ لأنَّ مـن المهـمِّ يـا رجـالُ أنْ يكـونَ الجميـعُ هُنـا لنعـرفَ رأيهـم.

قال جو: حالاً يا سيدي.

كانَ الجميـعُ ينظـرونَ بإعجـابٍ إلى السـيدِ نورمـان ويتهامسـون فيمـا بينهـم ويتسـاءلون عمـا سـيفعلُه عمدتُهـم الجديـدُ إلى أنْ حضـرَ الدكتـورُ سـكوتي وبـول، وقـد أخبرَهـم جـو بمـا قـرَّرَهُ أهـلُ البلـدةِ.

قـال د. سـكوتي: نحـنُ موافقـان يـا سـيدُ نورمـان علـى تعيينـكَ عمـدةً للبلـدة؛ فأنـتَ أفضـلُ مَـنْ يقـومُ بذلـكَ.

قـال نورمـان: شـكرًا لكـم جميعًـا، مـن المهـمِّ أيُّهـا الإخـوةُ أنْ تكـونَ هنـاكَ لجنـةٌ استشـاريَّةٌ؛ تسـاعدُ العمـدةَ في إدارةِ شـؤونِ البلـدةِ واتخـاذِ القـراراتِ المناسـبةِ، ولتَكُـنْ مُؤلَّفَـةً مـن أربعـةِ أفـرادٍ، مَـن يرغَـبُ منكـم في ترشـيحَ نفسِـهِ؛ ليكـونَ خادمـاً أمينـاً للبلـدةِ فليتفضـلْ.

رفعَ الكثيرون من الرجالِ أيديهم، والكلُّ يصرخُ أنَا... أنَا....

قـال العمـدةُ: هـذا غـيرُ معقـولٍ أبـدًا، واسمحـوا لـي أنْ اقـترحَ عليكـم أنْ نجـريَ اقتراعـاً مَكتوبـاً، يختـارُ كلُّ واحـدٍ منكـم أسمـاءَ أربعـةٍ مـن الذيـن تجـدونَ فيهـم الخـبرةَ والثقـةَ، والأشـخاصُ الأربعـةُ الذيـن يحصلـونَ علـى أكثـرِ الأصـواتِ سـيتمُّ اختيارُهـم لهـذهِ المهمَّـةِ.

أُعجـبَ الجميـعُ بمـا فعلـهُ العمـدةُ الـذي اسـتطاعَ وبـكلِّ سُـهولةٍ تشـكيلَ اللجنـةِ، وطلـبَ العمـدةُ مـن اللجنـةِ الاجتمـاعَ معـه في بيتِـهِ في صبـاحَ اليـوم التالـي، كمَـا طلـبَ مـن الرجـالِ الموافقـةَ علـى تعيـينِ السـيدِ كـوفي مُسَـاعداً لـه.

قال الرجالُ: نحنُ مُوافقون أيُّها العمدةُ على تعيين السيدِ كوفي مساعداً لك.

قال كوفي: سيدي العمدة، قبلَ قُدومِكَ تعرَّضَتْ البلدةُ للسطْوِ والعبثِ من عصابةٍ يُدعى زعيمُها كارتر.

قال العمدةُ: أوقَدْ وصلَ إلى هُنَا هذا السفاحُ؟

قال الجميعُ: نعم سيدي، نحنُ نخشى أنْ يعودَ مرَّةً ثانيةً.

قال العمدةُ: لا تخافوا؛ ليسَ لديكم ما يبحثُ عنه هذا السفاحُ، إنَّه يريدُ الذهبَ والمالَ، ثم إنَّه لا يتردَّدُ إلى المكانِ نفسِهِ مرَّتين أبدًا، إنَّه كالثعلبِ الماكرِ، والجميعُ يبحثُ عنه فهو مطلوبٌ للعدالةِ.

أدخلَ كلامُ العمدةِ الفرحَ والاطمئنانَ إلى قلوبِ الناسِ، لكنْ بقيتْ بعضُ السرقاتِ التي تحدثُ كلَّ عِدَّةِ أيامٍ مرَّةً، وعزا الناسُ ذلك إلى عددٍ من الصِّبيَةِ الصِّغَارِ أو بعضِ الفقراءِ المُعدمينَ بحثًا عن لُقمَةِ خبزٍ.

في اجتماعِ المجلسِ الأوَّلِ في بيتِ العمدةِ اتَّفَقَ الجميعُ على وضْعِ برنامجٍ خاصٍ لإدارةِ البلدةِ وِفْقَ النقاطِ الآتيةِ:

اختيارُ مكانٍ مُناسبٍ لبناءِ مَقرٍّ للبلديَّةِ وأمامه ساحةٌ واسعةٌ تكونُ مكاناً للاحتفالِ فيها بالمُناسباتِ والأعيادِ.

إنشاءُ صندوقٍ للبلديَّةِ يُمَوَّلُ من المصادرِ التَّاليَةِ:

رسومِ رُخَصِ البِناءِ.

رسومِ الزَّواجَ.

مُخالفاتٍ يدفعُها كلُّ مَنْ يعتدِي على الآخرِ.

تُباعُ الأراضي غيرَ المملوكةِ للمُواطنينَ بأسعارٍ رَمزيَّةٍ.

هكذا أوجدَ العمدةُ دَخْلاً للبلديَّةِ مع تَواضُعِهِ يدفعُ منهُ رَوَاتِبَ موظَّفيها القليلين.

طلبَ العمدةُ من أهلِ البلدةِ التسامُحَ فيما بينهم والتحلِّي بالصبرِ إذا ما واجهتْهُم أيَّةُ مُشكلةٍ؛ حتَّى تبقى البلدةُ هادئةً تنعمُ بالسلامِ والطمأنينةِ، كما طلبتْ اللجنةُ منهم وخاصَّةً من الرجالِ والشبابَ القادرينَ على العملِ دعمَ البلديَّةِ بيومِ عملٍ مجانيٍّ.

هبَّ الرجالُ والشبابُ في المساعدةِ لبناءِ مَقرٍّ لبلديَّتِهم حتَّى تمَّ إنجازُهُ، وأخذَ الناسُ يتردَّدُون عليه بعدما كانوا يذهبونَ إلى بيتِ العمدةِ.

كانتْ قراراتُ العمدةِ مُلزِمَةً للجميع، وتعوَّدوا في حياتهم اليوميةِ وفي المناسباتِ على نظامٍ مُعيَّنٍ، وساعدهم في ذلك المستوى المعيشيّ المتقاربُ للجميعِ.

منذُ اللحظةِ الأولى التي وصلَ فيها جو إلى البلدة وهوَ عاطلٌ عن العملِ، ولولا المبلغُ الذي ادَّخرَهُ مع زوجتِه قبلَ الحربِ وما يُقدِّمُهُ له السيد نورمان عمدةُ البلدةِ من مُساعدةٍ لَما استطاعَ الإنفاقَ على عائلته؛ لذلكَ اقترحَتْ عليه زوجتُهُ ليزا أنْ يستأجرَ الأرضَ الزراعيَّةَ التي يملِكُها شقيقُهُ جون وأنْ يعملَ فيها، لكنَّ جو كانَ قلِقاً؛ لأنَّه خشيَ ألَّا يقبلَ شقيقُهُ تلكَ الفكرةَ، لكنَّهُ وافقَ أخيراً بعد إلحاحٍ من زوجتِهِ وابنتِهِ سارةَ.

طلبَ جون من أخيهِ جو –بعد أنْ وافقَ على تأجيرِهِ مزرعتِهِ– مبلَغاً من المالِ مُقدَّماً، لكنَّ جو قال ساخِراً من أخيه: لقدْ جئتُ على أمَلٍ أنْ تُساعدَني في المشروعِ بمبلغٍ من المالِ أبدأُ به العملَ،

أنـتَ تعلـمُ أنَّـني قـدْ سـاعدتُك كثـيراً، ومـن حقِّـي عليـكَ أنْ تَـرُدَّ لـي بعـضَ الجميـلِ في هـذهِ الظـروفِ الصعبـةِ.

قال جون: أمَّا المالُ فلا أستطيعُ.

مـن أيـنَ لـي بالمـالِ؟ فـلا يوجـدُ معـي مـا تطلـبُ، أرجـوكَ أنْ تفهمَ.

قال جو: ولكنِّي بحاجةٍ ماسَّةٍ له، أرجوكَ ساعدْني.

اعتبرْه دَيناً، أسدِّدُه لكَ... إنَّهُ وعْدٌ.

قال جون: أرجوكَ أنْ تفهمَ...

المـالُ الـذي بـينَ يـديَّ ليـسَ مِلـكاً لـي، إنَّـهُ للآخريـن مُقابـلَ فائـدةٍ أُعطيهـا لهـم، فـإنْ أردْتَ هـذا المبلـغَ عليـكَ أنْ تُسـدِّدَهُ مـع الفائـدةِ وأنْ تُوقِّـعَ علـى هـذهِ الأوراقِ؛ لأضمـنَ حـقَّ النـاسِ.

قال جو: يبدُو أنَّه ليسَ لي مَفَرٌّ من المُوافقةِ.

هاتْ هذهِ الأوراقَ اللعينةَ لأوقِّعَها لك.

كانـتْ المزرعـةُ الـتي اسـتأجَرَها جـو مـن أخيـهِ جـون مُجـاورةً لمزرعـةِ جـورج الـتي يعمـلُ فيهـا أبنـاؤُهُ، وكانَ ابنُـهُ الأصغـرُ سـتيف غُلامـاً شَـقيّاً ومُتعبـاً.

في أحـدِ الأيـام بينَمـا كانَ العمـدةُ ومُسـاعدُهُ في البلديَّـةِ يسـتمعون إلى عـدَدٍ مـن الأهالـيَ حضـرَ بـول واسـتأذنَ بالـكلامِ قـال لـهُ العمـدةُ:

تفضَّلْ يا سيد بول، ماذَا لديكَ؟

قـال بـول: لقـد تشـاجرَ جـو وزوجتُـهُ مـع أبنـاءِ جـورج في المنطقـةِ الزراعيَّـةِ، ورأيـتُ السـيدَ إدوارد يُحـاولُ فَـضَّ النـزاعِ بينهـم.

قال العمدةُ: شكراً لك سيد بول، وتابعَ قائلاً:

أنَا لا أفهمُ سِرَّ هذا الصراع بينهم؛ فهذهِ ليستْ المَرَّةَ الأولى التي يتشاجرون فيها، ثُمَّ طلبَ من رجلينِ عندَه أن يسبقاهُ إلى المزرعة لفكِّ الشجارِ بينهما حتَّى يلحقَ بهما، أبقَى العمدةُ مُساعدَهُ في البلديَّةِ ليُشرِفَ عليها وأمرَ مُستخدمَ البلديَّةِ فورد أنْ يُجهِّزَ العربةَ، وكانَ العمدةُ حريصاً على التواجدِ في مكانِ الشجارِ وحلِّ الخلافاتِ في الموقِعِ نفسِهِ دونَ أنْ يسمحَ لمُشكلةٍ أنْ تتفاقمَ وتكبرَ.

ركبَ العمدةُ العربةَ وتوجَّهَ إلى المزرعةِ، ولَّما وصلهَا وجدَ الرجالَ جميعاً موجودين هناك بعدَ أنْ فَضُّوا الشجارَ، فجلسَ على تَلَّةٍ صغيرةٍ وافتتحَ الجلسةَ قائلاً:

أيُّها السادةُ، في البدايةِ أرجو نزْعَ الكراهيةِ والغضبِ من الصدورِ حتَّى نبقَى أصدقاءَ، وعلينا أنْ نتعاونَ في حلِّ هذه الخلافاتِ البسيطةِ بالتسامحَ والمحبَّةِ.

وقفَ جو أمامَ العمدةِ وقال مُقاطِعاً....

سيدي العمدة، بينمَا كنتُ أنَا والسيد....

إلَّا أنَّ العمدةَ قاطعَهُ وقالَ له....

مَنْ سمحَ لك بالكلام يا جو؟ أنتَ تجلسُ في مَحكمةٍ، ولا يجوزُ لأحدٍ التحدُّثُ إلَّا بإذنٍ من القاضي.

ثُمَّ قالَ لأحَدِ رجالِهِ واسمُهُ جاك:

لو سمَحْتَ، تفضَّلْ واكتبْ محضرَ المحكمةِ، وتابعَ قائلاً:

لقدْ علمتُ أن السيدَ إدوارد كانَ مَوجوداً منذُ البدايةِ....

تفضلْ سيد إدوارد، وتحدَّثْ عن الأمرِ، وأرجو أنْ تروِيَ لنا ما حدثَ بالضبطِ بينهما.

تقدَّمَ إدوارد وقال:

نعمْ سيدي، حضرْتُ الشجارَ من البدايةِ، بينَمَا كنتُ أتَّفِقُ مع جو على سعرِ كميَّةٍ من الخُضارِ من مزرعتِهِ جاء هذا الفتى ستيف ووقفَ على بُعْدِ أمتارٍ من هنا وقال لي:

سيد إدوارد، أنا أبيعُكَ ما تريدُ وبسعرٍ أقلَّ من سعرِ هذا الرجلِ- يعني بذلك جو- ومعَ أنِّي لم أُعِرْهُ أيَّ اهتمام لعلمي بأنَّ إخوتَه يتعاملون مع تاجرٍ آخرَ أعادَ ما قالَهُ مرَّةً أخرى، وألحَّ عليَّ بالقولِ، ممَّا أزعجَ جو كثيراً، فطلبَ منه الانصرافَ، وأخَذَ جو يُلاطِفُهُ ليذهبَ إلى أخوتِهِ ويبتعدَ عنهم، لكنَّ الفتى بقيَ مكانَه وأخذَ يُردِّدُ ذلكَ مرَّةً أخرى، لم يستطعْ جو ضبطَ نفسِهِ وأخذ يشتمُهُ ويسبُّهُ، ويتوعَّدُه، لكنَّ الفتى أصرَّ على الإساءةِ لجو.

ثُمَّ تابعَ قائلاً: ثُمَّ جاءتْ زوجةُ جو ورمتْ الفتى بحجرٍ صغيرٍ إلَّا أنَّه أدمَى رأْسَهُ، وعندما رأى الفتَى الدَّمَ يسيلُ على وجهِهِ هربَ مَذعورًا ثُمَّ أخذَ يصرخُ على إخوتِهِ؛ فانهالَ إخوتُهُ بالضربِ على جو وزوجتِهِ حاولتُ منْعَهُم إلَّا أنَّني لم أستطعْ ذلك حتَّى جاء الرجالُ وفرَّقوا بينهم.

قال العمدةُ: شكرًا لك يا سيد إدوارد.

قال العمدُة مُوجِّهاً كلامَه للفتَى ستيف:

هل سمعتَ ما قالَهُ السيدُ إدوارد؟

قال ستيفُ: نعم يا سيدي.

قال العمدةُ: هلْ تعترفُ بما قالَه أم لديكَ أقوالٌ أخرى؟

قال ستيف: لا يا سيدي كلُّ ما قالَهُ صحيحٌ.

كان إخوةُ ستيف يتوقَّعون أنَّ ما حدثَ لأخيهم غيرَ ما سمعوه من السيد إدوارد، وما اعترفَ به أخوهم، الأمرُ الذي جعلَهم يعتدُون بالضربِ على جو وزوجته فأيقَنوا أنَّهم تسرَّعوا في التصرفِ، وأنَّهم سيدفعون غراماتٍ ماليَّةٍ بلا شكٍّ.

قال العمدةُ مُتحدِّثًا إلى الفتَى:

لماذا يا فتى، تُحاولُ إفسادَ البيعِ مع الآخرين وأنتَ تعلمُ أنَّ ذلك ليسَ من عاداتنا وتقاليدنا، ولا يَجوزُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ التصرُّفُ بذلك؟

قال ستيف: أنا أعتذرُ عن ذلك يا سيدي، وأتعهَّدُ بعدمِ تكرارِ ذلك.

قال العمدةُ: اجلسْ مكانكَ يا ستيف، ثُمَّ التفتَ إلى الآخرين قائلا:

هلْ يريدُ أحدٌ إضافةَ شيءٍ آخرَ؟

قال الحضورُ: لا يا سيدي.

قال العمدةُ: لا شكَّ أنَّ الجميعَ في هذه البلدةِ طيبون، وأنَّ مثلَ هذهِ الأمورِ تحدثُ في كلِّ مجتمعٍ، ولكنَّ الأصلَ ألَّا تتكرَّرَ، ثُمَّ تابعَ قائلا:

أيُّها الرجالُ، كمَا سمعتُم جميعًا اعترفَ ستيف بذنبِهِ؛ لذلكَ نُقَرِّرُ الآتي:

يدفعُ ستيف غرامةَ الاعتداءِ على الغيرِ؛ لعلَّ هذا يمنعُهُ من تكرارِ ذلكَ.

يدفعُ إخوةُ ستيف غرامةً مُماثلةً للسيدِ جو وزوجتِهِ لاعتدائِهم عليهم بلا سببٍ، وليعلمْ الجميعُ أنَّ المرأةَ عندنَا مقدسةٌ، ولا يجوزُ بأيِّ حالٍ الاعتداءُ عليها.

نظرَ العمدةُ في وجوهِ الرجالِ وقال:

هلْ هناكَ اعتراضٌ على ذلك يا سادةُ؟

قال الرجالُ: لا سيدي.

قال العمدةُ:

والآنَ وكما تعوَّدنا دائمًا لِنتصافحْ ولْنَنْسَ ما حدثَ ولْنَعُدْ إلى البلدةِ أصدقاءَ وإخوةً، ثُمَّ التفتَ نحوَ جاك وقال له: هلْ دوَّنْتَ كلَّ شيءٍ يا جاك؟

قال جاك: نعم سيدي.

قال العمدةُ: أرجو من الجميعِ التوقيعَ على المحضرِ.

ثُمَّ قالَ لإخوةِ ستيف: عليكم دفعُ المبلغِ في صندوقِ البلديَّةِ فوراً.

عاد الجميعُ إلى البلدةِ في موكبٍ واحدٍ وكأنّ شيئاً لم يحدثْ، وحُفظَتْ الوثيقةُ في خِزانةِ البلديَّةِ.

لم يكنْ جو يتَّسِمُ بتلكَ العاداتِ من قبلُ، فقد كان مُتسامحاً خَدوماً، إلَّا أنَّ ما حدَثَ له من مَشَقَّةٍ في الشهورِ الماضيَةِ أثَّرَ على سلوكِهِ بعضَ الشيءِ، والأمرُ الآخرُ أنَّ تصرُّفَ ستيف كانَ مُتَعَمَّدًا؛ لأنَّه كانَ في السابقِ يتعرَّضُ لسارةَ ابنةِ جو بالمضايقاتِ، ويعترضُ طريقَها، الأمرُ الذي رفضَهُ جو بقوَّةٍ، وهذا الأمرُ بالتحديدِ حدا بجو إلى التصرُّفِ بقسوةٍ مع ستيف.

في أوَّلِ عيدٍ تشهدُهُ البلدةُ في ذكرى تسلُّمِ العمدةِ مَهَامَّ مَنصبِهِ جرَى الاحتفالُ في ساحةِ البلديةِ على غيرِ العادةِ، حيثُ كانَ الاحتفالُ في السابق يجري في المنازلِ والبيوتِ، كلٌّ في منزلِهِ ومع أسرته، قبل العيدِ بأيَّام أعطى العمدةُ تعليماتٍ خاصَّةٍ إلى مساعده كوفي لِيُطْلِعَ الأهالي عليها؛ ليكونَ عيداً مُمَيَّزاً يحتفلُ به الجميعُ في الساحةِ الرئيسةِ، على أنْ يُحضرَ كلٌّ منهم ما أعدَّ للعيدِ من طعامٍ وشرابٍ وحلويَّاتٍ إلى موقعِ الاحتفالِ.

في صباحَ العيدِ أحضرَ الرجالُ طاولاتٍ مُتساويةِ الارتفاعاتِ ووُضِعَتْ بجانبِ بعضِها، ثُمَّ زُيِّنَتْ بغطاءٍ جميلٍ حتَّى أصبحتْ كأنَّها طاولةٌ كبيرةٌ، وقبلَ الظهرِ أحضرَتْ النساءُ ما أعدَدْنَ من الطعامِ والشرابِ ورُتِّبَ فوقَ الطاولةِ.

كان العمدةُ ومساعدُهُ يقفانِ على المِنَصَّةِ الرئيسةِ في الساحةِ في مُقابلِ الجمهورِ، حيثُ وقفَ العمدةُ خطيباً وقالَ لهم: أيَّتُها السيداتُ... أيُّها السادَةُ.

أُرحِّبُ بكم في أوَّلِ عيدٍ لي بينكم، وأُهنِّئُكم جميعاً بهذا اليوم الجميلِ مُتمنِّياً لكم أيَّاماً سعيدةً وحياةً طيبةً كريمةً، كمَا أشكرُكمَ

على تعاونِكُم الفريدِ وعلى المُسامحةِ والحبِّ الذي نمَا بينَنا.

قال العمدةُ: من فضلِ اللهِ علينا جميعاً أنَّنا مُحافظونَ ومُتديِّنُون ونهتمُّ كثيراً بأمورِ الدينِ والتعاونِ؛ لذلكَ أزُفُّ لكم البشرَى بأنَّني قرَّرْتُ، بناءَ كنيسةٍ لنا؛ لنصليَ فيها أيَّامَ الأحدِ والأعيادِ، ولنُحيِيَ فيها احتفالاتِ الزَّواجَ...

صاحَ الجميعُ بفرحةٍ غامرةٍ:

مَرْحَى.... مَرْحَى، إنَّها فكرةٌ جيدةٌ أيُّها العمدةُ الرائعُ!

قال العمدة:

إذاً أطلبُ من اللجنةِ الاستشاريَّةِ الاجتماعَ صباحَ الغدِ لبحثِ هذهِ الفكرةِ والترتيبِ لها، وسأبعَثُ أحدَ رجالي إلى صديقٍ لي وهو رجلُ دينٍ رائعٍ ليأتيَ وينضمَّ إلينا؛ ليقومَ بالوعظِ والإرشادِ، ثُمَّ تابعَ العمدةُ قائلاً:

والآنَ ليتمنَّ الجميعُ أمنيتَهُ، ولْنَدْعُ اللهَ أنْ يستجيبَ لنا، ويُحقِّقَ لنا أحلامَنَا.

ثُمَّ قالَ الجميعُ: آمين.

وقفَ مُساعدُ العمدةِ كوفي وقال:

ليصْطَفّ الرجالُ أوَّلاً ثُمَّ النساءُ ثُمَّ الأطفالُ، ولْيتَفَضَّلُوا بالسَّلامِ على العمدةِ مُهنِّئينَ بالعيدِ السعيدِ.

بعدَ أنْ صافحَهُ أبناءُ البلدةِ قالَ العمدةُ:

لنبدأْ الآنَ أيُّها السادةُ بتناوُلِ حلوَى العيدِ وطعامِهِ، ولْنستَمْتِعْ بهذَا اليومِ الرائعِ.

بعدَ أنْ انتَهى الجميعُ من الأكلِ والشرْبِ قالَ العمدةُ:

ماذا تنتظرونَ؟ ليبدأْ الجميعُ بالرقصِ والغناءِ والاستمتاعِ بعيداً عن جوِّ العملِ والبيتِ؛ هذا يومُ عيدٍ... يومُ فرحٍ وسرورٍ.

كانتْ الساحةُ مَسرَحاً جميلاً لرقصَاتٍ رائعةٍ ومَقطوعاتٍ مُوسيقيَّةٍ جميلةٍ وأُغنيَّاتٍ جماعيةٍ وفرديَّةٍ استمرَّتْ حتَّى الغروبِ، ثُمَّ أخذَ كلُّ واحدٍ ما لَهُ من أغراضٍ وعادَ الجميعُ لبيوتِهم وهم يَتحدَّثُون عن العمدةِ الذي يَكشفُ لهم كلَّ يومٍ عن شيءٍ جديدٍ ومُمتعٍ.

هكذا أخذتْ بلدةُ (نيوفلج) نِظاماً خاصّاً بها بعدَ أنْ كانتْ عائلاتٍ مُتفرِّقَةٍ ومُتشاكِسَةٍ، إلّا أنَّ همّاً واحداً بقيَ يُخيِّمُ عليها وعلى العمدةِ خاصَّةً وهوَ إيجادُ فُرَصِ عملٍ مُناسبةٍ للشبابِ والقضاءُ على الفقرِ، ولمْ يُوَفَّقْ المجلسُ الاستشاريُّ للبلدةِ في حلِّ هذه المشكلةِ، بالرغمِ من الاقتراحاتِ الكثيرةِ والاجتماعاتِ المُتعدِّدَةِ التي عُقِدَتْ لهذا الغَرضِ، وبقيَ القضاءُ على الفقرِ حاجِزاً يُقلِقُ العمدةَ والبلدةَ كلَّها.

كانتْ البطالةُ مصدرَ قلقٍ للجميعِ، وكانَ الدكتورُ سكوتي يُعاني كغيرِهِ من أصحابِ الأعمالِ والمِهَنِ من عدمِ دفعِ مُعظمِ الزبائنِ من المرضى الأجرَ له.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

مـن جديـدٍ وفي غُرفـةِ التحقيـقِ والرجـلُ مـا زالَ حزينـاً علـى فِـراقِ زوجتِـهِ وبلدَتِـهِ وتذكُّـرَ يـومَ ودَاعِهـم.

قـال المُحقـقُ: عندمـا كنـتَ في كوكـبِ سِيراتا هـلْ تذكَّـرْتَ عائلتَـكَ أعـني زوجَتَـك أو ابنتَـكَ؟

قال الرجلُ: نعم سيدي، كنتُ أفكِّرُ فيهم ليلَ نهارَ.

نظـرَ الرجـلُ إلى جهـازِ تلفـازٍ فـوقَ طاولـةٍ في زاويـةِ القاعـةِ فقـامَ مـن مكانِـهِ، وتوجَّـهَ إليـهِ وأَخَـذَ يتَلَمَّسُـهُ، لحـقَ بـه المُحقـقُ وسـألَهُ: هـلْ تُريـدُ أنْ تـرَى هـذا الجهـازَ؟

قالَ الرجلُ: نعم سيدي، ربَّمَا وجدْتُ زوجتي وعائلَتي فيه.

ضحـكَ الرجـالُ الموجـودون في القاعـةِ في حـينِ شَـغَّلَ المُحقـقُ جهـازَ التلفـازِ وراقـبَ جـو باهتمـامٍ مـا يجـرِي علـى شاشَـتِهِ، قـالَ المحقـقُ: عمَّـا تبحـثُ يـا جـو؟

قـالَ الرجـلُ: في كوكـبِ سيراتا، شـاهدْتُ واحـداً مثـلَ هـذا، لكنَّـه ضخْـمٌ جِـدّاً، رأيـتُ فيـه بلدَتـي هـذهِ وابنَـتي وهـيَ تعمـلُ في المزرعـةِ، ورأيـتُ أصدقائـي وهـم يعملـونَ عنـدَ الفـارسِ.

لم يكترثْ المحققُ لكلامِ الرجلِ.

قـال الرجـلُ: بينمَـا كنـتُ في المَشـفى بعـد شـهورٍ من سَـفَرِي شـعرْتُ بـأنَّ زوجـتي حزينـةٌ وابنـتي تتـألَّمُ فأخـذْتُ أبكـي تلـكَ الليلـةَ علـى حالِهـم وبُعـدِي عنهُـم وأنَـا عاجـزٌ عـن مُسـاعدَتِهم، وفي منامِـي رأيـتُ

ابنتي سارةَ تشْكُو لي حالَها، وتحدَّثْتُ معها طَويلاً ووعدْتُها بأنِّي سأعودُ إليهم قريباً.

جاءَ تقريرُ البلديَّةِ يؤكِّدُ بأنَّ قطعةَ الأرضِ مِلكٌ لوالدِ سوزي، آلتْ إليهِ بالوراثَةِ، وعندما واجهَ المحقّقُ الرجلَ بما جاءَ في التقريرِ صاحَ غاضِباً:

هذهِ خُدعةٌ كبيرةٌ، كلُّ شيءٍ هُنا تَغَيَّرَ، ومِنْ السهلِ جِدّاً أنْ تَدَّعوا بأنَّ هذه الأرضَ ليستْ لي.

كانتْ سوزي تحملُ في حقيبَتِها سَنَدَ تسجيلٍ لتلكَ القطعةِ باسمِ والدِها، وعندمَا واجهتْ الرجلَ بهِ قالَ مُستغرِباً: ما هذا؟

قالتْ سوزي: إنَّه سَنَدُ تسجيلٍ يُثبِتُ بأنَّ هذه الأرضَ ملكٌ لأبي.

قالَ الرجلُ ساخِراً: هذا ليسَ صَعباً الحصولُ عليهِ، وليسَ صعْباً على أمثالِكم الادِّعَاءُ بأنَّ هذهِ البلدَةَ كلَّها لكُم.

قال المحقّقُ: يا جو هذهِ وثيقةٌ رسميَّةٌ وغيرُ مزوَّرَةٍ وهيَ تحملُ خاتَمَ الدائرةِ.

قال الرجلُ: أيُّ دائرةٍ سيدي؟

قال المحقّقُ: دائرةُ الأراضي المسؤولةُ عن ذلك.

قال الرجلُ: ولِمَنْ هذهِ الدائرةُ؟

أليسَتْ لكُم؟

ومَنْ يعملُ بها؟

أليسَ أنتُم؟

تفعلونَ ما يحلُو لكُم، وتقولون ما تريدون؛ لأنَّه لا أحدَ يستطيعُ أنْ يقولَ لكُم لا، ولأنَّكم ببسَاطةٍ تجدونَ مَنْ يقِفُ إلى جانبِكُم ويدعمُكم، ومن السهْلِ جِدّاً عليكم أنْ تتحكَّمُوا برجلٍ مِثلي، ولكنْ لا، سأسترجعُ أرضي ولو كنتُ في زِنزانَتِكم وتحتَ حِراسَتِكم.

أُعيدَ الرجلُ إلى غُرفةِ الحجزِ، وهالَهُ سُخريَّةُ الرجالِ من حولِهِ، وكانَ الرجلُ غاضِباً جدّاً وهو يقبَعُ وحيداً في غرفةِ الحجزِ، يكادُ يُجَنُّ أو ينفجرُ غيظاً وسُخْطاً بعدَما تأكَّدَ أنَّ هؤلاءِ الرجالَ يريدون السيطرةَ على أرضِه بالقوَّةِ ولديهم كلُّ الوسائلِ التي تمكِّنُهم من ذلك.

كانَ يُخَيَّل للرجلِ صورةُ تلكَ الورقةِ التي كانتْ مع سوزي ماثِلَةً أمامَ عينيهِ وهيَ تُحلِّقُ في سماءِ الغرفةِ، كانَ يتمنَّى لو أنَّ ذلك حقيقةٌ أمامَه لمَزَّقَها بيديهِ وأسنانِهِ وهيَ تلوحُ له في الأفقِ، كانَ يُراقبُها باهتمام بالغ وخُيِّلَ إليه أنَّ تلك الورقةَ أخذتْ تهوي إلى الأرضِ، كمَا أرادَ لهَا أنْ تَسقطَ وهو يتأمَّلُها بغضبٍ ويرَى نفسَه يدوسُها بأقدامِهِ.

وفجأةً ابتسمَ الرجلُ وهوَ يرَى أنَّ هناكَ ورقةً قادمةً من السماءِ، وأنَّ زوجتَه ليزا تحملُها بيدِها وهيَ تهوِي نحوَهُ ببطءٍ شديدٍ وكأنَّهُ يسمعُ صوتَها.

وهي تقولُ: جاءَ الفرجُ يا جو، لديَّ الإجابَةُ

ستعودُ لكَ أرضُك، كانتْ الورقةُ تقتربُ رُويداً رُويداً، حتى أصبحتْ أمامَ عينيهِ وفي مُتناوَلِ يَدِهِ، وإذا بزوجتِهِ تُشيرُ إلى زَاويَةٍ يعرفُها جيِّداً بداخلِ بيتِه وفي حُجْرَةِ منامِهِ.

كانتْ الورقةُ قديمةٌ جِدّاً فتأمَّلَها، إنَّها تُبَشِّرُ بخير، وقالَ في نفسِهِ: لقدْ رأيتُ هذهِ الورقةَ من قبلُ، ولكنْ أينَ يا تُرَى؟

ما زالتْ الورقةُ أمام عينيهِ، إنَّه يسمعُ صوتَها، إنَّها تقولُ له: تذكَّرْ يا جو، لا تنسَ أرضَكَ أبداً، وابتَسَمَ جو وشاهدَ العمدةَ نورمان أمامَهُ والورقةُ بيده، كانَ ثَمَّةَ حَشْدٌ كبيرٌ من النَّاسِ وزوجتُهُ عندَ العمدةِ يُسلِّمُها تلكَ الورقةَ.

وابتسمَ من جديدٍ وأخذَ يرقصُ ويضحكُ، ثُمَّ وقفَ وأمسكَ بقضبانِ الحديدِ... قضبانَ الزنزانةِ وصاحَ... وصرخَ بأعلى صوتِهِ:

أيُّها الشرطيُّ، أيُّها الشرطيُّ، أيُّها الشرطيُّ...

جاءه الشرطيُّ ووقفَ أمامَهُ ساخِراً وقالَ له:

ماذا تريدُ أيُّها الرجلُ؟

قالَ الرجلُ: أريدُ المُحققَ حالاً... حالاً.

قال الشرطيُّ: ليسَ مَوجوداً.

وانصرفَ الشرطيُّ وهو يضحكُ بملءِ فِيهِ، وصاحَ الرجلُ من جديدٍ:

إنَّه أمرٌ هامٌّ... هامٌّ جِدّاً.

عادَ الرجلُ يجلسُ في زاويةِ الزنزانةِ يحدِّثُ نفسَهُ: سيضحكون عليَّ بتلكَ الورقةِ، لديَّ ورقةٌ مثلُها الآنَ وأثْبَتَ منها، إنَّها من صديقي العمدةُ، وستُثبتُ بأنَّ تلكَ الأرضَ هيَ أرضِي.

ثُمَّ قالَ: من الصعبِ أنْ أستعيدَ أرضي وهُويَّتي إلَّا إذَا عادتْ لي عائلتي؛ لأنَّ قُوَّتي تَكْمُنُ في وجودي بينهم، عليَّ أنْ أجدَهم، يجبُ أنْ نتَّحدَ.

إنَّ الأرضَ التي قالَ المتهمُ بأنَّها ملكٌ له والعاصفةَ التي أثارتَها سوزي ضِدَّهُ ذلك اليوم جعلتْ المتهمَ يعيشُ في دُوَّامةٍ لا نهايةَ لها، وأيقنَ بأنَّه وحيدٌ في تلكَ المعركةِ، حتَّى سوزي التي شعرَ يومًا أنَّها تهتمُّ بهِ وتُصدِّقُهُ وتقفُ إلى جانبِهِ أصبحتْ الآنَ ضدَّهُ تماماً وتحاولُ أنْ تسرقَ أرضَهُ وتُراثَهُ، وبذلكَ حكمتْ عليه بالتعاسةِ والشقاءِ، وكأنَّها تصبُّ الزيتَ على النارِ بادِّعائِها الباطلِ أنَّ الأرضَ ملكٌ لوالدِها، أصبحتْ سوزي بالنسبةِ له كالنقيبِ آدمَ والأعداءِ الآخرين الذين يُريدون الإيقاعَ به.

انتابتْهُ أشجانٌ كثيرةٌ، وغمرتْهُ نفحَاتٌ من القسوةِ التي تنتابُ البريءَ في قفصِ الاتِّهام، جلسَ على المَقعدِ المُجاورِ للسريرِ صامتًا كصنم، وسيطَرَ عليه الذُّهولُ، وسادَ قلبَه شعورٌ قويٌّ غامضٌ، ففكَّرَ في الجرائمِ التي اتُّهِمَ بها ظلمًا والتي ربَّمَا تُؤدي به إلى حبلِ المشنقةِ، كانَ حَدسُ المتهمِ يُنبئُهُ بأنَّ عليه العثورُ على العمدةِ نورمان، فهوَ الشخصُ الوحيدُ الموثوقُ به، هو الذي يستطيعُ إخراجهُ من مِحنتِهِ سالماً، تذكَّرَ العمدةَ ومَحاسنَهُ وكرَمَهُ وغرقَ في بحرِ ذكرياتِهِ.

السفر مع الزعيم ١٨٦٤٩م

في أحدِ أيَّام الربيعِ وفي وقتِ الظهيرةِ والشمسُ في كبدِ السماءِ تُرسلُ بأشعَّتِهاَ الدافئةِ الحنونَةِ في كلِّ اتجاهٍ وصلَ البلدةَ رجلٌ يمتطي حِصاناً أسودَ جميلاً، وخلفَهُ فارسان مُسلَّحان يُرافقانِهِ، كانَ كلُّ فارسٍ في عَرَبةٍ تجرُّها الخيولُ؛ لتنقلَ العمالَ إلى المزرعةِ

كان المقهى كالعادةِ يَعُجُّ بالزبائنِ في ذلك الوقتِ ككلِّ يومٍ، التقَى الفارسُ برجلٍ في الشارعِ فقالَ له:

أَلَا يُوجدُ في هذه البلدةِ مقْهَى سيدي؟

قال الرجلُ: بلى، إنَّهُ على بُعْدِ أمتارٍ من هنا؛ تابعْ السيرَ إلى الأمامِ وستجدُهُ أمامَكَ، فصوتُ الرجالِ في المَقْهَى يملأُ الشارعَ.

قال الرجلُ: شكراً لك أيُّها السيدُ.

تابعَ الرجلُ ومُرافقوه السيرَ إلى المَقْهَى حيثُ ترجَّلُوا عن خيولِهم، ودخلُوا المَقْهَى تحتَ نظراتِ الرجالِ واستغرابِهم، تقدَّمَ فيليبُ صاحبُ المَقهى ورحَّبَ بالرجلِ ورفيقيه وأجلَسَهم على طاولةٍ جانبيَّةٍ فيما هدأتْ زوبعَةُ الرجالِ المُعتادَةِ.

قال الرجلُ: قهوةً ساخنةٌ لو سمحتَ.

قال فيليبُ: في الحالِ سيدي.

أسرعَ فيليبُ وأحضرَ ثلاثةَ أكوابٍ من القهوةِ وكأسِ ماءٍ باردٍ وقدَّمَها لهم، وهو ينتظرُ أنْ يُعطيَهُ الفارسُ ثمنَها فوْراً على غيرِ ما اعتادَهُ من رُوَّادِ المَقهى.

قال الرجلُ: ما اسمُ هذه البلدةِ أيُّها السيدُ؟

قال فيليبُ: اسمُها (نيوفلج) يا سيدي.

قال الرجلُ: لمْ أسمعْ بها من قبلُ.

قال فيليب: نعم، إنَّها بلدةٌ جديدةٌ، أُنشِئَتْ بعد نشوبِ الحربِ، والجميعُ هنا ينتظرُ نهايتَها ليعودَ إلى بلدِه.

قال الرجل: إذنْ ستنتظرونَ طَويلاً قبلَ أنْ يحدُثَ ذلكَ.

قال فيليبُ: هذا مُتوقَّعٌ سيدي.

قال الرجلُ: هلْ يُوجَدُ هنا فندقٌ أو نُزُلٌ لنرتاحَ فيه؟

قال فيليبُ: لا يا سيدي... ولكن بإمكانكم التوجُّهُ إلى العمدةِ، وستجدونَ لديه كلُّ ما تُريدون.

قال الرجلُ: هلَّا تكرَّمْتَ وأخذْتَنَا إليه؟

قال فيليبُ: بكلِّ سرورٍ سيدي....

طلبَ فيليبُ من جو اصطحابَ الفارسِ ومَنْ معَهُ إلى العمدةِ.

قال الرجلُ: شكراً لكَ أيُّها السيدُ.

تركَ الرجلُ مَبلغاً من المالِ على الطاولةِ، دُهِشَ فيليبُ لكَرَمِهِ، المبلغُ يُغَطِّي ثَمَنَ كلِّ ما تناولَهُ الرجالُ في ذلكَ اليومِ.

استقبلَ العمدةُ ضيوفَهُ ورحَّبَ بهم أجملَ ترحيبٍ، قدَّمَ لهم الطعامَ والشرابَ ثُمَّ سألَهم عن حاجَتِهِم.

قال الرجل:

سيدي، عندي مزارعُ على مَسيرةِ خمسةِ أيَّام إلى الجنوبِ من هُنَا، حيثُ وصلْتُ إلى بلدتِكُم عن طريقِ الصدفَةِ، وجئتُ أبحثُ عن عمالٍ؛ ليعمَلُوا معي عاماً كامِلاً.

قال العمدةُ: ألا يُوجدُ لديكَ عُمَّالٌ الآنَ؟

قال الرجلُ: عندي عشرون رجلاً، تنتهي خِدْمَتُهم بعدَ أيَّامٍ.

قال العمدة: عفواً أيُّها الرجلُ، أَلَا يُوجَدُ في بلدتِكُم عُمَّالٌ؟

قال الرجلُ: مزارعي يا سيدي بعيدةٌ عن البلدةِ، وأنَا أحِبُّ أنْ أستخدِمَ عمَّالاً من أماكنَ أخرى؛ لأتعرَّفَ على أُنَاسٍ جددٍ وعلى تقاليدِهم وعاداتِهم.

قال العمدةُ: كم رجُلاً تريدُ؟

قال الرجلُ: أريدُ عِشرينَ رجُلاً، وسأدفَعُ لهم أجراً جيِّداً.

كان المبلغُ الذي سيدفعُهُ الفارسُ مُغرياً، ويُعادلُ ثلاثةَ أضعافِ ما يأخذُهُ العاملُ في البلدةِ، ولَّما حسبَ العمدةُ أُجرَةَ العشرين رجلاً في عامٍ كاملٍ وجدَهُ مَبلغاً كبيراً فزادَ اهتمامُه بالأمرِ.

قال العمدةُ: كيفَ سيعيشُ الرجالُ؟

أقصدُ مَنْ سيُقدِّمُ لهم الأكلَ والشربَ والمنامَ؟

قال الرجلُ: كلُّ ذلكَ على حِسابي سيدي، وهمْ لا يُنفقُونَ شيئاً من أُجرَتِهم أبَداً، فعندِي مكانٌ للنومِ وسأُقَدِّمُ لهم الطعامَ والشرابَ.

قال العمدةُ: خُذُوا راحتَكم يا رجالُ، واعتبِرُوا هذا بيتَكُم، غَداً سننظُرُ في الأمرِ.

طلبَ العمدةُ من اللجنةِ الاستشاريَّةِ الاجتماعَ بهِ في بيتِهِ بعيداً عن الرجلِ للبحثِ في طلبِهِ وقالَ لهم:

أيُّها السادةُ، جاءَ هذا الرجلُ لينقذَ البلدةَ من الفقرِ الذي تُعانيهِ، ويُحقِّقُ لنا حُلماً طَالَما تمنَّيْنَاهُ، فمَا يأخُذُهُ عشرونَ رجُلاً في

عـام يعتـبرُ مَبلغـاً كبـيراً، نسـتطيعُ أنْ نُقيـمَ بـهِ مصانـعَ صغـيرةً سـتُوفِّرُ العمـلَ للجميـعِ، والعـامُ ليـسَ مُـدَّةً طويلـةً يـا سـادةُ وسـيمضِي بسـرعةٍ.

بعـدَ نقـاشٍ وافـقَ الجميـعُ علـى إرسـالِ الرجـالِ مـع الرجـلِ، وطلبَ العمـدةُ مـن مُسـاعِدِهِ إبـلاغَ جميـعَ الرجـالِ المُتواجديـن في مِثْـلِ هـذا الوقـتِ في المَقهـى بانتظـارِ العمـدةِ لأمـرٍ هـامٍّ.

وقـفَ العمـدةُ مُخاطِبًـا الرجـالَ وأبلَغَهـم بطلـبِ الفـارسِ ومـا قـرَّرَهُ المجلـس الاستشـاريُّ، وشـرَحَ لهـم منافـعَ هـذه الرحلـةِ الهامَّـةِ للبلـدةِ، وطلـبَ مـن الذيـن يسـتطيعون العمـلَ تسـجيلَ أسمائِهـم لـدَى مُسـاعِدِهِ، وأنَّ عليهـم التواجُـدُ في سـاحةِ البلديَّـةِ صبـاحَ الغـدِ.

في اليـوم التالـي علـمَ العمـدةُ أنَّ تسـعةَ عشـرَ رجـلاً فقـط سـجَّلُوا أسماءَهـم للعمـل، ولاحـظَ أنَّ القائمَـةَ لا تَضُـمُّ اسـم جـو، تَذَكَّـرَ كـوفي مُسـاعدُ العمـدةِ أنَّ جـو لا عِلْـمَ لـهُ بالأمـرِ ولم يَحضُـرْ اجتمـاعَ الأمـسِ، فأرسـلَ في طلبِـهِ وأخـبَرَهُ، بوجـودِ فرصـةٍ ذهبيَّـةٍ لـه؛ ليتخلَّـصَ مـن العمـلِ لـدى أخيـه في المزرعـةِ.

لم يـتردَّدْ جـو في الموافقـةِ علـى العمـلِ مـع الرجـالِ، كانَ فَرِحـاً جـدّاً بهـذه الفرصـةِ الـتي سـتُغيِّرُ مـن وَضعِـهِ المـاديِّ وربَّمَـا الاجتماعـيّ، ويُحَقِّـق حُلمَـهُ وحُلْـمَ ابنتِـهِ سـارةَ.

اسـتعرضَ الرجـلُ صاحـبُ المزرعـةِ الرجـال العشـرين، واعـترضَ علـى جـو، همـسَ في أُذُنِ العمـدةِ: هـذا الرجـلُ لا يـروقُ لـي.

لكـنَّ العمـدةَ أصـرَّ علـى أنْ يكـونَ جـو أوَّلُهـم ووافـقَ الرجـلُ علـى مَضَـضٍ، كتـبَ العمـدةُ اتفاقيَّـةً مـع الرجـلِ وحـدَّدَ فيهـا كلَّ الشـروطِ المطلوبـةِ، وبعـدَ التوقيـعِ عليهـا أعطـى الرجـلَ نسـخةً منهـا واحتفـظَ

بنسخةٍ في خِزانةِ البلديَّةِ، وطلبَ من الرجالِ الاستعدادَ صباحَ اليوم التالي للسفرِ إلى مَزارِعِ الرجلِ، وشجَّعَهم على تجهيزِ الطعامِ والماءِ ما يكفِي لمدةِ خمسةَ أيامٍ مسافةِ الطريقِ.

أعطى الرجلُ مَبلغاً من المالِ تحتَ الحسابِ لكلِّ رجلٍ من الرجالِ تُساعدُهم في تجهيزِ أنفسِهم وعائلاتِهم وأعطاهم عُنوانَ مَزارِعِهِ وقال لهم:

أيُّها الرجالُ، سنسافرُ غداً في قافلَةٍ واحدةٍ، لكنْ إذَا حدَثَ وأنْ افترقْنَا لأيِّ سبَبٍ من الأسبابِ فالعنوانُ لديكم، تستطيعون الوصولَ إليه بسهولةٍ.

كانَ الفرحُ الذي عَمَّ البلدةَ وخاصَّةً العمدةَ لا يُوصَفُ، وتمنَّوا أنْ تمضيَ هذه السنةُ بسُرعةٍ؛ ليعودوا إلى البلدةِ، وليقوموا بعملِ المشاريعِ التي تحتاجُها البلدةُ والتي ستُوفِّرُ فرصَ عملٍ لهم.

كانَ جو وزوجَتُهُ من أكثرِ الناسِ سعادةً بهذهِ الفرصةِ التي طالَمَا تمنَّيَاها وانتظراها؛ ليخرُجَ من سجنِ أخيه جون صاحبِ المزرعةِ التي يديرُها لحسابِهِ ولا ينالُهُ من أرباحِها إلَّا اليسيرُ، بالرغم من فرحةِ جو إلَّا أنَّه حزنَ حُزناً شديدًا على فِراقِ زوجتِهِ وابنتِهِ؛ لأنَّ سارةَ تعرَّضَتْ لتحرُّشِ الشقيِّ ستيف بها مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، وخشيَ عليها من أنْ تتَعرَّضَ للمُضايقَةِ أثناءَ غيابِهِ؛ لذلكَ أوصَى العمدةَ بها وبعائلتِهِ، طلبَ جو من ابنتِهِ سارةَ العنايةَ بأمِّها وبإخوتِها وبالعملِ بالمزرعةِ لحينِ عودتِهِ وقالَ لها:

أنَا أعتمدُ عليكِ يا ابنتي؛ فأنتِ الآن المسؤولةُ عن العائلةِ والمزرعةِ، وأرجو أنْ تكوني قويَّةً وشجاعةً حتَّى عودتي، بعد ذلك سنقومُ بعملِ مشروعٍ خاصٍّ بنا بعيداً عن المزرعةِ ومشاكلِها بَنَى

جـو قُصـوراً في الهـواءِ وأحلامـاً ورديَّـةً جميلـةً؛ لتعيـشَ عليهـا ابنتُـهُ وزوجتُـهُ حتَّـى عودتِـهِ مـن السـفرِ.

عـَيَّن العمـدةُ جـاك مَسـؤولاً عـن الرجـالِ طِيلـةَ مُـدَّةِ غيابِهـم عـن أرضِ الوطـنِ، وأعطـاهُ نسـخةً مـن الاتِّفاقيَّـةِ، اجتمـعَ الأهالي في سـاحةِ البلـدةِ لـوَداعِ الرجـالِ، وكانـتْ تلـكَ الرحلـةُ حالـةً فريـدةً وغريبـةً على أهالـي البلـدَةِ، صعـدَ الرجـالُ العربـاتِ بعـدَ وَداعِ الأهـلِ والأحبَّـةِ وكانَ في مُقدِّمَتِهـم الرجـلُ صاحـبُ المزرعـةِ وفي مؤخِّـرَةِ القافلـةِ الحارسـان، والجميـعُ علـى أُهبَـةِ الاسـتعدادِ للانطـلاقِ.

كانَ الفـرحُ الـذي سـادَ البلـدةَ بالأمـسِ قـدْ تَلاشَـى، وخيَّـمَ عليهـا جـوٌّ مـن الحـزنِ الكبـيرِ وهـمْ يُودِّعـونَ رجالهـم إلى رحلـةٍ مَجهولَـةٍ وطَويلـةٍ، فيمَـا أخـذَ الرجـالَ يُنشـدونَ أغنيـةَ الـوداعِ بصـوتٍ حزيـنٍ بكـتْ لهـا النسـاءُ والصغـارُ وحتَّـى الرجـالُ، وأنشـدَوا قائلـين:

لا تَحزنُوا

لا تَحزنوا، لا، لا لا تَحزنوا

فنحنُ مُسافرون للعملِ

ونحنُ جنودٌ، سنُجدِّدُ الأملَ

لا تَحزنوا لا تَحزنوا

سوف نعودُ للوطنِ

سنبني مصانعَ

ونعمِّرُ مزارعَ

سنربِّي أجيالاً تقودُ الوطنَ

لا تَحزنوا، لا، لا لا تَحزنوا

حتْماً، سنعودُ

ونبني، ونقودُ

فنحنُ فرسانٌ وجنودُ

وسنجدِّدُ الأملَ

لا تَحزنوا، لا، لا لا تَحزنوا

مُسافرونَ للعملِ

وسنعودُ بالأموالِ ليزدهرَ الوطنُ

لا تَحزنوا، لا، لا لا تَحزنوا

كانتْ القافلةُ تبتعدُ عن الأنظارِ وصوتُها الحزينُ يختفي شيئاً فشيئاً، وما زالَ الأهلُ يحدِّقُون نحوَها بعيونٍ حزينةٍ ودموعٍ كثيرةٍ، حتَّى خشيَ العمدةُ على الجميعِ فقالَ لهم بصوتٍ مُرتفعٍ:

أيُّها الإخوةُ..... أيَّتُها السيداتُ

نحنُ جميعاً نحزنُ ونتألَّمُ لفِراقِ الرجالِ...

وهم أيضاً أكثرُ حُزناً مِنَّا ولكنْ علينا أنْ نُدركَ أنَّ لكلِّ شيءٍ ثمَناً، وأنَّ ازدهارَ البلدةِ ورُقيَّهَا يَتَطلَّبُ منَّا التضحيةَ والصبرَ، واعلَمُوا أنَّ الأيَّامَ ستمرُّ مُسرعةً، وأنَا على يقينٍ أنَّنا سنقفُ هُنَا وفي هذه الساحةِ قريباً لنستقبلَ الرجالَ عند عودتِهم سالمين،

وسنحتفلُ في ذلك اليوم؛ ليكونَ عيداً لنَا وبدايةً جديدةً لهذهِ البلدةِ التي ستشهَدُ تطَوُّراً كبيراً ينتهي بعدَهُ الفقرُ.

علينا جميعاً أنْ ننسَى الحزنَ الذي أراهُ في عيونِكُم، وأنْ نعيشَ على أملِ عودتِهم، وعلينَا التعاوُنَ حتَّى تنتهيَ هذهِ السنةُ على أحسنِ حالٍ، ولْنَعُدْ الآنَ إلى بيوتِنَا وأعمالِنَا؛ لأنَّ الحياةَ ستستَمِرُّ دونَ شكٍّ.

كانتْ لخُطبَةِ العمدةِ أثرٌ بالِغٌ في نفوسِ الجميع، وغادروا الساحةَ إلى أعمالِهم وبيوتِهم، ثُمَّ جمعَ العمدةُ المجلسَ الاستشاريَّ وبحثَ معهم وضعَ البلدةِ في غيابِ الرجالِ الذين تركُوا خلفَهم أعمالَهم وعائلاتِهم، وفي نهايةِ الاجتماعِ أُعِدَّتْ قائمةٌ بالعائلاتِ التي تحتاجُ للمساعدةِ، وأُعِدَّ برنامجٌ لتوزيعِ المُتطوِّعينَ بأُجرةٍ رمزيَّةٍ للقيامِ بمُساعدةِ تلكَ العائلاتِ، وكلِّفَ المَجلسُ المساعدَ كوفي بالإشرافِ على تنفيذِهِ.

بالقربِ من مَبنى البلديَّةِ أقامَ العمدةُ مَبنى الكنيسةِ وبجانبِها مَنزِلاً لصديقِهِ الأبِ حنَّا الذي سيرْعَى الكنيسةَ، وكانَ العمدةُ يدفعُ مبالغَ رمزيَّةً للرجالِ الذينَ يقومون بأعمالِ البناءِ وخِدمةِ البلديَّةِ والكنيسةِ، كمَا خَصَّصَتْ اللجنةُ مَدفناً للموتى بعيداً عن البلدةِ وذلكَ بعدَ أنْ تُوُفِّيَ أولُ رجلٍ مسنٍّ يسكُنُ البلدةَ، وقد شيَّعَهُ الكثيرون في موكبٍ مَهيبٍ ثُمَّ قامَ الجميعُ بالعزاءِ لعائلَتِهِ.

قبلَ أنْ تنطلِقَ القافلةُ أخبرَ الرجلُ صاحبُ المزرعةِ الرجالَ –والذي أطلقَ عليهِ الرجالُ الزعيمَ– بنظامٍ خاصٍّ خلالَ رِحلَةِ الذَّهابِ وقالَ لهم:

أيُّها الرجالُ، كما تعلمونَ نحنُ بحاجَةٍ لخمسةِ أيَّام حتَّى نصلَ إلى المزارعِ، وسيكونُ لنا وجبتانِ من الطعام، الأولى في الصباحَ قبلَ أنْ ننطلِقَ والأُخرى عندَ الغروبِ عندما نَخلُدُ للنوْمِ؛ وعليه فنحنُ

بحاجـةٍ إلى رجلـينِ في كلِّ وجبـةٍ لإعـدادِ الطعـام، وتعلمـونَ أيضًـا أنَّنا لا نسـتطيعُ النـومَ دونَ حِراسَـةٍ؛ فأنَـا بحاجـةٍ لرجَلـينِ منكُـم ليتناوبَـا مـع الحارسـين في الحِراسَـةِ الليليَّـةِ، فيحـرُسُ اثنـان في النصـفِ الأوَّلِ مـن الليـلِ واثنـان في النصـفِ الثانـي؛ لنكونَ بأمـانٍ من الوحـوشِ واللصوصِ.

قسَّـمَ الزعيـمُ الرجـالَ إلى مجموعـاتٍ وعـرَّفَ كلًّا منهـم دورَهُ في إعدادِ الطعـام والحِراسـةِ، وهكـذَا واصلَـتْ القافلـةُ رحلَتَهـا دونَ مَتاعِـبَ في جـوٍّ عائلـيٍّ وكأنَّهـم في رحلـةٍ ترفيهيَّـةٍ.

كانَ اليـومُ الثالـثُ مـن أجمـلِ الأيَّـام وأمْتَعِهـا، عندمَـا وصلـتْ القافلـةُ ظهـيرةَ ذلـكَ اليـوم إلى غابـةٍ جميلـةٍ شـاهدَ الرجـالُ غـزالاً كبـيراً يرْعَـى علـى مَسـافةٍ منهـم، فتـوزَّعَ الرجـالُ للإحاطـةِ بـهِ مـن كلِّ الاتجاهـاتِ، وبـدأتْ مُطارَدَتُـه مـن زاويـةٍ إلى أُخْـرَى، فكلَّمـا هـربَ إلى جِهَـةٍ مُعيَّنَـةٍ وجـدَ رجـلاً أمامَـهُ حتَّـى اسـتطاعَ أحـدُ الحُـرَّاسِ قتلَـهُ؛ فاسـتمتَعَ الرجـالُ بوجبَـةٍ دسِمَـةٍ مـن لحـم الغـزالِ المشـويِّ علـى لهيـبِ النـارِ وتحـتَ ظِـلالِ الأشـجارِ، ثُـمَّ واصلَـتْ القافلـةُ مَسـيرَها.

في المسـاءِ خيَّمُـوا لقضـاءِ ليلتِهـم في منطقـةٍ مُقفـرَةٍ لا نبـاتَ فيهـا ولا حيـوانَ، سُمِّيَـتْ فيمَـا بعـدُ (برمـودا)، بعـدَ تناوُلِهـم طعامِهـم تسـامَرُوا قَلِيـلاً بالنُّـكاتِ والمُغامـراتِ، ثُـمَّ استسـلَمُوا للنـوم، وبقـيَ أحـدُ الحُـرَّاسِ مـع جـو للحِراسَـةِ تلـكَ الليلـةَ، كانَ جـو يتحـدَّثُ مـع زميلِهِ ويستفْسِـرُ منـه عـن الأعمـالِ الـتي سـيقومُ بهـا في المزرعـةِ وعـن الحيـاةِ مـع الزعيـمِ؛ ليكـونَ مُسـتعدّاً للعمـلِ بعـدَ أيَّـامٍ قليلـةٍ.

بعـدَ سـاعتينِ مـن السـهَرِ ذهبَ الحـارسُ لقضـاءِ حاجَتِـهِ، أحبَّ جو الاطِّـلاعَ علـى الاتِّفاقيَّـةِ الـتي كتبَهـا العمـدةُ والموجـودةِ مـع جـاك الذي

كانَ مُستغرِقًا في النوم كباقي الرجالِ، مَدَّ جو يدَهُ إلى جيبِ جاك وأخرَجَ الورقةَ وأرادَ أنْ يقرأَها وإذَا بالحارسِ يدخُلُ فخبَّأَها في جيبِهِ.

أخبرَ جو زميلَهُ أنَّه سيذهبُ لقضاءِ حاجَتِهِ، كانَ الليلُ مُظلِماً وهادئاً والجميعُ مُستغرِقونَ في نومٍ عميقٍ، والحارسُ يجلسُ أمامَ شُعلَةٍ من النَّارِ وهوَ يُحَدِّقُ فيمنَ حولَهُ حتَّى بدأ النعاسُ يتسلَّلُ إلى عينيهِ؛ فغابَ عن الوجودِ واستسلَمَ للنومِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

دُهِشَ الجميعُ مِمَّا شاهدُوهُ من فِعْلِ ذلك المتهم ومِمَّا قالَهُ، وأثبَتَ بمَا لا يدْعُو للشكِّ أنَّه جو الذي عاشَ قبلَ مَائةٍ وخمسينَ عامًا، أثْبَتَ المتهمُ دائِماً أنَّهُ صادقٌ؛ فهوَ يتمتَّعُ بذاكرةٍ قويَّةٍ، لكنَّ سوزي التي أصيبَتْ بالدَّهْشَةِ أكثرَ من غيرِها، وأخبرَتْ المُحقَق أنَّ المتهَم بدأَ يظهرُ على حقيقتِهِ.

قالَ المحقِقُ: آنسةُ سوزي لم يَعُدْ هناكَ شكٌّ أنَّ هذا الرجلَ صادقٌ تماماً، وكلُّ الدلائلِ تُؤكِّدُ ذلك.

قالتْ سوزي: لكنَّ هذا مُستحيلٌ ولا يُصدَّقُ، وهذهِ الحكايَةُ عمرُها مائةٌ وخمسون عاماً على الأقلِّ كمَا تعلَمُ، وهذا الرجلُ ما زالَ شابّاً في العشريناتِ من عُمرِه.

قال المحقِقُ: هذا ما يُحيِّرُني حقاً، على كلِّ حالٍ ماذا لديكِ سوزي؟

قالتْ سوزي: – تُحدِّثُ نفسَها– مِلكيَّةُ الأرضِ... كيفَ لمْ تخطرُ ببالي تلكَ الفكرةُ؟ ماذا لو رجعْنَا إلى مَالِكِها الأصلي أوَّلِ مَنْ مَلَكَها من أجدادي؟ سأعرِضُ الفكْرَةَ على المحققِ؛ لنتأكَّدَ من الأمرِ، فهيَ فكرةٌ ستُميِّزُ للمحققِ صدقَ الرجلِ من كذبِهِ وخِداعِهِ، وعندَمَا قالتْ للمحققِ بأنَّ لديْها خُطَّةً:

قالتْ سوزي: علينَا مُراجعةُ ملكيةِ الأرضِ حسبَ الأوراقِ الرسميَّةِ ابتداءً من أوَّلِ مَنْ مَلَكَها إلى والدي.

قال المحققُ: فكرةٌ جيِّدَةٌ، سأطلُبُ من المسؤولينَ في الدائرةِ الآنَ أنْ يطَّلِعُوا على سِجِلِّها، هيَّا بِنَا إلى هناكَ.

عندمَا راجَعَ المحققُ وسوزي الملفَ الخاصَّ بتلكَ الأرضِ وَجَدَا أنَّ جو مارتن ويلسون أوَّلَ مَنْ مَلَكَها فِعْلاً، وأنَّها انتقلتْ منه إلى أبنائِهِ حتَّى وصلَتْ إلى والدِ سوزي، وهذا يَعني قَطْعاً أنَّ سوزي هيَ حفيدةُ جو، وأنَّ هذا الرجلَ ـ المتهمَ– هوَ جَدُّها الأوَّلُ، لكنَّ سوزي صاحتْ باستغرابٍ كبيرٍ وقالتْ:

هذا خيالٌ! إنَّهُ حُلْمٌ! إنَّهُ المُستحيلُ بعينِهِ، والديَّ أكبرُ منْهُ بكثيرٍ، كيفَ يُعقَلُ هذا؟ يدَّعِي هذا الرجلُ أنَّهُ جَدِّي، وجَدِّي لأبي ماتَ قبلَ أكثرَ من عشرِ سَنَوَاتٍ، أَذْكُرُ ذلكَ جيِّدًا، كانَ عُمري وقتَها أحدَ عشرَ عاماً، كيفَ يكونُ هذا الشابُّ جَدِّي الأوَّلَ؟!

غادرَ المحققُ وسوزي المكانَ وهيَ تُتمتِمُ وتُحدِّثُ نفسَها: أَيُعقَلُ هذا؟ إنَّهُ رجلٌ صادقٌ، لم يكذبْ أبَداً منذُ عرفْتُهُ، مع العلمِ أنَّ كلامَهُ بعيدٌ جِدّاً عن الواقعِ، ما الحكايَةُ؟

أينَ يكمُنُ لغزُ هذا الرجلِ؟

أخذتْ سوزي تهتَمُّ بالرجلِ أكثرَ من السَّابقِ، واستحوذَ على تفكيرِها ووقتِها، وأخذتْ تتقَرَّبُ منْهُ أكثرَ فأكثرَ، وشعرتْ بإحساسٍ جميلٍ كلَّمَا نظرَتْ إليه أوْ تحدَّثَتْ معهُ كأنَّه حبيبٌ أو صديقٌ مُقرَّبٌ، وكانتْ تُحدِّثُ نفسَها كلَّما خلتْ وحدَها: أحَقّاً هذا جَدِّي؟!

ربَّما كانَ والدُ أبِي!- مُبتسمَةً- يجبُ أنْ يُقابِلَ هذا الرجلُ والدي، فرُبَّمَا تعرَّفَ عليه.

ثُمَّ تُقهْقِهُ عاليًا فَرِحَةً وتُتابِعُ: جَدِّي ماتَ وأنَا طِفلةٌ وحضرْتُ جنازتَهُ، ما زِلْتُ أتخيَّلُ ملامِحَهُ أمامي، وهذا الرجلُ لا يُشبهُهُ أبداً، يا تُرَى ما حكايَتُكَ أيُّها الرجلُ؟

حتْماً سأعرِفُها، سأبحَثُ عن حلِّ لُغزِها، لكنَّ المنطقَ والعقلَ يؤكِّدَان أنَّ هذا من الخيالِ؛ لأنَّ عمرَهُ خمسةٌ وعشرون عاماً كمَا أكَّدَ الأطبَّاءُ، وأكَّدُوا أنَّهُ سام الطالبُ الجامعيُّ من مدينةِ (ترنتون).

كانتْ النقودُ التي عَثَرَ عليها الرجلُ تعودُ لتلكَ الحِقْبَةِ من الزمنِ، وكذلكَ الملابسُ التي يرتديها هيَ نفسُها ملابسُ ذلكَ الزمنِ، والمشكلةُ لدَى المُحقِقِ تكمُنُ في كيفيةِ عثورِ هذا الرجلِ على تلكَ النقودِ وكُلُّ الدلائلِ تُشيرُ بأنَّهُ من سكَّانِ بلدةِ (ترنتون) البعيدةِ جِدًّا!

استعانتْ اللجنةُ بخبراءَ نفسيين واجتماعيين، ووضَعوا أمامهم كلَّ ما حصَلوا عليه من معلوماتٍ وأدلَّةٍ تتعلَّقُ بالمتهمِ في مُحاولَةٍ للوصولِ إلى حقيقةِ أمرِه وحلِّ لُغزِهِ الذي حيَّرَهم، عَانى والدَا سام كثيراً من العذابِ والألَمِ لَما حصلَ لابْنِهم ومَا آلَ إليهِ حالُهُ، وكانتْ الأمُّ الأكثرَ عَذَاباً والأشَدَّ حُزناً، وكانتْ تتمنَّى لو بقيَ سام مَريضاً يُعالَجُ في المشفَى؛ لأنَّهما كانا يزورانِه ويطمئنَّانِ عليه كلَّ

يـوم، لكنَّهـا الآن لا تـرى إلَّا جَسَـداً يُشـبهُ جَسَـدَ ابنِهـا وعقـلاً غريبـاً، وفِكَـراً بَعيـداً كأنَّـه رجـلٌ آخـرُ؛ مِمَّـا زادَ سـوءَ حالتِهـا وسـوادَ حياتِهـا.

حـيّر هـذا الرجـلُ المحقـقَ ومَـنْ حولَـهُ وكلَّ مَـنْ يُتابِـعُ أمـرَهُ، وتعقَّـدَتْ الأمـورُ أمامَهـم وانقسَـمُوا علـى أنفسِـهم، فمنْهـم مَـنْ يُؤيِّـدُ الرجـلَ في كلامِـهِ؛ لأنَّـه دائِمـاً يُثبِـتُ ذلـكَ بشَـكْلٍ دامِـغٍ لا مجـالَ فيـه للشـكِّ، ومنهـم مَـنْ يقـولُ أنَّـهُ رجـلٌ مُخـادِعٌ وأنَّـه علِـمَ بتلكَ الأمـورِ من مصـادرَ غـيرَ معروفـةٍ، ومنهـم مَـنْ يقـولُ أنَّـه الطالـبُ الجامعـيُّ سـام.

طلـبَ المتهـمُ مـن المحقـقِ العـودةَ إلى قطعـةِ الأرضِ وقـال للمحقـقِ: سـأقدِّمُ لـكَ دليـلاً آخـرَ علـى أنَّ هـذهِ الأرضُ هـيَ أرضِـي.

قال المحققُ: وماذا سَتُقدِّمُ يا جو؟

قـال المتهـمُ: ورقـةً كتلـكَ الـتي مـع الفتـاةِ تُثبِـتُ أنَّهـا لـي، لقـدْ أعطَـى العمـدةُ نورمـان ورقـةً مثلَهـا لزوجـتي عندمَـا كنْـتُ مُسـافِرًا ودفنتُهـا في المنـزلِ.

لم يكنْ اسمُ العمدةِ غريباً، فالشارِعُ الرئيسيُّ في البلدةِ سُمِّيَ على اسمِهِ.

قـال المحقـقُ: أنَـا أعلَـمُ يـا جـو أنَّـكَ صـادقٌ، ولكنَّنـا نبحـثُ عـن إرهابـيٍّ هـاربٍ مـن السـجنِ، ولا نسـتطيعُ القبـضَ عليـهِ، إلَّا إذا اطمَـأنَّ بأنَّنـا نحتجـزُكَ، أرجـوكَ أنْ تتعـاونَ معَنـا في الأمـرِ.

اصطحـبَ المحقـقُ مُسـاعدَيهِ وتوجَّهـوا إلى أرضِ المتهـم، وفي الغرفـةِ أخـذَ يبحـثُ في زواياهـا حتَّـى عثَـرَ علـى ورقـةٍ باليَـةٍ تُؤكِّـدُ بـأنَّ رجـلاً يُدعَـى جـو يَملِـكُ تلـكَ القطعـةَ مـن الأرضِ ومُؤرَّخَـةً بتاريـخٍ يعـودُ لمائـةٍ وخمسـين عامًـا ماضيـةً، مِمَّـا زادَ في حـيرةِ المُحقـقِ وأعوانِـهِ.

في الطريق مع الزعيم ١٨٦٥

في الصباحَ وبعدَ أنْ أشرَقَتْ الشمسُ وشعرَ الرجالُ بأشعَّتِها الدافئةِ تحْنُو على وجُوهِهِمْ وتُدغْدِغُ وجَناتِهم، نهضَ الواحدُ تِلْوَ الآخرِ، وعندما رأى الزعيمُ أنَّ النَّارَ لا وُجودَ لها وأنَّ الجميعَ كانوا مُستغرقين في النوم غضبَ غضَباً شديدًا، وصاحَ بهم وأخذَ يُعنِّفُهم على إهمالِهم في الحَراسَةِ وما سيترتَّبُ عليه من موتٍ ونهبٍ وسلبٍ، وطلبَ الحارسَ المُكلَّفَ بالحِراسةِ في النصفِ الثاني من الليلةِ.

قال الزعيمُ: أينَ أنتَ يا ماركُ.

قالَ ماركُ: نعمُ سيدي، أنَا هنا.

قال الزعيمُ: كيفَ تنامُ، وتَتْرُكُنا فريسةً للحيواناتِ واللصوصِ؟ ... ماذا دهاكَ يا رجلُ؟

قال مارك: عفوًا سيدي، أنَا أُناوبُ في النصفِ الثاني من الليلِ.

قال الزعيمُ: نعم، أعلَمُ ذلكَ؛ لهذَا أسألُك.

قال مارك: لكنَّ سيدي, لم يوقظْني أحدٌ، وأنَا لم أستيقظْ.

قال الزعيمُ: كيفَ ذلك؟!

لماذا لم تُوقِظْهُ يا تود؟

قال تود: أنَا أعتذرُ سيدي.

لكنِّي، لم أشعرُ بنفسي، كيفَ غفوتُ وذهبتُ في النومِ؟

قال الزعيمُ: هذا استهتارُ بأرواحِنا.

كيفَ تنامان أنتُما الاثنان؟

أينَ زميلُك في الحراسَةِ؟

قال تود: إنَّهُ السيدُ جو.

قال الزعيمُ: جو، لم أرتَحْ له مُنذُ البدايةِ، ولا أدري كيفَ وافقتُ عليه؟

أينَ أنتَ يا جو؟

لم يُجِبْ أحدٌ.

أينَ جو يا رجالُ؟

لم يُجِبْ أحدٌ.

أصابَ الرجالَ الفزعُ والخوفُ، ونهضُوا جميعًا وهم يحملُون أسلحتَهُم، وأخذَ الرجالُ يُتمتِمُونَ ويستفسرون عمَّا جرَى لجو، وكيفَ حصلَ له ذلك؟

عمَّتْ الفوضَى ودبَّ الرعبُ في قلوبِهم، وتفَقَّدَ كلٌّ منهم الآخرَ خوفًا من أنْ يكونَ هناكَ مَنْ اختفَى غيرَ جو، ثُمَّ صاحَ الزعيمُ بهم حتَّى هدأَتْ الأصواتُ، ولم تسمعْ إلَّا همسًا، لكنْ ما زالتْ عيونُهم تجولُ في كلِّ مكانٍ حولَهم.

قال الزعيمُ: أنتَ يا تود، ألمْ يسهرُ معكَ جو منذُ البدايةِ؟

قال تود: نعم سيدي كانَ معي....

تحدَّثْنا معًا أكثرَ من ساعتينِ، ثُمَّ ذهبَ لقضاءِ حاجتِهِ ويبدُو أنَّه تأخَّرَ، ولم أشعُرْ بنفسِي كيفَ استسلمتْ للنومِ!

قال الزعيمُ: هذا يعني أنَّه لم يَعُدْ.

اندَهَشَ الجميعُ مِمَّا سمعُوا...

تسلَّلَ الخوفُ والرعبُ إلى قلوبِهم وعندَما رأَى الزعيمُ علاماتٍ غيرَ مُريحةٍ على وجوهِ الرجالِ قالَ لهم:

ليذهبْ كلُّ خمسةِ رجالٍ في جِهَةٍ للبحثِ عن جو أوْ أيَّةِ آثارٍ تدلُّ عليه، وبعد ساعتين من الآنَ يعودُ الجميعُ إلى هنا؛ لنبحثَ في الأمرِ.

قال الزعيمُ: يا تود، في أيِّ اتجاهٍ ذهبَ جو؟

قال تود: من هُنَا سيدي، نحوَ الغربِ.

توجَّهَ الزعيمُ مع حُرَّاسِهِ في الاتجاهِ الذي أشارَ إليهِ تود، وتَتَبَّعَ آثارَ أقدام جو حتَّى وصلَ إلى نهايتِها، وجدَ الزعيمُ، أمراً غَريباً؛ إذْ اختفَتْ آثارُ أقدام جو، لكنَّ هناكَ دائرةً صغيرةً يُوجَدُ فيها آثارُ أقدامٍ غريبةٍ وكأنَّ معركَةً وقعتْ فيها وتنتهي الآثارُ بعدَها.

عادَ الجميعُ إلى مكانِ التَّخييم ولم يَعثُرْ أحدٌ على جو أو على آثارٍ تدلُّ عليه، أخبرَ الزعيمُ بما شاهَدَهُ للرجالِ لكنَّه لم يُعطِ تفسيرًا على ذلك، طلبَ الزعيمُ من الرجالِ مُواصلةَ السفرِ لئَلَّا يتأخَّروا عن الموعدِ.

لم يحتمْل الرجالُ تلك المصيبةَ التي حلَّتْ بهم، وثارَ الجميعُ ضِدَّ الزعيم، وطالبوهُ بالبحثِ مرَّةً أُخرَى وإلَّا فإنَّهم سيعودون أدرَاجهم مَن حيثُ أتَوا إن لم يجِدُوا جو حيّاً أو مَيتاً.

عرفَ الزعيمُ أنَّ الموقفَ صعبٌ للغايةِ وأنَّه إذا لم يتصرفْ بحكمةٍ فإنَّه سيفقدُ الرجالَ لا محالةَ خاصَّةً وأنَّهم على حقٍّ، وأنَّ ما حدثَ لجو يُمكنُ أنْ يَحدُثَ لأيِّ واحدٍ منهم فقالَ لهم:

أيُّهـا الرجـالُ: علينـا أنْ نكـونَ واقعيـين ونفكـرَ بعقـلٍ قبـلَ أنْ نتصـرَّفَ تصرُّفًـا يُمكـنُ أنْ نندمَ عليـه طويـلاً، عودتُكُـم أيُّهـا الرجـالُ إلى البلـدةِ دون جـو مصيبـةٌ حقيقيَّـةٌ ستؤدِّي إلى بلبلـةٍ في البلـدةِ خاصَّـةً وأنَّكـم لا تملكـون مـا تقولونَـهُ للعمـدةِ ولا لأهـلِ جـو أو لأهـلِ البلـدةِ، والبحـثُ عنـه مـرَّةً أُخـرَى مَضيعَـةٌ للوقـتِ؛ فلقـد بحثنَـا عنـه في كلِّ مـكانٍ ولم نعثـرْ لـه علـى أثَـرٍ.

قـال جـاك: لقـد صدقْـتَ سـيدي، لكـنْ لا بـدَّ مـن تفسـيرٍ لمـا حـدثَ، يجـبُ أنْ نعـرفَ الحقيقـةَ.

قـال الزعيـمُ: إنَّ مـا حـدثَ لجـو أحـدُ هـذه الأمـورِ يـا سـادةُ؛ إمَّـا أنَّـه ابتعـدَ كثيـرًا عـن المُخيَّـم ولم يهتـدِ أثنـاءَ الليـلِ، وهـذا مـا سـيؤدي بـه إلى اللحـاقِ بنـا أو العـودةِ إلى البلـدةِ، وإمَّـا أنَّ هنـاكَ طائـراً ضخْمـاً قـدْ أخـذَه وطـارَ بـه إلى مـكانٍ بعيـدٍ، وهـو أمـرٌ محتَمـلٌ جـدًّا، والآثـارُ الـتي شـاهدْنَاها جميعًـا تـدلُّ علـى ذلـك.

أيُّهـا الرجـالُ: علينـا أنْ نُواصـلَ السـيرَ، وأنْ نكـونَ يـدًا واحـدةً ولا نفـترقُ أبـدًا مهمَـا كانـتْ الأسـبابُ.

وجـدَ الرجـالُ أنَّ كلامَ الزعيـمِ منطقـيٌّ ومعقـولٌ، فقـرَّرُوا مُواصلَـةَ المشـوارِ مـع الزعيـم.

بعـدَ يومـينِ وصلُـوا إلى منطقـةِ المـزارع، ودُهِـشَ الرجـالُ عندمـا شـاهدُوا قطيـعَ الأبقـارِ والأغنـام الهائـلِ الـذي يُغَطِّـي مِساحـةً شاسِـعَةً مـن الأرضِ، وكذلـك مساحاتٍ مـن الأرضِ المزروعـةِ بالنباتـاتِ، رحَّـبَ الزعيـمُ بالرجـالِ وأكرمَهـم واسـتراحَ الجميـعُ لُـدَّةِ يومـين مـن عنـاءِ السـفَرِ، ثُـمَّ تَعـرَّفَ كلٌّ منهـم علـى المَهـامِّ الـتي سـيقومُ بهـا في المزرعـةِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

أثارتْ الاكتشافاتُ التي ظهرتْ في الأرضِ وأخبر عنها جو حفيظَةَ سوزي، وعندما تبينَ أنَّ تلك الأرضَ التي يملكُها والدُها، والتي قال عنها المتهمُ أنَّها له، وأثبتتْ تلك الورقةُ ذلك أيضًا، وتبَيَّنَ من خلالِ السِّجِلَّاتِ الرسميَّةِ أنَّها تعودُ لجو، وهو أوَّلُ مَنْ مَلَكَهَا، أُصيبتْ سوزي بالدُّوَارِ والصدْمَةِ؛ لأنَّ اسمَ عائلتِها كارتر واسمُ عائلةِ جو هو ويلسون، أخذتْ سوزي تبحثُ عن رابطَ بينَ العائلتين فلم تجدْ دليلاً على ذلك، شعرتْ سوزي بالعجزِ، وسُدَّ الطريقُ أمامَها؛ لأنَّها لم تقتربْ من الحقيقةِ التي تشعرُ بها قيدَ أَنْمُلَةٍ، كانَ لدى سوزي حدسٌ قويٌّ يخبرُها بأنَّ هناك صلةَ قُربى مع المتهم، وأنَّ هناك ما يشدُّها إليه بقوَّةٍ، بل كانت تتمنَّى أنْ تكونَ هناَك علاقةٌ ما مع المتهمِ.

بدتْ سوزي متشككةً حيالَ الأمرِ، وغرقتْ في صمتٍ طويلٍ، وفجأةً أحسَّتْ بدافعٍ قويٍّ آخرَ يدفعُها للتحرِّي، هُرِعتْ مسرعةً إلى مكتبِها، وأخذتْ تقلِّبُ في دفترِها وفي قصاصاتٍ كثيرةٍ تحتفظُ بها، تتعلَّقُ بالمتهم، شعرتْ سوزي بأنَّ أمراً ما يمسُّها شخصياً يرتبطُ بسِرِّ هذا المتَهم كما لو أنَّه كان شقيقَها أو أقربَ من ذلك، كان هذا الشعورُ يحثُّهَا على التحرُّكِ لإنقاذِ المتهم والوقوفِ بجانبه بحزم، كان شعورُها أشبهَ ما يكونُ بالحبِّ والحَنانِ نحوَه، كان صوتُهَا الداخليُّ يحفِّزُها على البدءِ فوراً، كان يقولُ لها: الوقتُ من ذهبٍ فلا تُهدريه، تردَّدَتْ سوزي واحتارتْ في أمرِها وقالتْ:

الأمرُ لا يعودُ لي وحدي، هناك جِهاتٌ عديدةٌ تهتمُّ بالأمر،

وعـاد الصـوتُ يُـدوِّي في أُذُنِهـا مـن جديـدٍ: الوقـتُ ثمـينٌ جِـدّاً، نعـم، قالـتْ سـوزي:

الآنَ سـأبدأُ، واتصلـتْ فـوراً بمسـترِ رونالـد- المسؤولِ في المخابـراتِ المركزيَّـة- وأخبرتْـهُ عـن نيَّتِهـا وتفاصيـلِ خُطَّتِهـا.

«تحرَّكي فوراً ولا تُضيِّعي الوقتَ سوزي.» قال المسؤول رونالد.

كانـتْ سـوزي تَطَّلِـعُ علـى كلِّ مـا يجـري مـن أحـداثٍ بنَـاءً علـى اتِّفاقِهـا مـع المسؤولِ، وسمحَ لهـا بنشـرِ روايتِهـا بعـدَ أنْ اطَّلَـعَ عليها، أوشـكتْ سـوزي علـى إنْهـاءِ تلـك الروايـةِ الـتي كتبتْهـا عـن سِـرِّ حيـاةِ هـذا الرجـلِ الغريـبِ واتَّفقتْ مـع أحـدِ أصحـابِ الصحـفِ في البلـدةِ علـى نشـرِها في حلقـاتٍ مُتسلسـلةٍ تحـتَ عُنـوانِ (الرجـلِ الغريـبِ).

مـا أنْ نُشِـرَتْ عِـدَّةُ حَلَقَـاتٍ مـن الروايـةِ، وبـدأتْ خيوطُهـا تتشـابكُ وأسـرارُها تتعقَّـدُ حتَّـى بـدأ البعـضُ يُرسـلُ برسـائلِ احتجـاجٍ إلى الجريـدةِ وإلى الشـرطةِ مُطالبـين بوقـفِ نشـرِ تلـك الروايـةِ ومُقاضَـاةِ الكاتبـةِ والجريـدةِ علـى نشـرِ أخبـارٍ كاذبـةٍ.

اتَّصلـتْ سـوزي بالمسـؤولِ وأخبرَهـا أنَّـه سـيدعو المحقـقَ لعقـدِ مؤتمرٍ صحفـيٍّ يُبَـثُّ مباشـرةً علـى شاشـةِ التلفـازِ؛ ليؤكِّـدَ للنـاس والمُعترضـينَ حقيقـةَ الأمرِ.

وفي المؤتمـرِ الصحفـيِّ أكَّـدَ المحقـقُ أنَّ أحـداثَ تلـك الروايـةِ الـتي تُنْشَـرُ في الجريـدةِ حقيقيَّـةٌ، وأنَّ الرجـلَ موضـوعَ الروايـةِ موجـودٌ بالفعـل، وأنَّ هـذا الشـخصَ يَدَّعـي أنَّـه وُلِـدَ قبـل مائـتي عـام، وأثبـتَ ذلـك بأدِلَّـةٍ قاطعـةٍ لا تقبـلُ الشـكَّ، أخـذَ الحضـورُ والصحفيـون يُلقـون الأسـئلةَ علـى المحقـقِ.

سأل أحدُهم: هلْ يعرفُ هذا الرجلُ مَنْ حولَه كأمِّهِ وأبيهِ وأصدقائِه؟

قال المحققُ: لا سيدي، فهوَ لا يَتَذَكَّرُ إلَّا أسماءَ عاشتْ معه في تلك الفترةِ، ولا يُوجَدُ منهم أحدٌ.

سأل آخرُ: كيفَ تقَبَّلَ هذا الرجلُ الحياةَ الآنَ؟

قال المحققُ: يبدو أنَّ هذا الرجلَ طالبٌ جامعيٌّ، ولكنَّهُ فاقدٌ للذاكرةِ، ويتقمَّصُ شخصيَّةَ رجلٍ عاشَ قبلَ عشراتِ السنين؛ فهوَ يعيشُ الآنَ غريباً في بلادٍ غريبةٍ.

سأل آخرُ: هلْ تعتقدون أنَّه سيستمِرُّ على تلك الحالةِ؟

قال المحققُ: ربَّما؛ فنحنُ لا زلنَا ندرسُ حالتَهُ ونراقبُه باستمرارٍ.

ثُمَّ وقفتْ امرأةٌ، وتقدَّمَتْ إلى الصفِّ الأوَّلِ وهي تبكي وحالتُها النفسيَّةُ مُحطَّمَةٌ، لقدْ جاءتْ هذه المرأةُ؛ لتضعَ النِّقاطَ على الحروفِ أمامَ العالَمِ كلِّه، إنَّها والدةُ سام، جاءتْ لعلَّها تجدُ مَنْ يسمعُها ويقفُ إلى جَانبِها ويساعدُها في إعادةِ ابنِها الوحيدِ.

قالتْ الأمُّ: أيُّها السادةُ، أنَا والدةُ الشابِّ الذي تسألونَ عنه، وقرأتُم عنه في الجرائدِ، إنَّ كلَّ ما قيلَ عنهُ صحيحٌ، إنَّه يعيشُ معنا كرجلٍ غريبِ فِعلاً، وهو دائمًا حزينٌ وكئيبٌ، ويطلبُ زوجتَهُ وأبناءَهُ، إنَّهُ طالبٌ جامعيٌّ ولم يسبقْ لهُ أنْ تزَوَّجَ.

تابعتْ الأمُّ وسألتْ المحققَ:

سؤالي الأوَّلُ سيدي، ما زلتُمْ تسألون وتُحقِّقونَ منذُ فُقِدَ ابني وحتَّى الآنَ، لماذا لا تهتمُّونَ بعلاجِهِ؟ لماذا لم يحاولْ أحدٌ مُساعدَتَهُ؟ لماذا تتَّهِمُونَه بالجاسوسيَّةِ وقدْ تأكَّدْتُم أنَّهُ بريءٌ من ذلك؟ ماذا تنتظرونَ سيدي؟

قال المحققُ: أنتِ على حقٍّ سيدتي، لكنَّ الإجابةَ على تساؤلاتِك صعبةٌ جِدًّا ومُستحيلَةٌ؛ لأنَّنَا لم نجدْ حتَّى الآنَ العلاجَ المُناسبَ له.

قالتْ الأمُّ: يبدُو حقًّا، أنَّكم عاجزون عن ذلك.

كانتْ الأمُّ تبكي وتتألَّمُ وهي تُحاولُ الكلامَ بصعوبةٍ، وتابعتْ قائلة: أرجو أنْ يكونَ لديكَ جوابٌ شافٍ وصادقٌ لسؤالي؛ لأرتاحَ من العذابِ الذي أعيشُه مع هذا الرجلِ الغريبِ.

قال المحققُ: إنَّه ابنُكِ سيدتي وليس برجلٍ غريبٍ.

صرخَتْ الأمُّ بغضب: أرجوكَ لا تقلْ إنَّه ابني، أنتَ تعلَمُ الحقيقةَ كلَّها، وتعلمُ أنَّه لا يتعرَّفُ علينا، سؤالي، هلْ أعتبرُ ابني حيّاً أم ميتاً؟

ذُهِلَ الجميعُ من كلام الأمِّ، حاولَ المحققُ أنْ يحسِمَ الموقفَ ويُهدِّئَ من الأصواتِ الغاضبةِ فِي القاعةِ المتعاطفةِ مع الأمِّ الحزينةِ والمتألِّمةِ.

قال المحققُ: الرجاءُ الهدوءَ.

ما زالتْ الأصواتُ تُدَوِّي والأمُّ تبكي.

تابع المحققُ قائلاً: ليهدأْ الجميعُ من فضلِكم؛ حتَّى يتسنَّى لنا إجابةَ السيدةِ.

سيدتي، أتعرفينَ ابنَكِ حقًّا؟ أعني لو جئنا بعددٍ من الشبابِ وهو من بينهم هل تستطيعين التعرُّفَ إليه؟

قالتْ الأمُّ: ومَنْ لا تعرِفُ ابنَها سيدي؟ بالطبعِ أعرِفُهُ ولو كان بين ألفِ شابٍّ.

قال المحققُ: هلْ الشابُّ الذي يعيشُ معكم ابنُك أمْ لا؟

قالتْ الأمُّ: جِسْمٌ بلا عقلٍ بلا روحٍ بلا منطقٍ، إنَّه إنسانٌ آخرُ تمامًا.

قال المحققُ: ابنُك حيٌّ يُرزَقُ سيدتي بدليل أنَّه يعيشُ معكم وإنْ كان مريضًا، نحنُ بحاجةٍ إلى قليلٍ من الصبرِ حتَّى نتمكَّنَ من علاجِه.

قالتْ الأمُّ: ليسَ ابني ولا أعرفُهُ، إنَّه لا يتعرَّفُ إليَّ ولا إلى والدِهِ ولا إلى أحدٍ في البلدةِ كلِّها، إنَّه يُخيفُني حقًّا ولا نَستطيعُ العيشَ معَه، إنَّ له عيوناً مُخيفةً جداً، إنَّها تلمعُ ليلاً كعيونِ الوحوشِ والحيواناتِ، لا أحدَ يستطيعُ الاقترابَ منه ليلاً؛ إنَّهُ مُخيفٌ... مُخيفٌ.

ما زالتْ الأمُّ تبكي وتتابع: لكنَّه جِسْمُ ابني، وجهُه وملامِحُهُ، كلُّ شيءٍ فيه ابني، ابني، أرجوكُم ارحموني، ساعدوني، أنتُم قَتَلْتُم أجملَ حُلْمٍ في قلبِ الأمِّ، وَأَدْتُم ابني حيًّا، أبدلتموه بإنسانٍ مُنقرِضٍ، إنَّهُ يتكلَّمُ بلسانِ ميِّتٍ، ويتذكَّرُ بلْ ويطلُبُ أُناساً لا وجودَ لهم على وجهِ الأرضِ.

أيُّها السادةُ، أيُّها السادةُ: نحنُ نتعذَّبُ ولا أحدَ يشعرُ بِنَا، أخشى أنْ نموتَ، الرحمةَ، الرحمةَ، الرحمةَ.

وسقطتْ أرضًا، وأسرعوا لنجدتِها ونقلِها إلى المَشفى.

مزارعُ الزعيم ١٨٦٥

استلَمَ الرجالُ ملابسَ العملِ وأحذيتَهُ البلاستيكيَّةَ الطويلةَ بعد أنْ تركَها مَنْ كان يعملُ قبلَهم، وبدأتْ رِحلةُ العملِ منذُ اللحظةِ الأولى، شعرَ الرجالُ بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ بعدما شاهدوا المكانَ المُخصَّصَ للنوم؛ فهو أشبهُ ما يكونُ بحظيرةٍ كبيرةٍ بجانبِ مزرعةِ الأبقارِ، وفيهِ فُرُشٌ ووسائدُ وأغطيةٌ قذرةٌ، وهناك في زاويةِ المكانِ أوانٍ مَعدنيَّةٌ عفَا عليها الزمنُ، سيستعملُها الرجالُ، للطبخِ والغسيلِ والاستحمامِ.

كانتْ رائحةُ الأبقارِ تسيطرُ على المكانِ، وأيقنوا أنَّهم وقعوا في المصيدةِ منذُ البدايةِ وهم ينظرون إلى بعضهم بعضًا بعيونٍ حيرَى وحزينةٍ.

جاء الزعيمُ الذي كانَ ينتظرُ الرجالَ خارجَ المَسكنِ، وعندما تأخَّرُوا دخلَ عليهم فوجدَ وُجُوهاً غيرَ راضيةٍ ويائسةً؛ فأرادَ أنْ يضعَ حدَّاً فاصِلاً للرجالِ فصاح بهم قائلاً:

لينتبهْ الجميعُ إليَّ....

أولاً: منذُ هذه اللحظةِ فصاعداً لا أريدُ مُناقشاتٍ ولا حكاياتٍ ولا كلاماً غيرَ مُجدٍ، بدأَ العملُ يا رجالُ، وعليكم القيامَ بأعمالكم بكلِّ أمانةٍ وإخلاصٍ والامتثالَ والطاعةَ للمراقبين والحُرَّاسِ.

ثانياً: لكُمْ وجبتان من الطعامِ يوميّاً، الأولى في الصباحَ قبلَ العملِ، والثانيةُ في المساءِ بعدَ العملِ.

ثالثاً: هناكَ مكانٌ خاصٌّ للاستحمامِ مرَّةً واحدةً في نهايةِ كلِّ أسبوعٍ، وعلى الجميعِ الالتزامُ بذلك اليَومِ، ولا أريدُ هَدَراً للماءِ؛ فهوَ قَليلٌ وغالي الثمَنِ أيضاً.

أيُّها الرجالُ.... يبدأُ العملُ، من شروقِ الشمسِ، وينتهي مع غروبها، كلُّ مَنْ يُقصِّرُ في واجبِهِ سيتحمَّلُ تكاليفَ ذلك، العملُ عملٌ، ولا مجالَ فيه للمُجاملةِ.

والآنَ الرجاءُ من الجميع الانصرافَ مع المراقبِ؛ ليتعرَّفَ كلُّ واحدٍ منكم على عملِهِ.

بدأتْ رحلةُ العملِ المُضني في رعي القطيع في النهارِ، وحلْبِ الأبقارِ في المساءِ، وتوزيعِ الأعشابِ لها في الأماكنِ المُخصَّصةِ في حظائرِ الأبقارِ ليلاً، وكلُّ عِدَّةِ أيَّام يتمُّ تنظيفُ تلك الحظائرِ، وتُنْقَلُ مخلَّفاتُ الأبقارِ إلى مكانٍ خاصٍّ قُرْبَ الأراضي الزراعيَّةِ.

كان الرجالُ يعودون من العملِ عندَ غروبِ الشمسِ؛ فيتناولون وجبةَ الطعام، وما يكادُ أحدُهم يصلُ إلى فِراشِهِ حتَّى يُلقي بنفسِهِ أرضاً، ويستسلِمُ للراحةِ والنومِ العميقِ من شدَّةِ التعبِ، ولا يشعرُ بنفسه إلَّا ومُراقبُ العملِ يصرخُ عليه في الصباحَ؛ ليقومَ ثانيةً إلى عملِ يومٍ جديدٍ.

طلبَ الزعيمُ من الرجالِ أنْ يقومَ اثنان منهم بالتناوُبِ لحراسةِ الماشيةِ كلَّ ليلةٍ بعد عودته من العملِ في المساء، مِمَّا أثقلَ هُمومَهم، وزاد وضعَهم النفسيَّ والمعنويَّ والصحيَّ سوءاً، وأصبحَ الواحدُ منهم يتمنَّى الموتَ على تلك الحياةِ القاسيةِ والمؤلمةِ.

لقد نسيَ الرجالُ رائحةَ المسكنِ القذرةَ ورائحةَ الفِراشِ الكريهةَ، وكأنَّهم تأقلموا على ذلك الوضعِ، والحقيقةُ أنَّهم كانوا يبحثون عن الراحةِ والنومِ في أيِّ مكانٍ يجدونه؛ فلا وقتَ لديهم، ليُهدروه في الكلام والعتابَ واللوم، فسماحُ الزعيم لهم بالاستحمام يوماً واحداً في الأسبوعِ منحةٌ شخصيَّةٌ لم تُسبَقْ بأيِّ طَلَبٍ منهم.

كان ذلك اليومُ مُقدَّساً ينتظرُه الجميعُ بفارغ الصبرِ كأنَّهُ يومُ عيدٍ؛ لأنَّه سيريحُهم من تلك القذارةِ المتراكمَةِ على أجسامِهم خلالَ أسبوعٍ كاملٍ من الشقاءِ والتعبِ، وما أنْ يشعرُ الواحدُ منهم بالنشاطِ والحيويَّةِ بعد الاستحمامِ حتَّى تتلاشى من جديدٍ في أوَّلِ يومِ عملٍ.

تكالبَ على الرجالِ العملُ الشاقُّ والغربةُ القاتلةُ والطعامُ القليلُ، وأصبحتْ حياتُهم صعبةً للغايةِ حتَّى أنَّ الجميعَ ندموا على مجيئِهم إلى ذلك المكانِ، وظنَّ البعضُ أنَّ جو كانَ أكثرَ حظّاً منهم مهمَا كانتْ أسبابُ اختفائِه حتَّى لو كان الموتُ نفسُه.

تأكَّدَ الرجالُ الذين جاءوا يلهثون وراءَ المالِ تاركين خلفَهم الأهلَ والأحبَّةَ والوطنَ أنَّ المالَ ليس كلَّ شيءٍ في هذه الحياةِ، وأنَّ هناك أشياءٌ كثيرةٌ أسمى وأجملَ تستحقُّ البقاءَ، ما زالَ الرجالُ في بدايةِ الطريقِ إلَّا أنَّ الضعفَ أخذَ من أجسامِهم قليلاً؛ فبدأتْ هِمَمُهم تخبو، وبدأَ الجميعُ يتذمَّرون من الحالةِ التي وصلوا إليها.

شعرَ السيدُ جاك –وهو ليسَ بأحسنِ حالٍ منهم– بما يفكِّرُ فيه الآخرون، وهو يعلمُ أنَّه لا مجالَ للتراجُعِ والعودةِ، أخذَ يُشجِّعُهم على الصمودِ ومواصلةِ العملِ، وقال لهَم:

أيُّها الإخوةُ.... أيُّها الرجالُ:

ماذا أصابكم؟

أينَ حماسُكم للعملِ؟

أينَ رغبتُكم في امتلاكِ المالِ؟

إنَّ البدايةَ دائماً صعبةٌ، وما دُمنَا قد بدأْنَا المشوارَ فلا بدَّ من مُواصلةِ السيرِ فيه، وها قدْ بدأْنا التأقلُمَ على هذه الحالةِ، وما هي إلَّا سنةٌ واحدةٌ.....

بلْ عِدَّةُ شهورٍ وسنعودُ للوطنِ وللأهلِ.

أيُّها السادةُ... يجبُ أنْ يتطلَّعَ الجميعُ إلى ذلك اليوم الذي سنعودُ فيه إلى الوطنِ وقدْ أصبحَ لدينا المالُ، واعلموا أنَّ الأهلَ في الوطنَ ينتظرون بفارغِ الصبرِ ذلك اليومِ؛ فلا تُخيبوا آمالَهم، ولْيعملْ الجميعُ لذلك اليومِ السعيدِ.

استطاعَ جاك أنْ يشحذَ الهممَ، ويرفعَ المعنويَّاتِ؛ فأخذَ الرجالُ يفكِّرون في يومِ اللقاءِ ويوم العودةِ إلى الوطنِ بعيداً عن المتاعبِ التي يُلاقونَها.

استمرَّ الرجالُ في العملِ وأصبحَ الحديثُ بينهم موعدَ العودةِ وذلك اللقاءَ الذي سيجمعُ بينَهم، وهم يُخطِّطُون لتلك اللحظاتِ التي سينتهي بها الشقاءُ، وتبدأُ أيامُ السعادةِ والرفاهيةِ، واقتربَ العيدُ.

كان العيدُ في هذه السنةِ غيرَ طبيعيٍّ، وهو الأوَّلُ الذي ظنَّ الرجالُ بأنَّهم سيحتفلون به خارجَ الوطنِ، وسيتعرَّفون على عاداتٍ وتقاليدَ جديدةٍ، ربَّما سينقلونها إلى الوطنِ، ولكنْ تأتي الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ؛ ففي صباحَ يوم العيدِ قام الرجالُ مُبكِّرين على غير العادةِ، وارتدوا ملابسَهم الفاخرةَ، وتجهَّزوا للمشاركة في احتفالاتِ الأعياد، وتوقَّع الجميعُ أنْ يُرافقوا الزعيمَ إلى البلدةِ التي لم يتشرَّفوا بدخولها حتَّى تلك اللحظةِ؛ ليُمضوا أوقاتٍ سعيدةٍ ومرحةٍ تُنسيهم بعضَ المعاناةِ والتعبِ.

بعد أنْ تجهَّزوا وأوشكوا على الخروجَ حضرَ مُراقبُ العملِ، فوجدَهم على غيرِ عادتِهم، ظنَّ أنَّهم سيُغادرون البلدةَ هاربين مُتذكِّراً ما كانَ يسمعُ منهم من تضجُّرٍ وشكاوًى يوميَّةٍ لا تنتهي، فأسرعَ إلى إشهارِ السلاحَ في وجوههم قائلاً:

إلى أينَ أيُّها الرجالُ؟

هلْ من خدمةٍ أقومُ بها؟

قال جاك: لماذا ترفعُ السلاحَ في وجوهنا أيُّها السيدُ؟

قال مُراقبُ العملِ: أراكُم مُستعدِّين للمُغادرةِ.

أم أقولُ للهربِ؟

قال جاك: الهرب!

لقد ذهبتَ بعيداً بتفكيرِك سيدي.

أليسَ اليومُ يومُ عيدٍ؟

قال المراقبُ: عيدٌ!

ماذا تعني؟

قال جاك: لقدْ جهَّزْنا أنفسَنا للذَّهابِ للبلدةِ (بلدتكم) للاحتفالِ بالعيدِ.

قال المراقبُ: هكذا إذنْ.

والأبقارُ؟

والأغنامُ؟

obeikan.com

وبقيَّةُ الأعمالِ مَنْ سيقومُ بها؟

فالأبقارُ لا تستطيعُ الاحتفالَ وحدَها بالعيدِ يا سادةُ.

هيَّا، بدِّلُوا ملابسَكم، وارتدوا ملابسَ العملِ فوراً؛ فقد تأخَّرْنا على الأبقارِ.

ربَّما ستغضبُ منا، أليسَ كذلك؟

قال جاك: هذا يومُ عيدٍ، ويحقُّ لنا أنْ نحتفلَ بهذه المناسبةِ كباقي الناس.

قال آخرُ: هذا ليسَ عدلاً، يجبُ أنْ نحتفلَ بالعيدِ.

قال آخرُ: إمَّا أنْ نحتفلَ بالعيدِ أو أنْ نتركَ العملَ ونعودُ للوطنِ.

قال آخرُ: نعم، يجبُ أنْ نحتفلَ؛ فليسَ كلُّ الأيام نقضيها في العملِ، حتَّى يومُ العيدِ، يجبُ أنْ نرتاحَ يوماً وليكنْ هذا اليومُ.

إنَّه عيدٌ أيُّها الرجالُ.

قال المراقبُ: هكذا إذنْ.

فليخرجْ الجميعُ فوراً وكلُّ مَن يتخلَّفُ سأطلقُ عليه النارَ.

هيَّا بسرعةٍ تحرَّكوا.

الجميعُ إلى الخارجَ.

فلَكُمْ مفاجأةٌ حسنةٌ.

نعم، سيعملُ الجميعُ بهذهِ الملابسِ الجميلةِ، فيحقُّ للأبقارِ أنْ تحتفلَ، وأنْ ترَى مناظرَ حسنةً في هذا اليوم.

أجبرَ المراقبُ جميعَ الرجالِ على العملِ بملابسِهم الجديدةِ التي جاءوا بها من البلدةِ، وكانَ يومُ العيدِ أسوأَ يومٍ يعيشُه الرجالُ منذُ مغادرةِ البلدةِ، وعندَ عودتِهم من العملِ إلى مكَانِ النومِ بكُوا على حالِهم، وتمنَّوا الموتَ على تلكَ الحياةِ المُهينةِ.

أجمعَ الرجالُ على تركِ العملِ وفسخِ العقدِ والعودةِ إلى الوطنِ بعد أنْ أصبحوا في وضعٍ لا يُحسدونَ علَيه، تدهورتْ صِحَّتُهم، تَحطَّمَتْ معنوياتُهم بعدَ سبعةِ شهورٍ من المعاناةِ، إلَّا أنَّ أميرَهم جاك نصحَهم بعدم المُجازفةِ والاستمرارَ في العملِ حتَّى النهايةِ؛ لأنَّ الزعيمَ لن يسمَحَ لهم بالعودةِ لعدمِ وجودِ بديلٍ لهم، بعدما أصرَّ الجميعُ على مواجهةِ الزعيمِ طلبَوا منه فسْخَ العقدِ غضبَ غضَباً شديداً وهدَّدَ باستعمالِ القوَّةِ معهم وقال لهم:

أنا لم أرَ في حياتي رجالاً مثلَكم أبداً؛ منذُ أوَّلِ يومٍ وأنتُم تَتَذمَّرون، ليعلمْ الجميعُ أنَّه ليسَ عندي عمَّالٌ غيرَكم يَقومونَ بالعملِ، وها أنتم تطلبون مني القضاءَ على حيواناتي ومزارعي، ولن أسمحَ بذلك أبداً، عليكم العملَ حتَّى نهايةَ السنةِ؛ لأحضرَ بدلاً منكم، واعلموا أنَّني لنْ أسمحَ لأيٍّ واحدٍ منكم بمُغادرةِ المزارعِ حيّاً أبداً قبل ذلك التاريخ مهما كانتْ الأسبابُ، ثم انصرفَ الزعيمُ وتركَهم في حيرةٍ من أمرِهم.

علم الرجالُ أنَّهم في وضعٍ خطيرٍ، وأنَّ عليهم الاستمرارَ في العملِ مع هذا الزعيمِ اللئيمِ حتَّى شكَّ بعضُهم أنَّهم سيعملون مَجَّاناً، ولن يحصلوا علَى أُجرَتِهم بعد الانتهاءِ من العمل، وأنَّه سيحتالُ عليهم، وسيعودون إلى البلدة فارغي الأيدي كما خرجوا منها، وأنَّ جَهدَهم سيذهبُ أدراجَ الرياحَ.

كانتْ الأيامُ الأخيرةُ دهراً بأكمله، كانوا يُحاولون دفعَ تلك الأيام بكلِّ ما أوتوا من قُوَّةٍ، وأقسمَ الجميعُ مُتعاهدين على ألَّا يعودواَ إلى هذا العملِ مرَّةً أُخرَى مهما كانتْ الأسبابُ والمُغرياتُ، وأقسموا على ألَّا يُغادروا البلدةَ بعد اليومِ من أجلِ العملِ في أيِّ مكانٍ آخرَ.

في اليوم الأخيرِ طلبَ الزعيمُ من الرجالِ العودةَ مُبكِّرينَ، استحمَّ الجميعُ وارتدوا الملابسَ الجديدةَ، واصطحبَهم الزعيمُ إلى البلدةِ واحتفلَ معهم تلك الليلةَ، أكرمهم واعتذرَ لهم عن كلِّ ما بدرَ منه أو من رجالِه، وأخبرَهم أنَّ العملَ يتطلَّبُ الحزمَ لتستمرَّ المزرعةُ في العطاءِ، ووزَّعَ عليهم أجورَهم، وأمضَى الجميعُ سهرةً جميلةً حتَّى تناسى الجميعُ كلَّ ما حصلَ لهم خلالَ تلك السنةِ.

في الصباحَ تهيَّأَ الرجالُ لرحلةِ العودةِ، وودَّعهم الزعيمُ وأوصاهم بعدم الفرقةِ، وأنْ يكونوا يَداً واحدةً حتَّى الوصولِ سالمين إلى الوطنِ، بالرغَم من قسوةِ الزعيم إلَّا أنَّه كانَ صادقاً، وأوفى بوعدِه، وكان كريماً أيضاً؛ لأنَّه أعطَى السيد جاك مَبلغاً من المالِ ليدفعَه لزوجةِ جو الذي تأكَّدَ الزعيمُ من موتِهِ في ذلك اليومِ الذي فُقِدَ فيه.

تعلَّمَ الرجالُ من الفارسِ أنَّ الانضباطَ في العملِ ومتابعةَ الأمورِ مُهِمَّةً جدًّا، وأنَّ القائدَ عليه أنْ يكونَ حازمًا في اتخاذِ قراراتِه وطلبِ تنفيذَها، الأمرُ الذي سيُساعدُهم في أعمالِهم عند عودتِهم إلى البلدةِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

حيوانٌ في قفصٍ بحديقةِ الحيواناتِ، يُقَدَّمُ له الطعامُ والشرابُ، ويخرجُ متَى أرادَ النقيبَ آدمُ فقطْ للهوِ والاستمتاعِ، هكذا أنا بالضبطِ- قال المتهمُ لنفسِه- أينَ أنتِ يا سوزي بَحقِّ السماءِ؟ لماذا أشعرُ بالسعادةِ عند رؤيتِها؟ أرى فيها ابنتي سارةَ وحنانَها ورقَّتَها، لكنَّها خَذَلَتْني أخيراً وكذبَتْني أيضاً، نعم، لقدْ نعتَتْني بأنِّي كاذبٌ، خسارةٌ كبيرةٌ! ومع ذلك مشاهدتُها تُريحُني، وسماعُ كلامِها يُسعدُني، عندما أرَى ابتسامَتَها يزولَ ألمي وعذابي، يجبُ أنْ أطلبَ منها المساعدةَ، يجبُ أنْ تبحثَ عن عائلتي وعن العمدةِ نورمان؛ إنَّه الوحيدُ القادرُ على إخراجي من هذا السجنِ اللعينِ ومن قبضةِ النقيبِ آدم ذلك الوحشِ الكاسرِ، إنَّه يُشعرُني بالجنونِ والخوفِ، نعم، العمدةُ، أينَ أنتَ سيدي؟ لماذا تركتَ البلدةَ في أيدي هؤلاءِ الوحوشِ؟

لماذا سيدي؟

ما عساك تفعلُ الآنَ أيُّها الأبُ الحنونُ؟

كان العيدُ على الأبوابِ والجميعُ يستعدُّ له، فيما بقيَ جو يقبعُ في سِجْنِهِ، وأثارتْ مناسبةُ العيدِ لدى المتهمِ أشجانًا وآلامًا؛ تذكَّرَ أيامَ شبابِهِ والأعيادَ التي مضتْ، تذكَّرَ المتهمُ أوَّلَ عيدٍ تشهدُهُ البلدةُ في عهدِ العمدةِ نورمان، كان ذلك يوماً مُمَيَّزاً كشفَ عن عظمةِ العمدةِ.

مضتْ أيامٌ ولم يحدثْ جديدٌ لسام أو المتهم، ولم يتعرَّفْ أحدٌ على الجثةِ الموجودةِ في المَشفى، بعد المؤتمرِ الصحفيِّ وما أحدَثَهُ من ضَجَّةٍ

هُنَا وهُنَاك طلبَ المسؤولُ الأوَّلُ عن القضيَّةِ إعادةَ الرجلِ إلى السجنِ وتحويلَه إلى النيابةِ العامَّةِ؛ لتبتَّ في أمرِهِ وتُغلقَ ملفَّ القضيَّةِ نِهائيّاً.

وجَّهَ المُدَّعي العامُّ تهمةَ الجاسوسيَّةِ للمتهم، رفضَ السيدُ تشارلز توجيهَ تلك التهمةِ لابنِهِ الوحيدِ الذي اختفَى من المَشفى بصورةٍ غامضةٍ، وهو يؤكِّدُ أنّ الرجلَ المتهمَ هو ابنُهُ سام، ووكَّل السيدُ تشارلز مُحاميًا للدفاعِ عن ابنِهِ، ودَعَمَهُ بكلِّ الوثائقِ اللازمةِ من صورٍ وشهودٍ وعلاماتٍ بالإضافةِ لمساعدةِ المَشفى والطبيبِ.

رفضَ المتهمُ توكيلَ مُحامٍ ليدافعَ عنه أمامَ المحكمةِ، ووكَّلتْ المحكمةُ مُحاميًا ليدافعَ عن المتهم، بعدَ لحظاتٍ من سماعِ المتهمِ بأمرِ المحكمةِ كان قلبُه يخفقُ بقوَّةٍ وصدَى القرارِ يُصِمُّ أذنيهِ، ولم يكنْ يتصوَّرُ أبداً أنْ ينتهيَ به المطافُ إلى المحكمةِ بحالٍ من الأحوالِ، شعرَ بالخوفِ وبدَا له بأنَّ أمرَه انتَهى، أُصيبَ بالهلَعِ، وتسارعتْ دقَّاتُ قلبِهِ، وارتبكَ بشدَّةٍ، علمَ بأنَّ القاضيَ والمحامَيَ وكلُّ مَنْ سيقفُ بالمحكمةِ حتَّى الشهودُ والمتفرجون سيكونون من أهلِ البلدةِ، وبالتأكيدِ سيقفونَ ضِدَّهُ إلى جانبِ النقيبِ آدم.

وفي سكونِ الليلِ اعترتْهُ رعشةٌ قويَّةٌ، وهو يحملُ في مُخيِّلَتِهِ مئاتِ الذكرياتِ، بدَتْ عليه خيبةُ أَمَلٍ، أوَى المتهمُ لفِرَاشِهِ كسيرَ النفسِ، صلَّى صلاةً طويلةً ثُمَّ ذهبَ بعيداً بعيداً.

إرهابيٌّ هاربٌ من السجنِ، تهمةٌ جديدةٌ يريدُ النقيبُ آدمُ إلصاقَها بي، هكذا كان المتهمُ يحدِّثُ نفسَه، وتابعَ: ماذا تعني (إرهابيّ)، لم أسمعْ بها من قبلُ، ماذا يريدُ مني هذا النقيبُ؟ ولماذا أنا من بينِ كلِّ الناسِ؟ ما علاقتي بالأمرِ؟

لطالما خاف جو من الدَّرَكِ وهو صغيرٌ، كان يتجنَّبُ المرورَ من أمامهم، كان يشاهدُهم وهم على ظهور الخيلِ، كانوا يستعرضون قوَّتَهم في الشارعِ مِراراً وتِكرَاراً بملابسِهم المُرعبَةِ ومُسدساتِهم المُخيفةِ، وبقيَ الأمرُ على حالِهِ إلى أنْ التقى بصديقِهِ نورمان ذلك الرجلِ الكريم الذي أنقذَه من براثنِ الرعبِ والفقرِ، عندما التقى به صُدفةً أثنَاءَ هروبِهِ من الحربِ، كانتْ بدايةَ عهدٍ جديدٍ.

تذكَّرَ صديقَه العمدةَ، وولَّدَ له شعورًا بالألَمِ والحزنِ، وعادتْ له تلك الذكرى؛ لتعصرَ قلبَه من جديدٍ، تذكَّرَ جو أوَّلَ عهدِهِ بالبلدةِ، عندما وصلَها وحصلَ على مزرعةٍ صغيرةٍ يعملُ بها، وتذكَّرَ عندما حصلَ صدامٌ بينَه وبينَ أبناءِ جورج خاصَّةً ابنَه المشاكسَ ستيف، عندها عرفَ جو حِكمةَ العمدةِ وعدلَه، ومنذُ تلك اللحظةِ كان العمدةُ لجو الأبَ الروحيَّ، وتخيَّلَ عندما كانَ صبيحةَ ذلك اليومِ برُفقةِ زوجتِهِ يعملانِ في المزرعةِ.

نيوفلج ١٨٦٦

غادرتْ القافلةُ مزارعَ الزعيم عائدةً من حيثُ أتتْ، والكلُّ في فرحةٍ غامرةٍ، ودَّعُوا أيَّامَ العذابِ والألم، وحصَلوا على المالِ، وهم يتغنَّوْنَ بصوتٍ مُرتفعٍ، لكنَّ بعضَ الرجَالِ أصابَهم الخوفُ، وخشوا من عدمِ الاهتداءِ إلى الطريقِ، أو أنْ يصيبَ أحدَهم ما أصابَ جو.

أكَّدَ جاك للجميعِ أنَّه وضعَ إشاراتٍ في كلِّ مكانٍ جلسُوا فيه مع الزعيمِ عند قدومِهم، وسيهتدونَ بها إلى الطريقِ، وأنَّه لا

حاجـةَ للخـوفِ وطلـبَ منهـم ألَّا يبتعـدوا عـن بعضهـم البعـض، كمَـا أكَّـدَ للجميـع أنَّ العمـدةَ والأهالـيَ ينتظـرون قُدومَهـم بفـارغِ الصـبرِ.

أخـبرَ العمـدةُ الأهالـيَ بموعدِ عـودةِ الرجـالِ، وطلبَ منهم الاسـتعدادَ لاسـتقبالِهم والاحتفـالَ بعودتِهـم؛ حتَّـى يكـونُ يومـاً مُمَيَّـزاً، خـرجَ العمـدةُ ومسـاعدُهُ وعـددٌ مـن الأهالي لاسـتقبالِ الرجالِ في مَدخـلِ البلدة، وبَقـوا حتَّـى غـروبِ الشـمسِ، لكـنْ لم يصـلْ أحـدٌ في ذلـك اليـوم، كـرَّرَ العمـدةُ ومَـنْ معـه الخـروجَ عِـدَّةَ أيَّـامٍ إلَّا أنَّ الرجـالَ لم يصِلـوا كَذلـك.

قلـقَ العمـدةُ وجمـعَ المجلـسَ الاستشـاريَّ للتشـاورِ في الأمـرِ، وقـرَّرُوا إرسـالَ بعثـةٍ اسـتطلاعيَّةٍ مـن سـتةِ رجـالٍ للبحـثِ عنهـم، وأعطاهـم عنـوانَ مزرعـةِ الزعيـم، وطلـبَ منهـم الحيطـةَ والحـذرَ.

لقـدْ ظـنَّ العمـدةُ أنَّ ذلـك الرجـلَ- الزعيـمَ- احتـالَ عليهـم واسـتعبَدَهم، وربَّمـا حـدثَ لهـم مكـروهٌ بعـد ذلـك؛ لأنَّـه الذي شـجَّعَهم علـى الذَّهـابِ للعمـلِ، كانَ قلقـاً وحزينـاً جِـدّاً، وكانتْ المفاجأةُ القاسـيةُ عندمـا شـاهدَ الحـزنَ باديـاً في الوجـوهِ والقلـقَ خيَّـم علـى الأهالـي، وهم ينتظـرون أمـام سـاحةِ البلـدةِ يطلبـون تفسـيراً لهـذا التأخـيرِ، اسـتقبلَ العمـدةُ الأهالـي وخطـبَ فيهـم، بـكلِّ ثِقَـةٍ مـع أنَّـهُ غـيرُ مُقتنـع بمـا يقـولُ، فـلا بـدَّ مـن تهدِئَـةِ الوضـعِ حتـى تظهـرَ الحقيقـةُ فقـال لَهـم: أيُّها الأحبَّةُ.

علينـا أن نتحلَّـى بالصـبرِ، فلـم يبـقَ إلَّا القليـلُ، واعلمـوا أنَّ الطريـقَ طويـلٌ، وربَّمـا وجـدَ الرجـالُ أنَّ مـن المناسـبِ بعـدَ عمـلِ عـامٍ كامـلٍ الاسـتراحةَ بعـضَ الوقـتَ، وعلينـا الدعـاءُ لهـم بالعـودةِ سَـالمين والاسـتعدادُ لاسـتقبالهم قريبـاً هنـا في هـذه السـاحةِ.

غـادرَ فريـقُ البحـثِ البلـدةَ مُتَّجهـاً نحـوَ الجنـوب، فـكان يُواصـلُ السـيرَ طيلـةَ اليـوم حتَّـى المسـاء، ثُـمَّ يُخيِّـمُ ليـلاً حتَّـى الفجـرِ، بعـد ثلاثـةِ أيـام وبينمـا كان الفريـقُ يسـتريحُ بجانـبِ الطريـقِ في المسـاء لقضـاءِ تلـكَ الليلـةِ شـاهدَ أحدُهـم غُبـاراً كثيفـاً قادِمـاً مـن الجنـوبِ، أسـرعَ وأخـبرَ الفريـقَ، اختبـؤوا خلـفَ تلَّـةٍ صغـيرةٍ مُجـاورةٍ.

لقـدْ حالـتْ سـرعةُ الجيـادِ وكَثَافَـةُ الغبارِ مـن التعرُّفِ علـى الرجالِ، إلَّا أنَّ هـذه القافلـةَ اسـتقرَّتْ في مـكانٍ غـيرَ بعيـدٍ، فقـدْ نزلـوا عـن ظهورِ الخيـلِ لقضـاءِ تلـك الليلـةِ، وشـاهدَ أعضـاءُ الفريـقِ بعـضَ الرجـالِ يجمعـون الحطـبَ ويُشـعلونَ النـارَ، وهـم يـردِّدُون أغنيـةً شـعبيَّةً، وهنـا اعتقـدَ فريـقُ الاستكشـافِ أنَّهـم رجـالُ البلـدةِ، ولكنَّهـم ومـن أجـلِ الحيطـةِ والحـذرِ دفعـوا باثنـين منهـم خلفَهـم، حتَّـى إذا مـا اقتربَـا مـن القافلَـةِ مـن جِهَـةِ الغـربِ درجـةً كافيـةً؛ ليسـتطيعوا التعـرُّفَ عليهـم ركضُـوا نحوَهـم فرحـين، وصاحـوا بهـم: حمـداً للّه علـى سـلامتكم.

نهـضَ الرجـالُ وهـم يشـاهدون اثنـين مـن أقربائِهـم يركضـان نحوَهم فرحـين، فاسـتقبلوهم بسـعادةٍ كبـيرةٍ، ولوَّحـوا لباقـي الفريـقِ ليلحقـوا بهـم، وجلـسَ الرجـالُ يُهنِّئـون بعضهـم البعـض، ويستفسـرون عـن أخبـارِ الأهـلِ والعمـل، وتنـاولَ الجميـعُ الطعـامَ، وسـهروا تلـك الليلـةَ مُسـتمتعين بمـا سمعـوا مـن أخبـارِ الأهـلِ.

وفي الصبـاحَ الباكـرِ أسـرعَ اثنان مـن فريق البحثِ إلى البلـدةِ، ليُخبروا العمـدةَ والأهـلَ بسـلامةِ كلِّ الرجـالِ، وأنَّهـم علـى وشـكِ الوصـولِ.

كانـتْ البلـدةُ في السـاعاتِ الأولى مـن نهـارِ ذلـك اليـوم مليئـةً بالنشـاط والحيويَّـةِ، وكأنَّهـا خليـةُ نحـلٍ اسـتعداداً لاسـتقبالِ الرجـالِ

في ساعات ما بعد الظهرِ، حيثُ خرجَ موكبُ العمدةِ إلى مشارفِ البلدةِ، فيما تجمَّعَ الآخرون في الساحةِ الرئيسةِ في انتظارِ الأحبَّةِ بقلوبٍ شَغِفَةٍ وعيونٍ حيرَى، تراقبُ كلَّ حركةٍ قادمةٍ نحوَ الساحةِ.

بعد لحظاتٍ وصلَ الموكبُ، يتقدَّمُهم العمدةُ ومساعدُهُ وهم يصيحون بأعلى صوتِهم مُردِّدين:

عُدْنا عُدْنا بعـــد غيابٍ عُدْنا عُدْنا يا أحبابُ
بعد اليومِ ما فيه غيـــابُ أبداً أبداً يـا أحبابُ
شبحُ الغربةِ كلُّهُ عـذابُ وبرؤيتِكم كلُّهُ ذابَ

وعندما سمعَ الأهالي صوتَهم يُدَوِّي ردَّدوا قائلين:

أهـــلاً أهـــلاً بالأحبَّـــةِ رجعوا إلينا بعد الغربةِ
غيابكم عنا كان الكربـــة وبرؤيتكم تزول الكربة
أهـــلاً أهـــلاً بالأحـبَّـةِ رجعـوا سـالمين
أهـــلاً أهـــلاً بالأحبَّـــةِ رجعـوا سـعيدين

كان الجميعُ يُحدِّقون بالرجالِ وهم ينزلونَ من العرَباتِ؛ لينخرطوا بينَ الأهلِ، وكلٌ منهم يبحثُ عن زوجته وأبنائه أو والديه وإخوانه في منظرٍ مُدهشٍ، وعندما يعثرُ أحدُهم على ذويهِ يبدأُ العناقُ والسلامُ بحرارةِ الصيفِ، تطفئُها قبلاتُ الأحبَّةِ، وتُهدِّئُ من حرارتِها، في حين كان العمدةُ ومساعدُهُ وآخرون يُراقبونَ هذا المنظرَ الجميلَ، وما هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى بدأَ الجميعُ بالرقصِ والغناءِ،

وكلُّ واحدٍ منهم مشغولٌ بأهله وأحبَّتِه ونسيَ أو تناسى مَنْ حولَه، في تلك اللحظةِ زلزلَ صوتٌ عنيفٌ أرجاءَ الساحةِ وأصمَّ الآذانَ، وهزَّ المشاعرَ، واقشعرَّتْ له الأبدانُ.

سادَ الصمتُ فجأةً، كلُّ مَنْ في الساحةِ وكأنَّ على رؤوسِهم الطيرَ، واتَّجهتْ الوجوهُ نحوَ مصدرِ الصوتِ، وإذا بامرأةٍ تقفُ وحيدةً في آخرِ الساحةِ، وقدْ التفَّتْ يدُ ابنتِها اليافعةِ حولَ عُنُقِها، وصغارُها يتمسَّكون بأطرافِ ثوبِها، وهيَ تبكي بحرارةٍ ولوعةٍ، ثُمَّ صرختْ من جديدٍ بصوتٍ حزينٍ....

أينَ زوجي؟

أينَ زوجي؟

كانتْ تلك المرأةُ ليزا زوجةَ جو، وكانَ صغارُها يبكون خائفين وجلين، وابنتُها سارةُ أشدَّهم رُعباً وخوفاً، انزعجَ العمدةُ، وغضبَ أشدَّ الغضبِ، ولام نفسَه؛ لأنَّه لم يسألْ عن الجميعِ....

نسيَ العمدةُ في فرحةِ اللقاءِ السؤالَ عن الرجالِ واحداً واحداً، فالفرحةُ التي وجدَها في وجوهِهم جعلتْهُ يعتقدُ أنَّ الجميعَ بخيرٍ، وذلكَ جعلَهُ يطمئنُّ كلَّ الاطمئنانِ.

تقدَّمَ العمدةُ بوجهٍ عابسٍ وسألَ بغضبٍ:

أينَ جو يا رجالُ؟

لماذا لم يأتِ معكم؟

ما الذي أخَّرَهُ عنكم؟

كان العمدةُ وجميعُ أهلِ البلدة خاصَّةً ليزا زوجةَ جو وابنتَه سارةَ ينتظرون الإجابةَ من الرجالَ، طأطأَ الرجالُ القادمونَ رؤوسهم ولم يُجْب أحدٌ.

لا يوجدُ لدى أحدٍ منهم الجوابُ الشافي على سؤالِ العمدةِ.

ما زالَ الصمتُ يخيِّمُ على الساحةِ.

ما زالَ العمدةُ وزوجةُ جو بل وأهلُ البلدةِ كلِّها ينتظرون جواباً شافياً؛ لأنَّ الجميعَ اعتقدَ أنَّ مكروهاً أصابَ جو، أعادَ العمدةُ السؤالَ مرَّةً أخرى، ووجَّهَ سؤالَه لجاك الذي أمَّرَهُ على الرجالِ، فقال له:

أينَ جو سيد جاك؟

وما الذي حدثَ له؟

تقدَّمَ جاك نحوَ العمدةِ وواجَهَ الأهالي، وقال:

سيدتي.... أيُّها الإخوةُ...

إنَّهُ لأمرٌ محزنٌ جدّاً أنْ نعودَ إلى البلدةِ دونَ السيد جو؛ لأنَّ ما حصلَ له أمرٌ لا يُصدَّقُ أبداً!

وأخذَ جاك يروي ما حدثَ لجو بالتفصيلِ، والجميعُ بين مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ وبينَ خائفٍ وحائرٍ.

ما كادتْ ليزا زوجةُ جو تسمعُ الحكايةَ حتَّى صرختْ بعنفٍ.

آه... آه... آه

ثُـمَّ وقعـتْ أرضًـا فاقـدةَ الوعي، ومـا زالَ صِغارُهـا يتمسَّـكون بأطرافِ ثوبِهـا، وابنتُهـا سـارةُ تبكـي بلوعـةٍ وحرارةٍ.

أسـرعَ الدكتـورُ سـكوتي لنجدتِهـا وابنتِهـا، وتمَّ إسـعافُها، ثُـمَّ نُقِلَـتْ إلى مَنزلِهـا والنسـوةُ مـن حولِهـا، يُحاولـنَ التخفيـفَ عنهـا، ويرجونهـا أنْ ترحـمَ صِغارَهـا ونفسَـها، وأنْ تتجمَّـلَ بالصـبرِ.

تعجَّـبَ العمـدةُ مـن تلـك الروايـةِ الغريبـةِ والمثيرةِ، وقـال للرجـال والحضـورِ:

كُنَّـا نأمـلُ أنْ نحتفـلَ بعودتِكـم في هـذا اليـوم السـعيدِ إلَّا أنْ فُقـدَانَ أحـدِ الرجـالِ أصابَنَـا جميعًـا بالحـزنِ والأسَـى؛ لذلـكَ نُلغـي الاحتفـالَ ولْيَعُـدْ الجميـعُ إلى منازلِهـم؛ فالرجـالُ –لا شـكَّ– متعبـونَ مـن السـفرِ، ثُـمَّ قـال لجـاك:

لقد أفزعتمونا أيُّها الرجالُ بتأخُّركم عن الموعدِ المُحدَّدِ.

قـال جـاك: لم نتأخـرْ سـيدي، فهذا اليـومُ هو موعدُ وصولنا،حسـبَ الاتفـاق، فنحـنُ وبعدمـا أنْهينـا العمـلَ غادرْنـا المزرعـةَ فـورًا، ولنـا منـذُ تلـك اللحظـة خمسـةُ أيَّـامٍ هـي مسـافةُ الطريقِ.

فكَّرَ العمدةُ قليلاً ثُمَّ تبسَّمَ وقال:

يبدو أنَّني أخطأْتُ ولم أُضِفْ هذه الأيامَ الخمسةَ فترةَ العودةِ.

قال جاك: لا بأسَ سيدي؛ فجميعُنا نُخطئُ..

ثُمَّ أخرجَ من جيبِهِ مِنديلاً وأعطاهُ للعمدةِ قائلاً:

تفضَّلْ سيدي، هذا المبلغُ من المالِ أرسلَهُ الزعيمُ إلى زوجةِ جو لتستعينَ به.

قال العمدةُ: يا له من رجلٍ كريم!

أرجو من جميعِ الرجالِ التواجدَ في البلديَّةِ بعدَ ثلاثةِ أيامٍ لبحثِ أمورٍ كثيرةٍ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

عقدتْ المحكمةُ أوَّلَ جلسةٍ علنيَّةٍ لها في ٣/٥، كانتْ القاعةُ تعجُّ بالناسِ والمُهتمِّين بتلك القضيةِ من صحفيين وشرطةٍ ومخابراتٍ ووالدي سام وغيرهم، وأعلنَ القاضي افتتاحَ الجلسةِ، وطلبَ من وكيلِ النيابةِ الترافعَ وتقديمَ الشهودِ والأدلةِ.

وكيلُ النيابةِ: سيدي القاضي، نحنُ أمامَ قضيَّةٍ غامضةٍ، ورجلٍ صعبٍ ومُحتالٍ، رجلٍ لا يعرفُ شيئًا، ولا يعرفُ أحدًا أو هكذا يَدَّعي، ليسَ هذا فحسبُ سيدي القاضي، إنَّه يُوهِمُ الجميعَ أنَّه قادمٌ من أعماقِ التاريخ، وأنَّ عُمرَهُ مائتا عام، وأنَّه عاشَ على كوكبٍ آخرَ غير الأرضِ مع مخلوقاتٍ غريبةٍ غَير الإنسانِ.

سيدي القاضي، السادةُ المُحلفين.. لقد ظهرَ هذا الرجلُ في مكانٍ عامٍّ بصورةٍ مُفاجئةٍ وغير طبيعيَّةٍ أمامَ مَقهى وعلى الشارعِ العامِّ، وشاهدَهُ ثلاثةُ شبابٍ كانوا يجلسون هناك أمامَ المَقهى، أطلبُ سيدي القاضي أحدَ هؤلاءِ الشبابِ وهو السيدُ روزفلت للإدلاءِ بشهادتِهِ.

موظَّفُ المحكمةِ: السيدُ روزفلت إلى منصَّةِ الشهودِ.

القاضي: أتقسِمُ على قولِ الحقِّ؟

روزفلت: نعم سيدي أقسِمُ أنْ أقولَ الحقَّ.

القاضي: وكيلُ النيابةِ تفضَّلْ بسؤالِ الشاهدِ.

وكيلُ النيابةِ: سيدُ روزفلت، أرجو إطلاعَ المحكمةِ على ما شاهدْتَهُ بتاريخ ٨/٥ قبلَ عامٍ.

روزفلت: كنتُ أجلسُ مع صديقين أمام المَقهى نحتسي القهوةَ ونتحدَّثُ في أمورٍ مُختلفَةٍ....

ويروي روزفلت ما حدثَ ذلك اليومَ.

وكيلُ النيابةِ: كمْ كانتْ الساعةُ بالضبطِ عندما ظهرَ الرجلُ أمامكم؟

روزفلت: كانتْ الساعةُ الحاديةُ عشرةُ والنصفُ صباحًا.

وكيلُ النيابةُ: شكرًا لك سيد روزفلت.

القاضي: مُحامي المتهمِ، تفضَّلْ باستجوابِ الشاهدِ.

محامي المتهم: لا تُوجَدُ أسئلةٌ لديَّ سيدي.

القاضي: محامي السيد تشارلز تفضَّلْ.

المحامي: لا توجدُ أسئلةٌ لديَّ.

القاضي: شكرًا لك سيد روزفلت.

وكيلُ النيابة: سيدي القاضي، هذا الرجلُ يملكُ من الخِدَعِ

والطاقاتِ الغريبةِ ما لا يملكُهُ الآخرون، أطلبُ شهادةَ الآنسةِ سوزي.

موظف المحكمة: الآنسة سوزي إلى منصَّة الشهودِ.

القاضي: أتُقْسِمين على قولِ الحقِّ؟

سوزي: أقسِم سيدي على قولِ الحقِّ.

القاضي: وكيلُ النيابةِ، تفضَّلْ.

وكيلُ النيابةِ: آنسةُ سوزي، أرجو أنْ تُطلعي المحكمةَ المُوقَّرةَ على الوقت الذي فُقِدَ فيه سام ابنُ السيدِ تشارلز من المشفى في بلدةِ (ترنتون).

سوزي: لقد أخبرني الطبيبُ المشرُف عليه أنَّ سام اختفى في الساعةِ الحاديةِ عشرةَ والنصفِ صباحاً، من يوم ٨/٥.

وكيلُ النيابةِ: سيدي القاضي، إنَّ بلدةَ (ترنتون) التي اختفى منها سام تبعدُ حوالي ألفَ كيلو مترٍ عن بلدةِ (جيرسي) والتي ظهرَ فيها المتهمُ في اليوم نفسِهِ والساعةِ بل والدقيقةِ ذاتِها، ولا يُعقلُ أنَّ أيَّةَ وسيلةٍ للنقلِ تقطعُها في أقلِّ من ساعتين ولو كانتْ تلك الوسيلةُ طائرةً نفَّاثَةً، وهذا سيدي يُبطِلُ دعوى السيد تشارلز أنَّ المتهِم هو ابنُهُ المريضُ عقليًّا، وشكرًا.

القاضي: محامي المتهمِ تفضَّلْ.

محامي المتهم: ليستْ لديَّ أسئلةٌ.

القاضي: محامي السيد تشارلز تفضَّلْ.

محامي تشارلز: سيدي القاضي، لقد أكَّدَ الطبيبُ أنَّه لم يُقابِلْ أيَّ صحفيَّةٍ، اعتمدَ زميلي وكيلُ النيابةِ على ذلك التاريخِ الذي

يَدَّعي اختفاءَ سام فيه، واسمحْ لي سيدي أنْ أضعَ بين أيديكم صورًا وأشرطةَ فيديو تُؤكِّدُ بأنَّ هذا هو سام ابنُ مُوكِّلي دونَ أدنى شكّ.

وكيلُ النيابةِ مُقاطِعًا: أرجو من زميلي ومن هيئة المحكمةِ التأكُّدَ من الشريطِ الذي سجَّلتْهُ الآنسةُ سوزي مع الطبيبِ، وأكَّدَ تقريرُ المختبرُ أنَّ الصوتَ هو صوتُ الطبيبِ، ثُمَّ إنَّ الطبيبَ نفسَهُ اعترفَ بذلك، كمَا أنَّ تشابُهَ الشكلِ بين الناسِ ليسَ غريبًا، ولكنْ لا بدَّ من وجودِ علاماتٍ فارقَةٍ بينهم، وأخيراً فإنَّ الاعترافَ سيدُ الأدلَّة، فقدْ اعترفَ المتهمُ أنَّه ليس سام، وأنكرَ معرفتَهُ بالسيد تشارلز وزوجتَهُ والطبيبَ وشكرًا.

كانتْ الأمُّ تهمسُ في أُذُنِ المُحامي الذي يُدافِعُ عن ابنِها.

محامي تشارلز: سيدي القاضي، أرَى أنَّ فيما قاله زميلي وكيلُ النيابةِ شيئًا من الصحةِ؛ إذْ أشارَ إلى قضيَّةٍ مُهمَّةٍ جدًّا ألَا وهيَ العلاماتُ الفارقَةُ بين الناسِ، ولابنِ مُوكلي المتهم علامةٌ فارقةٌ وغير ظاهرةٍ ولا أعتقدُ بأنَّ وجودَها لدى اثنين معًا يَأتي من قبيلِ الصدفةِ أو التشابُهِ بين الناسِ.

القاضي: ما هذه العلامةُ؟

المحامي: يوجدُ في صدرِ سام من الجهة اليُسرى علامةٌ فارقةٌ نتيجةَ إجراءِ عمليةٍ جراحيةٍ له قبلَ عدَّةِ سنواتٍ، وهذه التقاريرُ تُثبتُ ذلك.

القاضي: ليكشفْ المتهم عن صدرِهِ.

يكشفُ المتهمُ عن صدرِهِ وسطَ ذُهولِ الحضورِ وتعجُّبهم، كانتْ العلامةُ واضحةً جدًّا، يهتفُ الجمهورُ المُتعاطِفُ مع تشارلز وزوجتِهِ.

يضربُ القاضي بمطرقتِهِ ويطلبُ من الجمهورِ الهدوءَ.

المحامي: سيدي القاضي، بعد أنْ تأكَّدَتْ هيئةُ المحكمةِ المُوقَّرةُ من الأدلَّةِ التي قدَّمْتُها لها والتي تُؤكِّدُ أنَّ هذا المتهمَ هو سام الطالبُ الجامعيُّ والمريضُ عقليًّا، فأنَا أطالبُ هيئةَ المحكمةِ بإطلاقِ سراحِهِ فورًا؛ لأنَّه بريءٌ من التُّهَمِ المُوجَّهة له، وشكرًا.

المتهمُ يقفُ في القفصِ ويقبضُ بيدِهِ بشِدَّةٍ على قُضبانِهِ، لم يحتملْ تلك المهزلةَ، فصاح غاضبًا:

هذا كذبٌ وخِداعٌ، هذا غيرُ صحيحٍ أبدًا، أنا لستُ سام، أنا جو ويلسون، وأنا لستُ مريضًا أيضًا.

القاضي: اصمتْ أيُّها المتهمُ، ولا تتكلمْ دونَ إذنٍ من القاضي.

المتهمُ: لا سيدي، يجبُ أنْ أتكلَّمَ، وعلى الجميعِ أنْ يسمعَني، كما استمعْتُم لهؤلاء الرجالِ، الأمرُ يعنيني أنا وحدي، وأنا سأتولَّى الدفاعَ عن نفسِي، وسأقولُ لكُم الحقيقةَ كاملةً وإنْ كانتْ غريبةً، وإنْ كانتْ عجيبةً، فإنَّني أقسِمُ أَلَّا أقولَ إلَّا الصدقَ، وسأقَدِّمُ لكم الدليلَ على ما أقولُه لكم.

القاضي: سنستمعُ إليكَ، ولكنْ عليك أَلَّا تُؤلِّفَ حكاياتٍ من خيالكَ.

أخذَ المتهمُ يروي حكايتَهُ، والجمهورُ وحتَّى القاضي بينَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ، وبين مُتعاطِفٍ معه وبين مُتَّهِم إيَّاهُ بالكذبِ والخِداعِ، يُسمَعُ المتهمُ يتحدَّثُ بكلِّ ثِقَةٍ وشجاعةٍ.

القاضي مُقاطعًا: قلتُ لك لا تتحدَّثْ بهذهِ الخرافاتِ أيُّها المتهمُ، ما هذا الهراء الذي تتحدَّثْ به؟

المتهم: أرجوكَ دعْني أُكْمِلُ، سأقدِّمُ لك الدليلَ الآنَ.

القاضي: أكملْ لنرَ ما هو دليلُكَ؟

المتهم: ثُمَّ عِشْتُ على كوكب سيراتا مع تلك المخلوقاتِ الغريبةِ التي كان لديها صناعاتٌ متطورةٌ جِدًّا، وأشياءٌ مُثيرةٌ للدهشةِ، خَطَفُوني وأنا في رحلةِ عملٍ، ورفضوا إعادتي إلى الأرضِ لكنَّهم كانوا كُرَماءِ معي، تعلَّمْتُ لُغتَهُم... وتابعَ المتهمُ: وتعرَّفْتُ على...

القاضي: يكفي هذا، أينَ الدليلُ؟

المتهمُ: منزلي في بلدة (نيوفلج) أو ما تُسمَّى اليومَ جيرسي يقعُ بطرفِ البلدةِ، وما زالَ موجودًا هناك، كشفتُ عن أسرارٍ لا يعرفُها أحدٌ غيري أمام المحققِ، والدليلُ معه سيدي تستطيعُ التأكُّدَ منه.

القاضي: تُرفَعُ الجلسةُ ليوم ٣/١٧.

أُصيبَ السيدُ تشارلز وزوجتُهُ بالصدمةِ عندما ثارَ المتهمُ وأنكرَ أنَّه يعرفُهما، لكنَّ المحامي أكَّد لهما أنَّ الموقفَ في صالحِهما، وأنَّ الأدلَّةَ التي معهما قويَّةً، وأنَّ ما يقولُهُ المتهمُ يؤكِّدُ أنَّه مريضٌ عقليّاً وبالتالي سيُطلَقُ سراحَهُ.

يا للسماءِ! أينَ أنتَ سيدُ نورمان؟ هلْ من المعقولِ أنَّك لم تسمعْ عن عودتي، ولم تسمعْ عن سِجني والاتهاماتِ الموجَّهَةِ إليَّ؟ – صمَتَ بُرهَةً وكأنَّهُ يختلفُ مع نفسِه– نعم لا بدَّ أنَّه اختفى كالآخرين، تابع المتهمُ: إنَّها مؤامرةٌ.... مؤامرةٌ دنيئةٌ بكلِّ ما تحملُ الكلمةُ من معنًى– حدَّثَ المتهمُ نفسَه وهو خارجٌ من قاعةِ المحكمةِ– كان برفقةِ الحُرَّاسِ وثَمَّةَ جمعٌ كبيرٌ من الناسِ

حولَـه: لا أحـدَ يفهمُـني، مـاذا أفعـلُ بحـقٍّ؟

كانـتْ سـيارةُ السـجنِ بانتظـارِه أمـام المحكمـةِ، غـادرتْ السـاحةَ، واخترقـتْ شـوارعَ البلـدةِ فيمـا كانَ المتهـمُ يحـدِّقُ مـن خـلال النافـذةِ، يشـاهدُ البنايـاتِ والأشـجارِ والنـاسِ والسـياراتِ، لا شـيءَ يُوحـي بأنَّهـا بلدتُـه الـتي تركَهـا قبـل شـهورٍ، اختفتْ العربـاتُ الـتي تجرُّهـا الخيـولُ تمامـاً، حتـى الخيـولُ الـتي كانـتْ تمشـي بكثـرةٍ في شـوارعِ البلـدةِ لم يعـدْ لهـا وجـودٌ.

توقفـتْ السـيارةُ، فُتِـحَ البـاب وأمسـكَ بـه شـرطيان اقتـاداه إلى الداخـلِ، وأُلقِـيَ بـه في غرفتِـه الرطبـةِ الـتي يلفُّهـا السـكونُ، ليـس لهـا إلَّا نافـذةٌ صغـيرةٌ عاليـةٌ وفيهـا سـريرُهُ الصـدئ، وكلُّ مـا في الغرفـةِ قبيـحٌ ويُوحـي بالكآبـةِ.

اسـتلقى علـى السـريرِ، وأعـاد شـريطَ المحكمـةِ، فأخـذتْ الصـورُ تمـرُّ في ذهنـه بسـرعةِ البـرقِ: لقـد دافعـتُ عـن نفسـي بشـكلٍ جيِّـدٍ، لا أعلـمُ لمـاذا أجَّـلَ القاضـي المحكمـةَ ثانيـةً، كان عليـه أنْ يُصدِّقَـني وأنْ يطلـقَ سـراحي، لقـد تأكَّـدْتُ الآن أنَّهـم جميعـاً أعـداءٌ لـي يحاولـون الإيقـاعَ بـي، ولكـنْ لـنْ أسمـحَ بذلـك، سـيكونُ الـربُّ معـي كمـا كانَ دائمـاً، فأنـا رجـلٌ مؤمـنٌ... أصلِّـي لـه دائمـاً... لم أقـمْ يومـاً بعمـلٍ يُغضِـبُ الـربَّ.

كنـتُ دائمـاً أسـاعدُ النـاسَ؛ لا بـدَّ أنْ يُسـاعدَني الـربُّ في مِحنـتي هـذه، أو أنْ يبعـثَ أحـداً يقـفُ إلى جانـبي، وصمـتَ قليـلاً، لم تكـنْ تلـك المصيبـةَ الأولى لـي، وتذكَّـر أيامَـهُ الأولى وعـادَ ثانيـةً يعيـشُ في ماضيـه.....

نيوفلج ١٨٦٦

أفاقتْ سارةُ من نومِها في صباحِ اليومِ التالي والابتسامةُ ما زالتْ على شفتيها، وملامحُ الفرحةِ ظاهرةٌ على وجنتيها، أرادتْ سارةُ أنْ تنقلَ تلك الابتسامةَ المُوشَّحةَ بالحزنِ لوالدتِها الثكلَى في زوجها، وأنْ تبشرَها بما رأتْ في ذلك الحُلْم، التفتتْ سارةُ إلى والدتِها وإذا بها على الهيئةِ التي تركتْها عليهَا قبلَ أنْ تنامَ حين غلبَها النعاسُ وأعياها البكاءُ.

حزنتْ سارةُ على والدتِها، وحاولتْ التخفيفَ عليها؛ لتنامَ بهدوءٍ، لكنَّ الأمَّ أفاقتْ على لمسةِ ابنتِها الرقيقةِ، وما زالتْ خيوطُ دموعِها فوقَ خدَّيْها، ولشدَّةِ حرارتِها بدتْ كأخاديدَ حُفِرَتْ على وجنتيها، مسحتْ سارةُ دموعَ والدتِها المنهارةِ والمنهكةِ بكلِّ رقَّةٍ وحنانٍ، وألقتْ بنفسِها في أحضانِها؛ لعلَّها تُعطيها جَرْعةً من الثباتِ والصبرِ، وحتَّى تُشعرُها بأنَّها معها فقالتْ لها:

يجبُ أن تكوني قويَّةً يا أمي، يجبُ أنْ يكونَ لديكِ الإيمانُ بأنَّ والدي ما زال حيّاً، وأنَّه سيعودُ بالتأكيدِ.

قالتْ الأمُّ: لا تضحكي عليَّ وعلى نفسك يا سارة؛ فالأمرُ واضحٌ جِدّاً، ولو كان والدُك حياً لعادَ مع الرجال، ولو افترضْنَا أنَّه أخطأَ الطريقَ أثناءَ الذَّهابِ لعاد إلينا بعد هذه المُدَّةِ الطويلةِ، فأينَ هوَ إذنْ؟ لا شكَّ.....

قاطعتْها سارةُ وقالتْ: لا يا أمِّي، أرجوك لا تُكملي، لا تقولي ذلك أبداً، قلتْ لكِ: إنَّه ما زالَ حيّاً.

لقد أخبرني بنفسه هذه الليلة، نعم، لقد جاءني أبي هذه الليلة وأخبرني أنَّه حيٌّ، كنتُ سعيدةً، أفقتُ من نومي وأنا أبتسمُ فرِحَةً، وهو يُودِّعُني.

قالتْ الأمُّ: ماذا؟

أتقولين إنَّه حيٌّ وجاءكِ الليلةَ؟

ولكنْ كيفَ؟

لماذا لم يأتِ إليَّ؟

قالتْ سارةُ: يبدو أنَّه رآكِ مُتعبةً ونائمةً فجاءني وقال لي:

أنا ما زلتُ حيّاً يا ابنتي، أخبري والدَتَكِ أنْ تكُفَّ عن البكاء؛ لأنِّي سأعودُ إلى البلدةِ يوماً.

لقد رأيتُه على هيأتِهِ التي سافرَ بها قبلَ عام، وكان يبدو عليه التعبُ والإرهاقُ، وهو يرقدُ في سريرٍ جميلٍ وَقلتُ له:

نريدُ أنْ نطمئِنَّ عليك أبي، أخبرْني أينَ أنتَ الآنَ؟

قال: لا أدري يا ابنتي، ولكنِّي بخيرٍ.

قلتُ له: لماذا تركتَ الرجالَ وذهبتَ وحدَك؟

قال: لا يا ابنتي، لا تقولي ذلك.

فأنا لم أتركْهم بإرادتي، لكنَّ تلك الليلةَ أصابني ألمٌ حادٌ اخترقَ أوصالي ومزَّقَ صدري؛ فوقعتُ على الأرضِ من شِدَّةِ الألم، وبدأتُ أتخبَّطُ كدجاجةٍ مذبوحةٍ، حاولتُ الصراخَ ليسعفَني أَحدُهم... لكنَّني لم أستطعْ.

بعد ذلك أحسَسْتُ بأيدٍ تمتدُّ إليَّ وتُسعفُني فشعرتُ بالراحةِ، ثُمَّ حملتْني الأيدي معها، وطارتْ بي في السماءِ، وأنا الآنَ أعيشُ بينهم، إنهم رائعون، ويهتمُّون بي كثيرًا.

قلتُ له: يجبُ أنْ تعودَ يا أبي؛ نحنُ بحاجةٍ إليك.

نحنُ نحبُّك يا أبي.

قال لي: وأنا أيضًا يا ابنتي.

سأعودُ إليكم، سأساعدُكم، هذا وعدٌ، فأصدقائي وعدوني بالمساعدة في العودةِ للوطنِ.

كانتْ الأمُّ تستمعُ لابنتِها باهتمام بالغ كأنَّها فتاةٌ صغيرةٌ، تستمعُ إلى حكايةٍ من جَدَّتِها قبل أنْ تنامَ؛ فعادَ لها البِشْرُ، ثُمَّ قالتْ لابنتِها: أمتأكِّدَةٌ من ذلك يا ابنتي؟

هل أخبركِ أنَّه سيعودُ ليساعدَنا؟

قالتْ سارة: نعم يا أمي، وأقسمُ على ذلك.

فجأةً سمعتْ الأمُّ صوتَ البابِ يدقُّ.

وإذا به العمدةُ وزوجتُهُ جاءا للاطمئنانِ على عائلة جو ومساعدتِهم، وكانتْ زوجةُ العمدةِ تحملُ كيسًا من المواد التموينية.

رحَّبتْ سارةُ بالضيوفِ، وأمُّها تجلسُ حزينةً تتوقُ إلى أنْ تسمعَ من العمدةِ كلامًا يريحُ أعصابَها، ويخفِّفُ عنها حُزْنَها وألَمَها.

قال العمدةُ: أرجو يا سيدتي، أنْ تكوني بخيرٍ، وأنْ تتجملي بالصبرِ؛ فنحنُ جميعًا معك.

ثُـمَّ أخـرجَ المنديـلَ وقدَّمَـهُ لزوجـةِ جـو وقـال لهـا: تفضَّلـي سـيدتي، هـذا المبلـغَ مـن المـالِ، أرسَـلَهُ لـكِ السـيدُ جـو مـع الرجـالِ.

أخـذتْ الدهشـةُ والاسـتغرابُ الأمَّ، تَتوشَّـحُها ابتسـامةٌ حزينـةٌ حـين رأتْ داخـلَ المنديـلِ نقـوداً حقيقيَّـةً، وهـذا مـا تَنَبَّـأَتْ بـه سـارةُ قبـلَ قليـلٍ، وهـذا مـا يُؤَكِّـدُ لهـا أنَّ جـو مـا زالَ حيًّـا.

قالـتْ سـارة بفـرحٍ: ألمْ أقـلْ لـكِ أمـي أنَّ أبـي سـيبعثُ مـالاً وسـيعودُ إلينـا؟ .....ً أرأيـتِ؟

التفتتْ زوجةُ العمدةِ وهمستْ في أذنِهِ قائلةً له:

ما الذي قلتَهُ لها يا رجلُ؟

قال العمدة: هل أخطأتُ في شيءٍ؟

قالتْ زوجتُه: نعم.

لقد أخبرتَها أنَّ زوجَها مَنْ بعثَ المالَ.

أَلَا تراها سعيدةً بهذا الخبرِ؟

لقدْ سُرَّتْ زوجةُ جو بما سمعتْهُ من العمدةِ فقالتْ له:

هل قلتَ سيدي، أنَّ زوجي هو مَنْ بعثَ المالَ لنا؟

قال العمدةُ: عفوًا سيدتي.

لم أقصدْ ما تفهمينَه بالضبطِ.

لكـنَّ الزعيـمَ صاحبَ المزرعةِ هو الـذي بعثَ المالَ بالنيابةِ عن زوجِكِ، أخبرني الرجالُ أنَّ زوجَك ضلَّ الطريقَ أثناءَ الليلِ ولا بدَّ أنَّه سيعودُ قريبًا.

قالتْ سارةُ: نعم سيدي، لقد أخبرني هذه الليلةَ أنَّهُ سيعودُ.

استغربَ العمدةُ مِمَّا سمعَهُ من سارةَ وقال لها:

أخبريني يا ابنتي، ماذا قال لك السيد جو؟

بدأتْ سارةُ تروي للعمدةِ وزوجتِهِ ما شاهدتْهُ في الحُلْمِ تلك الليلةَ، والعمدةُ يستمعُ لها بشغفٍ كبيرٍ.

بالرغم من أنَّ العمدةَ لديهِ إحساسٌ قويٌّ أنَّ جو قدْ ماتَ، إلَّا أنَّه وجدَ في حُلْمِ سارةَ ما يُبَدِّدُ ذلكَ.

قال العمدةُ: الحمدُ للّهِ، هذهِ أخبارٌ جيِّدَةٌ، وتبشرُ بخيرٍ، إنَّ ذلك شعورُنا جميعًا؛ كوني مُطمئنَّةً سيدتي، غدًا سأجتمعُ بالرجالِ، وسأبحثُ معهم أمرَ زوجِكِ والبحثَ عنه.

قصَّ العمدةُ ذلك الحُلْمَ على الرجالِ واللجنةِ الاستشاريَّةِ.

دُهِشَ الرجالُ مِمَّا سمِعُوا، وأكَّدوا أنَّ ذلك ما حدثَ بالضبطِ مع جو، وما أكَّدَهُ لهم الزعيمُ، وأنَّ ذلك حقيقةٌ وأصبحَ لديهم ثِقَةٌ بعودةِ جو، وانتشرَ الخبرُ سريعاً في البلدةِ كلِّها وأصبحَ حديثَ الناسِ.

أطلعَهم العمدةُ على القراراتِ التي اتَّخذَها المجلسُ الاستشاريُّ للبلدةِ من أجلِ تطويرِها وتحديثِها.

لقدْ تعلَّمَ أهلُ البلدةِ الزراعةَ بشكلٍ جيِّدٍ، ولكنَّ البعضَ من الرجالِ الذين هم أصحابُ صناعةٍ وخبرةٍ من قبلُ أخبروا العمدةَ قبلَ سفرِهم عن نيَّتِهم في بناءِ مصانعَ في البلدةِ بعدَ عودتِهم؛ لتُساعدَ أهلَ البلدةِ في العملِ لرفعِ مُستوى البلدةِ اقتصاديًّا.

أوصى المجلسُ بإقامةِ عددٍ من المشاريعِ الصناعيَّةِ الهامَّةِ التي يريدُها الرجالُ والتي ستُساعدُ في تشغيلِ أكبرِ عددٍ من أهلِ البلدةِ، اتَّفقَ الرجالُ على تشكيلِ مجموعاتٍ لتُشكِّلَ كلُّ مجموعةٍ شركةً خاصَّةً لإقامةِ ثلاثةِ مصانعَ، وأوصى المجلسُ بمنحَ تلك الشركاتِ قِطَعِ أراضٍ متساويةٍ قُرْبَ المنطقةِ الزراعيَّةِ.

بدأتْ الشركاتُ في إقامةِ الأبنيةِ اللازمةِ، وطلبَ العمدةُ من كلِّ شركةٍ إرسالَ مندوبٍ عنها؛ ليرافقَهُ إلى العاصمةِ لشراءِ الآلاتِ اللازمةِ لتلكَ المصانعِ وتقسيطِ باقي الثمنِ.

غادرَ العمدةُ، والوفدُ المُرافقُ البلدةَ، مُتوجِّهينَ نحوَ العاصمةِ، تَمَّ شِراءُ تلك الماكيناتِ، وبقيَ المُرافقون في العاصمةِ للتدريبِ عليها، حتَّى يستطيعوا العملَ عليها، عند تركيبِها في مصانِعِهم؛ ذلك أنَّ الماكيناتِ التي اشتراها العمدةُ أكثرُ حداثةً ممَّا تعوَّدَ عليه الرجالُ من قبلُ.

قام العمدةُ بتفَقُّدِ بعضِ أعمالِهِ هناك، لم يُفَكِّرْ العمدةُ بإقامةِ مصانعَ له في البلدةِ؛ لأنَّه يعملُ في التجارةِ فقطْ، وفكَّرَ أنْ يعودَ قريبًا إلى مكانِ إقامتِهِ الدائمِ.

عاد العمدةُ ومرافقوه إلى البلدةِ ومعهم مُهندِسون ليقوموا بتركيبِ تلك الماكيناتِ والإشرافِ عليها حتَّى تعملَ، وذلكَ حسبَ الاتِّفاقِ مع الشركةِ الصانعةِ لها، كانتْ فرحةُ الأهالي كبيرةً بعودةِ العمدةِ والرجالِ، واستقبلوهم استقبالَ الأبطالِ.

بعد شهورٍ قليلةٍ وإذا بالمصانعِ تعملُ بشكلٍ جيِّدٍ، أخذَ التطورُ والعمرانُ يمتدُّ شيئاً فشيئاً، واتسعتْ البلدةُ، وبدأتْ ملامحُ الرضا والسعادةُ تظهرُ على وجوهِ الجميعِ، كانتْ الحربُ قدْ انحسرتْ

في أماكنَ مُحدَّدةٍ، ولاحتْ في الأفقِ بوادرُ الانفراجَ.

كانتْ ليزا تعيشُ مع ابنتِها وولدَيها دونَ رجلٍ يحميهم ويعتني بهم؛ مِمَّا ولَّدَ لديها شعورًا بالوحدةِ، بالرغم من أنَّ إحساسَها بمجيءِ الوقتِ الذي يعودُ فيه زوجُها صارَ يقينًا، إلَّا أنَّها خشيتْ أنْ تذهبَ المزرعةُ من أيديهم؛ لأنَّها تعرفُ جون على حقيقتِهِ، فهو الذي لم يكترثْ لهم، ولم يسألْ عنهم طيلةَ تلك المُدَّةِ التي غابَ فيها جو؛ لأنَّ همَّهُ الوحيدَ هو المالُ، وما الذي يمنَعُ شخصًا بجَشَعِ جون من أنْ يأخذَ المزرعةَ منهم؛ ليعطيَها لأيِّ رجلٍ يعتمدُ علَيه، ويدفعُ له مالاً أكثرَ؟

كانتْ ليزا زوجةُ جو تحسبُ ألفَ حسابٍ لأبناءِ جورج الذين تعمَّدُوا مُضايقةَ سارةَ في كلِّ مرَّةٍ تذهبُ فيها إلى المزرعةِ، وخشيتْ أنْ يستغلَّ ستيف غياب جو؛ ليزدادَ تهديدُه لابنتِها، تعوَّدَتْ سارةُ مساعدةَ والدِها في المزرعةِ، وحافظتْ عليها جيِّدًا أثناءَ غيابِهِ، وهي تعي جيِّدًا ما يقلقُ والدتَها؛ فوضعتْ نصبَ عينيها هدفاً واحداً، ألَا وهو الاحتفاظُ بالمزرعةِ، كانتْ تسعى بكلِّ قُوَّتِها لتطويرِها وزيادةِ إنتاجِها.

كانتْ الفترةُ الماضيةُ كفيلةً بجعلِ سارةَ فتاةً قويَّةً وناجحةً، ساعدَها في ذلك بقاءُ الزبائنِ على عَلاقةٍ جيِّدَةٍ معها، لكنَّ سارةَ لم تستطعْ دفعَ المبالغِ المُترتِّبَةِ عليها لعمِّها في الأوقاتِ المُحدَّدَةِ مِمَّا حدَا بعمِّها إلى مُطالَبَتِها أكثرَ من مرَّةٍ بتسليمِ المزرعةِ له، وطالبَها إنْ رفضتْ بزيادةِ الأُجرَةِ السنويَّةِ، ولم تكنْ هذهِ المرَّةُ الأولى التي يطالبُ فيها جون باسترجاعِ المزرعةِ؛ إذْ سبقَ له وأنْ طالبَ جو مرَّاتٍ عديدةً.

لم تصدقْ سارةُ ما سمعتْهُ من عمِّها، كانتْ سارةُ تتوقَّعُ أنْ يمدَّ لها عمُّها يدَ العونِ والمُساعدةِ إذا لزمَ الأمرُ خاصَّةً في المِحنةِ التي تمرُّ بها العائلةُ بعد غيابِ والدِها، حاولتْ سارةُ إقناعَ عمِّها بالعدولِ عن مطلبِهِ إلَّا أنَّه أصرَّ على ذلكَ.

أبقتْ سارةُ الأمرَ سِرًّا، لم تخبرْ والدتَها، تذكَّرَتْ أنَّها سمعتْ عمَّها من قبلُ يطالبُ والدَها بذلك، وسمعتْ أصواتَهم ارتفعتْ، لكنَّها تذكَّرَتْ أيضًا أنَّ والدَها هدَّدَ بكشفِ أمرِ عمِّها لزوجتِهِ حتَّى تراجعَ عن مطالبتِهِ، لكنَّها لم تعلَمْ حقيقةَ الأمرِ الذي هدَّدَ بهِ والدُها حتَّى تستطيعَ استخدامَهُ ضدَّ عمِّها.

قرَّرَتْ سارةُ مُحاولةَ تهديدِ عمِّها لعلَّ ذلك يُجدي نفعًا، قامتْ بزيارةِ عمِّها في بيتِهِ، كانتْ تربطُ سارةَ بزوجةِ عمِّها عَلاقةٌ حميمةٌ جِدًّا، وكانتْ جيسي تحبُّ سارةَ كثيرًا وكأنَّها ابنتُها، طلبتْ من عمِّها تخفيضَ الأُجرَةِ أمامَ زوجتِهِ قائلةً له:

تعلمُ يا عمُّ أنَّ والدي كانَ يعملُ أحيانًا عند الكثيرِ من الناسِ؛ ليكسبَ بعضَ النقودِ التي تُساعدُهُ في مصروفِ العائلةِ إلى جانبِ عملِهِ في المزرعةِ أمَّا أنَا فوحيدةٌ لا أستطيعُ العملَ، والمزرعةُ تأخذُ كلَّ وقتي وجهدي، وربَّما لا تكفي للإنفاقِ علينا، وأنتَ يا عمُّ في مقامِ والدي؛ يجبُ أنْ تُساعدَنا حتَّى يعودَ أبي.

قالَ العمُّ: أنتِ يا سارةُ، فتاةٌ جميلةٌ ورقيقةٌ، يجبُ أنْ تبقِي في البيتِ؛ لتحافظي على جمالِ بشرتِكِ، والأرضُ بحاجةٍ إلى رجلٍ يعملُ بها.

قالتْ سارةُ: وكيفَ سنعيشُ يا عمُّ؟

قاطعتْهم جيسي وقالتْ: يا سارةُ، عمُّك كوالدِك كمَا قلتِ، وسينفقُ عليكم حتَّى عودةِ أبيكِ، سيكونُ ذلكَ دينًا، يُسدِّدُهُ والدُك بعدَ عودتِه.

كان جون يحاولُ مُقاطعتَها وهو مُغتاظٌ جِدًّا من تدخُّلِ زوجتِهِ في الأمرِ.

قال جون صارخًا: ماذا تقولينَ يا جيسي؟

هلْ جُنِنْتِ يا امرأةُ؟

كيفَ سأنفقُ علينا وعليهم، وأنتِ تعلمينَ أنَّ الوضعَ صعبٌ ولا يُحتمَلُ ؟

قالتْ سارةُ: شكرًا لكِ يا زوجةُ عمي، أنا لا أقبلُ يا عمُّ، أنْ أستقبلَ والدي بالديونِ، حتَّى لو كانتْ منكَ أنتَ، إنَّني قادرةٌ على العملِ والإنفاقِ على أمِّي وإخوتي.

قال العمُّ: أنا لم أقصدْ يا سارةُ، لكنْ يجبُ على أمِّكِ أنْ تعملَ، أمُّكِ يا ابنتي لم تحركْ ساكنًا.

قالتْ سارةُ: أمِّي! ماذا تريدُ من أمِّي أنْ تعملَ؟

قال العمُّ: خادمةً في البيوتِ، ستجدُ الكثيرين يفتحونَ لها أبوابَهم؛ أمُّكِ جميلةٌ وما زالتْ شابَّةً.

قالتْ سارة: لا تُكملْ أرجوك، أنا لا أسمحَ بذلك أبداً.

احتدمَ النقاشُ بينهما، وقاطعتْ زوجةُ العمِّ الجلسةَ قائلةً:

أرجو المعذرةَ... سأعدُّ لكم كوبًا من الشاي.

قال العمُّ: سمعتُ أنَّ والدَ أمِّكِ رجلٌ غنيٌّ جِدًّا، لماذا لا تبحثُ أمُّكِ عنه وتعيشون في قصرِهِ.

قالتْ سارةُ: يا عمُّ، لم أُرِدْ التحدُّثَ أمامَ زوجتِكَ؛ لأنَّني أخشَى عليكَ منها، فما زلتُ أعتبرُك كوالدي، وسُمْعَتُك تَعنيني بالتأكيدِ، ونحنُ لسنا بحاجةٍ لأحدٍ حتَّى لو كانَ جَدِّي.

قال العم: عن ماذا تريدين أنْ تتحدَّثي، فأنَا ليسَ عندي أسرارٌ أُخفيها عن أحدٍ.

قالتْ سارة: لقدْ أخبرني والدي قبلَ سفرِهِ بكلِّ شيءٍ، وإنْ لم تقبلْ نصفَ المبلغِ فأنَا مُضطرَّةٌ لإبلاغِ زوجتِك بذلك وأنتَ وشأنُك.

قال العمُّ وجِلاً: لا.. لا..

أنا كنتُ أُمازِحُكِ يا ابنتي، وليبقَ كلُّ شيءٍ على حالِهِ.

قالتْ سارةُ: بلْ سأدفعُ لك نصفَ المبلغِ فقطْ، وإلَّا....

دخلتْ جيسي وهي تحملُ إبريقَ الشاي وقليلاً من الكعكِ على صينيةٍ من النحاسِ.

قال العم: كما تريدين يا ابنتي، فإنَّ طلباتِ زوجةِ عمِّك أوامرُ، وأنا لا أستطيعُ رفضَ أيِّ طلبٍ لها.

قالتْ جيسي: هذا من دواعي سروري يا سارةُ، الحمدُ للّهِ أنَّكم اتفقْتُم أخيراً.

قالتْ سارة: شكرًا لكِ زوجةَ عمِّي، ولكَ أيضًا يا عمُّ.

زفَّتْ سارةُ البُشْرَى إلى أمِّها وأخبرتْها أنَّ عمَّها كانَ كريمًا معها وقبلَ بنصفِ الأُجْرَةِ، وطلبَ منها الاحتفاظَ بالأرضِ، فرحتْ الأمُّ كثيرًا وهي غيرُ مصدِّقَةٍ ما يحدُثُ، بقيتْ الأمُّ تعملُ في المنزلِ وتربِّي الصغارَ، وأخذتْ سارةُ تعملُ في المزرعةِ، والأمورُ على خيرِ وجْهٍ.

عاشتْ الأمُّ على أنغامِ ذلك الحلمِ، وهي تُقنِعُ نفسَها أنَّ زوجَها سيعودُ هذا اليومَ وفي المَساءِ، وعندما ينقطعُ الأملُ بعودتِهِ تقولُ لنفسِها إذنْ سيعودُ غدًا، وسأنتظرُه وهكذا، تمرُّ الأيامُ مسرعةً، وسارةُ تتحمَّلُ المتاعبَ في المزرعةِ بمُفردِها.

حزنَ السيدُ جورج كما حزنَ كلُّ أهلِ البلدةِ على ما حدثَ لجو، وطلبَ من أبنائه عدمَ التعرُّضِ لسارةَ والعملَ على مُساعدتِها كلَّمَا استطاعوا ذلك، طلبَ السيدُ جورج من زوجتِهِ زيارةَ عائلةِ جو وتقديمِ ما تستطيعُ من موادَّ تموينيةٍ لهم.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

في ٣/١٧ عقدتْ المحكمةُ جلستَها الثانيةَ.

القاضي: سيدُ آدم، أنتَ تولَّيْتَ التحقيقَ مع المتهمِ، هلَّا أطلعتَ المحكمةَ على ما توصلتَ إليهِ.

آدم: نعمْ سيدي، لقدْ ذُهِلْتُ أنا ومَنْ معي من المُحققينَ عندما كَشَفَ المتهمُ عن أسرارٍ غريبةٍ، لقدْ كشفَ المتهمُ عن مبلغٍ من المالِ، وَصَفَهُ لنا قبلَ الكَشفِ عنهُ، وكانَ مدفونًا أمامَ منزلٍ خَرِبٍ

في قطعةٍ أرضٍ يقولُ المتهمُ بأنَّها له وفي مكانٍ لم يلمِسْهُ إنسانٌ منذُ عشراتِ السنين، وكشفَ لنا أيضًا عن ورقةٍ قديمةٍ مدفونةٍ داخلَ المنزلِ أيضًا تؤكِّدُ أنَّ اسمَهُ جو فعْلًا، وأنَّه صاحبُ تلك الأرضِ، وقدْ سلَّمَنَا ورقةً وهي عبارةٌ عن اتفاقيَّةٍ كتبَها العمدةُ نورمان الذي عاشَ قبلَ مائةٍ وخمسين عامًا، مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ.

أكَّدَ تقريرُ المُختبرِ أنَّ تلك النقودَ والورقةَ تعودُ للفترةِ التي ذكرَها لنا المتهمُ نفسَها.

القاضي: شكرًا لك سيد آدم، ثُمَّ طلبَ من وكيلِ النيابةِ أنْ يبدأَ بالمرافعةِ.

وكيلُ النيابةِ: سيدي القاضي، مهما حاولَ المتهمُ إيهامَنَا بهذه الخرافاتِ التي لا أساسَ لها من الصحَّةِ فإنَّ العقلَ والمنطقَ يقولُ أنَّ المتهَم ما زالَ شابًّا في العقدِ الثالثِ من عُمرِهِ، ونقولُ أنَّه لا وجودَ لبشرٍ على وجه الأرضِ يزيدُ عمرُه عن مائةٍ وأربعين عامًا على الأكثرِ، أمَّا ما كان من أمرِ النقودِ والورقةِ والاتِّفاقيَّةِ التي قدَّمَها المتهمُ دليلاً فهي موجودةٌ مع الكثيرين، وربَّما وضعَها هو بنفسِهِ قبلَ سنواتٍ عِدَّةٍ، أو أنَّ هناك جهةً مُعيَّنةً وضعتْها، وأعطتْهُ تلكَ المعلوماتِ؛ لتكونَ دليلاً له حالَ إلقاءِ القبضِ عليه.

يقفُ محامي تشارلز مُقاطعًا: أنا أعترضُ سيدي على ما قاله زميلي وكيلُ النيابةِ، سام لم يسبقْ له مُغادرةَ البلادِ طيلةَ حياتِهِ، وأكَّدَ كلُّ مَنْ عرفَهُ من زملاءٍ وأصدقاءَ ومُعلمين أنَّه لا همَّ له إلَّا الدراسةُ، وأكَّدَ الطبيبُ أنَّ سام مريضٌ عقليًّا، ويُعاني من ازدواجٍ في الشخصيَّةِ في الفترةِ الأخيرةِ و...

كان جميعُ مَنْ في القاعةِ حتَّى القاضي يُراقِبُ المتهمَ، كان المتهمُ يبتسمُ كأنَّهُ يتكلَّمُ مع شخصٍ آخرَ ويسمعُ له ويُصفِّقُ بيديهِ.

القاضي: ماذا تفعلُ؟

فجأةً كان الناسُ يهربون وهم يتصايحون.

اختفى المتهمُ من القفصِ المُحاطِ برجالِ الشرطةِ أمامَ أعينُنِ الجميعِ كأنَّهُ ماءٌ تبخَّرَ.

ذُهلَ القاضي وهيئةُ المُحلفين، ما زالَ الناسُ يتراكضون ويصيحون، وأحدثوا فوضًى كبيرةً، وحاولَ القاضي ومَنْ معه النهوضَ والخروجَ من القاعةِ.

أمام أعينُنِ القاضي ومَنْ معه ظهرَ المتهمُ من جديدٍ في قفص الاتهام، جلسَ القاضي وجلسَ المُحلفون مُذهولين كأنَّ على رؤوسِهمَ الطيرَ، أخذَ القاضي يضربُ بمطرقتِه، ويطلبُ من الناسِ المُتواجدين هنا وهناك الجلوسَ في أماكنِهم، والتزام الصمتِ، ما هي إلَّا لحظاتٍ حتَّى عاد الأمرُ كما كانَ، وهدأَتْ الأصواتُ، والكلُّ ينظرُ ويحدِّقُ في المتهم، ويجولُ بنظَرِهِ هنا وهناك خوفًا من وجودِ المخلوقاتِ الغريبةِ الَتي ذكرها المتهمُ قبلَ ذلك.

القاضي: أينَ ذهبتَ أيُّها الرجلُ؟ وكيفَ حدثَ ذلك؟

المتهم مبتسمًا: أصدقائي من كوكبِ سِيراتا هنا معنا، يحضرون هذه المسرحيَّةِ الهزليَّةِ سيدي، إنَّهم هناك.

وأشارَ المتهمُ إلى مكانٍ عالٍ في القاعةِ، لا يُمكنُ لشخصٍ أنْ يكونَ فيه.

القاضي وجِلاً: أنا لا أرى أحدًا.

المتهمُ: أنا وحدي أستطيعُ رُؤيتَهم والتحدُّثَ معهم.

القاضي: وماذا يفعلونَ هنا؟

المتهمُ: عندما علِموا أنَّكم لا تُصدِّقُونني تعجَّبوا من ذلك، وقدَّموا لي أدلةً كثيرةً، كلُّها تُؤكِّدُ أنَّ كلَّ ما قلتُهُ لكم صحيحٌ، ثُمَّ طلبُوا مني العودةَ للحياةِ عندهم، لكنَّني رفضتُ، أتعلَمُ لماذا سيدي؟ لأنِّي أريدُ أنْ أعيشَ بينَ أهلي... بينكم سيدي القاضي، ثُمَّ عرضوا عليَّ إخراجي من هنا، وإرسالي إلى أيِّ مكانٍ آخرَ أريدُه لكنَّني رفضتُ أيضًا، أتعلَمُ لماذا يا سيدي؟

القاضي: لماذا؟

المتهمُ: كنتُ آملُ من أبناء شعبي وأهلي تَصديقي؛ لأنَّني أحبُ العيشَ معهم وبينهم مع زوجتي وأبنائي... بينكم سيدي القاضي.

أخذَ الجميعُ يُصفِّقُ بصوتٍ مرتفعٍ ويهتفُ، ويطلبُ من القاضي إطلاقَ سَرَاحِهِ.

المتهمُ: سيدي، اختفائي وعودتي إليكم أمامَ أَعيُنِكم خيرُ دليلٍ على صدقي وعلى أنَّ كلَّ ما قلتُه ليسَ تأليفًا كما سبقَ أنْ اتَّهمتَني والآخرون، وهذا ما يُوجِبُ عليكم إطلاقَ سراحِي ومُساعدَتِي في العثورِ على زوجتي وعائلتي، أمَّا بالنسبةِ لعُمري فإنَّ أبناءَ شعبِ سيراتا يعيشون ألفَ سنةٍ وأكثرَ، فما العجبُ في أنْ أعيشَ مائتي عامٍ فقط؟

القاضي: إذنْ اطلبْ منهم أنْ يسمحوا لعددٍ من عُلمائِنا بزيارتِهم والتعرُّفِ عليهم على أنْ يكونَ هُناكَ تَعاونٌ بيننا.

المتهمُ: سأفعلُ في المرَّةِ القادمَةِ سيدي.

القاضي: أينَ الدليلُ الذي قدَّموه لك كما تدَّعي؟

المتهمُ: أخبرَني كبيرُ العلماءِ في كوكبِ سيراتا أنَّ في متحفِ البلديَّةِ في بلدتي بلدةِ (نيوفلج) أو جيرسي خزانةً تحتوي على وثائقَ هامَّةٍ، من زمنِ صديقي العمدةِ نورمان، وفيها كلُّ ما يتعلَّقُ بالبلدةِ منذُ أنْ أسَّسْنَاها عندما هرَبْنا من الحربِ والتقيتُ هناك بعِدَّةِ عائلاتٍ.

عاد الجمهورُ وأخذَ يُصفِّقُ مُشجِّعًا المتهمَ ومُتعاطفًا معه.

القاضي: تُرفعُ الجلسةُ ليومِ ٤/٢.

نيوفلج ١٨٧٠

ما حدثَ لجو غيَّرَ الكثيرَ في البلدةَ؛ فالعَداءُ والخِصامُ بين ستيف وسارة انقلبَ إلى صَداقةٍ وتعاوُنٍ، نسيتْ سارةُ كلَّ ما مضى من ستيف، وأخذَ ستيف يساعدُ سارةَ في المزرعةِ باستمرارٍ، حتَّى بدَا كأنَّه شخصٌ آخرُ تمامًا وصديقٌ حميمٌ ومخلصٌ.

كان ستيف منذُ البدايةِ بعدما أصبحَ شابّاً مُراهقاً يحبُّ سارةَ ويتودَّدُ لها، إلَّا أنْ والدَها جو رفضَ ذلك الشعورَ وأيَّدتْهُ سارةُ، وانقلبَ هذا الحبُّ إلى معاكساتٍ ومُضايقاتٍ؛ ليبقَى على اتصالٍ معها بشكلٍ أو بآخرَ، وقد آنَ الأوانُ ليحيا هذا الشعورُ وهذا الحبُّ، بعد تلك الصدفةِ التي مَنَحَتْهُ إيَّاها غرائبُ القدرِ تقبَّلَتْ سارةُ هذا الاهتمامَ وأخذتْ تُبادلُه ذلك الشعورَ والتودُّدَ، وتعمَّقتْ

بينهم أواصرُ المحبَّةِ يومًا بعد يومٍ حتَّى انتهى بحكايةِ حبٍّ عُذريٍّ صادقٍ ذاعَ صيتُه في البلدةِ.

وجدتْ سارةُ في ستيف ما يُعوِّضُها عن والدِها، ويُخفِّفُ عنها أعباءً جِساماً أثقلتْ كاهلَها مُدَّةً طويلةً، وهي الآنَ بحاجةٍ لرجلٍ تعتمدُ عليه، وتحتمي به، وتستظلُّ بظلِّهِ؛ فينتهي هذا الشقاءُ الذي لازمَها حتَّى قبلَ سفرِ والدِها، كانَ العيدُ على الأبوابِ، وكانتْ الفرحةُ بانتظارِ سارةَ والعائلةِ.

اتَّفَقَ ستيف وسارة على الزواج، وقرَّرَا أنْ يكونَ يومُ العيدِ موعدًا للزفافِ حتَّى تحتفلَ البلدةُ كلُّها بهذا الزواجَ، أرادتْ سارةُ أنْ يكونَ يومُ زواجِها مُمَيَّزاً لم يسبقْ للبلدةِ أنْ شهدَتْ مثلَهُ من قبلُ، واشترطتْ سارة على ستيف أنْ يعيشَ معها في بيتِها، حتَّى عودةِ والدِها؛ لتستطيعَ الاهتمامَ بوالدتِها وإخوتِها، كما طلبتْ منه أنْ يتعهَّدَ أمامَ العمدةِ بذلكَ؛ لأنَّه سيكونُ وكيلاً عنها بدلاً من والدِها الغائبِ.

كانتْ تقاليدُ البلدةِ تقضي أنْ يُجهِّزَ العريسُ بيتَ الزوجيَّةِ، وأنْ تقومَ العروسُ بتجهيزِ نفسِها من ملابسَ وزينةٍ، طلبَ العمدةُ من ستيف أنْ يقومَ بكلِّ تكاليفِ الزواجَ خاصَّةً وأنَّه سيعيشُ مع سارةَ في بيتِها، وسيكونُ فرداً من الأسرةِ، في اللحظةِ التي وجدَ ستيف تجاوُبًا من سارةَ طلبَ من والدِهِ الاستقلالَ والعملِ لحسابِهِ؛ حتى يتمكنَ من الزواجَ.

طلبتْ سارةُ من ستيف أنْ يشتريَ لها قُماشًا أبيضَ يكفي لعملِ ثوبين لها وبعضَ اللوازمِ الأُخرَى، وقامتْ بالتعاوُنِ مع زوجةِ عمِّها بتجهيزِ ثوبِ الزفافِ وكلِّ ما يلزمُ؛ لتكونَ عروسَةَ الموسمِ بلا مُنازعٍ.

في يـوم العيـدِ ومنـذُ الصبـاحَ كالعـادةِ تمَّ تجهيـزُ السـاحةِ الرئيسـةِ بالطـاولاتِ، وبـدأتْ النسـوةُ بإحضـارِ مـا لـذَّ وطـابَ مـن الطعـامِ والشـرابِ والحلْـوى.

عنـد ظهْـرِ يـوم العيـدِ تجمَّـعَ كلُّ أهـلِ القريـةِ في السـاحةِ، كان سـتيف في الصـفِّ الأوّلِ ببدلتِـه السـوداءِ الأنيقـةِ يُحيـطُ بـه أمُّـهُ وأبـوه وإخوتُـه، وكانَ العمـدةُ ومُسـاعدُهُ أمـام السـاحةِ بانتظـارِ وصـولِ العـروسِ، الجميـعُ في صمـتٍ تـامٍّ إلَّا مـن بعـضِ الهمسـاتِ هنـا وهنـاك خاصَّـةً بـين النسـاءِ، أطلَّـتْ العـروسُ سـارةُ تُمسِـكُ بيـدِ والدتِهـا وزوجةِ عمِّهـا، وهـي ترتـدي ثـوبَ الزفـافِ الأبيـضَ المُرصَّـعَ بالأزهـارِ الطبيعيَّةِ والـورودِ، تجـرُّهُ خلفَهـا ببـطءٍ، وهـي تمشـي بـكلِّ وقـارٍ واحتشـامٍ، ويُمسـكُ بطـرفِ ثـوبِ الزفـافِ إخوتُهـا الصغـارُ جـورج ونيكسـون.

كان الجميـعُ، يُحـدِّقُ بدهشـةٍ كبـيرةٍ في العـروسِ وكأنَّهـا تُشـاهَدُ لأوَّلِ مَّـرةٍ، زيَّـن عنـقَ سـارةَ سلسـالٌ أبيـضٌ جميـلٌ بلـونِ القـرطِ الـذي يتـدلَّى برفـقٍ وحنـانٍ ويُعانـقُ أحيانًـا عنقَهـا الجميـلَ، وعلـى رأسِـها إكليـلٌ بلـونِ الفسـتانِ، يعلـوه تـاجٌ يُشـعُّ بنـورِ وجهِـها الجميـلِ البهيِّ.

كانـتْ سـارةُ تضـعُ ماكياجًـا خفيفـاً وعِطـراً سـاحراً، تُخالطُـه رائحةُ الـورودِ الفوَّاحـةِ، كان جسـمُها فاتنًـا، كلُّـه أنوثـةٌ وحيويَّـةٌ، وهـي تتقـدَّمُ الصـفَّ الأوَّلَ، أخـذتْ والـدةُ سـارة بيـدِ سـتيف ووضعتْهـا في يـدِ سـارة ووقفـتْ مكانَـه، ومـا زالَ الجميـعُ يتأمَّـلُ ويراقـبُ، والهمـسُ مـن هنـا وهنـاك بإعجـابٍ وفرحـةٍ، توجَّـهَ العروسـان نحـوَ المنصـةِ الرئيسـةِ بجانـبِ العمـدةِ.

تقدَّمَ العمدةُ قليلاً إلى الأمام، وقالَ مُخاطبًا الجمهورَ:

سيداتي... وسادتي..

نحتفلُ اليومَ بمُناسبتين عزيزتين علينا جميعًا..

الأولى هي العيدُ السعيدُ الذي يجلبُ معه كلَّ عام الخيرَ والسعادةَ للجميع، والثانيةُ هي الاحتفالُ بهذا الزواجَ المُقدَّسِ والمُباركِ والمُميَّزِ، الذي يَختلفُ عن كلِّ الأعراسِ السابقةِ، والذي يجمعُ بين الآنسةِ الفاتنةِ سارة والشابِّ المُكافحَ ستيف.

منذُ أنْ أحبَّ ستيف عروسَهُ سارة أصبحَ شابّاً نشيطاً وعمليّاً بعدَ أنْ كانَ مُشاكسًا وكثيرَ المتاعبِ، ضحكَ الجميعُ وهم يتبادلون النظراتِ، تابعَ العمدةُ:

لقدْ وقفَ ستيف إلى جانبِ عائلةِ جو مَوقفاً مُشرِّفاً وكريماً يُشكرُ عليه.

صفَّقَ الجميعُ بحرارةٍ وهم يهتفون.

التفتَ العمدةُ نحوَ الأبِ يوحنَّا وقالَ له:

تفضَّلْ أبتِ؛ لتُبارِكَ هذا الزواجَ، وتُعطيَهُ شرعيَّتَهُ.

تقدَّمَ الأبُ يُوحنَّا إلى المنصةِ ووقفَ أمامَ العروسين، وقال للحضورِ:

من المفروضِ أنْ يتمَّ عقدُ القِرانِ في الكنيسةِ، ولكنْ في مثلِ هذه الظروفِ التي تنبعُ من طابعِ البلدةِ الخاصِّ فإنَّني سأعقدُ قِرانَ العروسينِ هُنَا، صفَّقَ الجميعُ مرَّةً أُخرَى وقال الأبُ يوحنَّا:

آنسةُ سارةُ.

هـلْ تقبلـينَ سـتيف زوجًـا لـكِ تحترمينَـهُ، وتُقَدِّرينَـهُ في السـرَّاءِ والضـرَّاءِ وإلى الأبـدِ؟

قالتْ سارة: نعمُ أبتِ، أقبلُ به زوجًا.

قال الأبُ: سيدُ ستيف..

هـلْ تقبـلُ بسـارةَ زوجـةً لـكَ تحترمُهـا وتُقدِّرُهـا في السـرَّاءِ والضـرَّاءِ وإلى الأبِـد؟

قال ستيف: نعمْ أبتِ، أقبلُ.

قال الأبُ: إذنْ أعلنُكُما زوجاً وزوجةً، وأُبارِكُ لكُما وبالسَّعادةِ والهناءِ.

تعالـتْ الأصـواتُ بالهتـافِ والفرحـةِ والسـعادةِ، وأخـذَ الجميـعُ يقذفـونَ العروسـين بالأزهـارِ والـورودِ وهـم يباركـون لهمـا، ثُـمَّ بـدأ الرقـصُ والغنـاءُ.

وقفَ مُساعدُ العمدةِ وقال:

أيَّتُها السيداتُ.. أيُّها السادةُ، ،

حـانَ الآنَ موعـدُ إلقـاءِ التحيَّـةِ علـى العمـدةِ والعروسـين؛ فلنقـفْ كمَـا تعوَّدْنـا، ولنبـدأْ مراسـمَ التهنئـةِ، بعـد الانتهـاءِ مـن المراسـم تناولـوا الطعـامَ والشـرابَ، ثُـمَّ عـادوا للرقـصِ والغنـاءِ، ثُـمَّ أنْهـى العمـدةُ الاحتفـالَ قائـلاً:

أهنِّئُكم جميعًا بالعيـدِ المُبـارِكِ، حقًّا أسعدَنا هـذا العـرسُ الرائـعُ والجميـلُ، وأمضينَـا وقتـاً فريـداً، علينـا الآنَ العـودةُ قبـلَ حُلـولِ الظـلامِ، ثُـمَّ التفـتَ إلى زوجـةِ جـو وقـال لهـا:

أرجـو سـيدتي أنْ تقبلـي دعوتـي والإقامـةَ عندنـا؛ فأنـا وزوجـتي سـنكونُ سـعيدين باسـتضافتكم الأسـبوعَ القادمَ؛ لنتركَ المنزلَ للعروسـين ليرتاحـا فيـه بعـضَ الوقـتِ.

شـكرتْ زوجـةُ جـو العمـدةَ علـى كرَمِـهِ ورعايتِـهِ واهتمامِـهِ بعائلتِها، وتقدَّمـتْ نحـوَ العروسـين وباركـتْ لهمـا، ودعـتْ لهما بالسـعادةِ.

اسـتطاعَ سـتيف تعويـضَ سـارة والعائلـةَ عـن جـو، وأخـذَ يعمـلُ في المزرعِـة وحـدَه بـكلِّ نشـاطٍ وحيويَّـةٍ، وأضفـى علـى البيـتِ والأسـرةِ جـوّاً رائعـاً مـن المحبَّـةِ والبهجـةِ، وأخـذَ يهتـمُّ بالصغـارِ، وألحقَهمـا بمدرسـةِ البلـدةِ الـتي أسَّسـتْها زوجـةُ العمـدةِ قبـلَ سـنةٍ.

أخـذَ سـتيف علـى عاتقـهِ العنايـةَ بعائلـةِ جـو، وكانَ يقـومُ بأعمـالٍ تطوُّعيَّـة وخيريَّـة تحـتَ إشـرافِ البلديَّـةِ، وحـذا سـتيف حـذوَ جـو في حـبِّ الآخريـن ومُسـاعدتِهم، وأكسـبَهُ ذلـك حـبَّ الجميـعِ في البلـدةِ، هكـذا أرادتْ ليـزا وسـارة لسـتيف أنْ يكـونَ.

كانـتْ ليـزا علـى ثقـةٍ بعـودةِ جـو يومًـا ما؛ لذلـك ومنـذُ اليـوم الأوَّلِ أخـذَتْ تخيـطُ لنفسِـها ثوبـاً خاصّـاً لتلبسَـهُ يـومَ عودتِـهِ، واحتَفظـتْ بـه في خِزانتِهـا، وكانـتْ كلَّ يـوم تتأمَّلُـه وتُقلِّبُـه كثـيرًا، وتحـاولُ أنْ تضعَـهُ علـى جسـدِها وتنظـرُ في المـرآةِ وتبتسـمُ، وتعـودُ بذاكرتِهـا للـوراءِ أيـامَ الصبَـا والشـبابِ.

بتوسُّـعِ البلـدةِ وزيـادةِ عـددِ سـكانِها كثُـرتْ المحـلَّاتُ التجاريَّـةُ والخدميَّـةُ، وتمَّ توسـيعُ الشـوارعِ وتعبيدُهـا، كمـا تمَّ تنظيـمُ البلـدةِ وبنـاءُ المـدارسِ، وأُقيـمَ مركـزٌ صحـيٌّ ومَخفـرٌ للشـرطةِ، كان العمـدةُ قـدْ أوصـى لجنـةً مـن المهندسـين بإعـدادِ دراسـةٍ كاملـةٍ للبلـدةِ ورسـمِ

الخرائطِ وفرزِ الأراضي وتنظيمِ أوراقٍ رسميَّةٍ بها، وأعطى كلَّ واحدٍ سَنَدًا يُثبتُ ملكيَّتَهُ لأرضِهِ.

أقامَ العمدةُ مُتنزَّهاً كبيراً؛ ليكونَ مكانًا يستجمُّ فيه الناسُ بعيداً عن العملِ والمنزلِ، ويكونُ مَصدراً لجلبِ السيَّاحَ من كلِّ البلادِ، وأرسلَ عَدَدًا من الشبابِ برفقةِ مُساعدِهِ كوفي إلى العاصمةِ؛ ليتدرَّبوا في بلديتها على كلِّ الأعمالِ اللازمةِ حتَّى يقوموا عندَ عودتِهم بتنظيمِ أمورِ البلديَّةِ.

عادَ مساعدُ العمدةِ والشبابُ المُرافقين له من العاصمةِ، كانَ العمدةُ مريضاً جدّاً فلزمَ الفِراشَ، وأوصى الأطباءُ بالرَّاحةِ التَّامَّةِ له وعدمِ إرهاقِهِ بأمورِ البلدةِ وغيرِها، استلَمَ كوفي مهامَّ العمدةِ وأشرفَ على إدارتِها وتنظيمِ العملِ فيها حسبَ الأصولِ.

خبرٌ انتشرَ كما النارُ في الهشيم، وكانَ الناسُ يتجمهرون بشكلٍ مُذهلٍ أمامَ منزلِ العمدةِ حال سماعِ خبرِ وفاتِه، كانَ الجميعُ يخيِّمُ عليهم الحزنُ جدًّا، ولبسَ الكثيرُ منَهم الأسودَ حِداداً على رحيلِهِ، كان كوفي والأبُ يوحنَّا في مُقدِّمةِ مُشيِّعي العمدةِ إلى مثواه الأخيرِ.

تعطَّلتْ الحياةُ في البلدةِ، كانَ الموكبُ مَهيبًا للغايةِ، وقامَ الأبُ يوحنَّا بتأبينِ العمدةِ، ثُمَّ تبعَهُ كوفي مُساعدَهُ الأمينُ وصديقُهُ الوفيُّ، فأجمَلَ مَناقبَ ومزايا الفقيدِ الذي كانَ له الفضلُ في رُقيِّ البلدةِ ونهضتِها، توالتْ النساءُ على بيتِ العمدةِ مُعزِّياتٍ زوجتَهُ التي قامتْ بمُساعدةِ الكثيراتِ من النساءِ والعائلاتِ والتي أشرفتْ بنفسِها على المدرسةِ، وقامتْ بتعليمِ أبنائِهم فيها.

في اليـوم التالـي عقـدتْ اللجنـةُ الاستشـاريَّةُ جلسـةً خاصَّـةً واتَّخذتْ القـراراتِ اَلآتيةَ:

تعيينُ السيدِ كوفي عمدةً للبلدة.

تعيينُ ستيف مُساعدًا له.

تسميةُ الشارعِ الرئيسِ في البلدة بشارعِ نورمان.

تسميةُ الساحةِ الرئيسيةِ بميدانِ نورمان.

حـزن كـوفي حُزنـاً شـديداً علـى رئيسِـه وصديقِه الأكثـرِ قُربًا لـه، قرَّرَ العمـدةُ الجديـدُ بنـاءَ مقـرٍّ كبيـرٍ للبلديَّـةِ يتناسـبُ وحجمَ البلـدِ وحاجتِها المتزايـدةِ يومًـا بعـدَ يـوم، وغـيَّرَ كـوفي كثـيراً في البلـدة بعـدَ عودتـِه مـن العاصمةِ ومُشـاهدتِهِ مدَىً تطوُّرِها؛ فنهضَ ببلدِهِ إلى مسـتوًى جيِّدٍ وطَموحٍ.

مـرَّتْ سـنواتٌ عِـدَّةٌ علـى تأسـيسِ البلديَّـةِ، وأصبـحَ لهـا طابعُهـا الخـاصُّ والمُميَّـزُ ومعالمُهـا الرائعـةُ، أصبحـتْ البلـدةُ بحاجـةٍ إلى الأيـدي العاملـةِ خاصَّـةً المُتدرِّبَـةِ منهـا والـتي أخـذتْ تـردُ عليهـا مـن المناطـقِ المجـاورةِ، قـامَ العمـدةُ كـوفي بجولـةٍ في عـددٍ مـن المـدنِ والولايـات مُصطحبًـا معـه صـورًا وكتيِّبَـاتٍ عن البلـدةِ؛ ليسـوِّقَها سـياحيّاً وتاريخيّاً خاصَّـةً وأنَّهـا ارتبطـتْ بالحـربِ الأهليَّـةِ.

أصبـحَ جـورج ونكيسـون أبنـاءُ جو شـباباً يُعتمَـدُ عليهـم، كان جورج قـد اسـتلمَ المزرعـةَ مـن سـتيف، وتَمَّ توظيـفُ نيكسـون في البلديَّـةِ بعدمـا تعلَّـمَ في مدرسـةِ البلـدةِ، وتـدرَّبَ علـى أيـدي الخـبراءِ في العاصمـةِ، كانـتْ العـاداتُ والأخـلاقُ الـتي يتمتَّـعُ بهـا أهـلُ البلـدةِ فريـدةً للغايةِ، لقـدْ تتلمَـذَ أبناؤُهـا علـى يـدِ عمدتِهـم الأوَّلِ نورمـان.

أوجدَ العمدةُ الراحلُ مزايا فريدةً؛ فكانَ للأسرةِ احترامُها وتقديرُها، وطاعةُ الوالدين أمرٌ واجبٌ على الأبناء، واحترامُ النساءِ خلقٌ يتمتَّعُ به الجميعُ، ومراعاةُ كبارِ السنِّ شيءٌ هامٌّ جِدًّا، ساهمَ العمدةُ في جعلِ سُمعةِ أهلِ البلدةِ طيبةً بين كلِّ المدنِ الأُخرَى.

كانتْ زوجةُ جو تشكو ضعفَ البصرِ وانحناءَ الظهرِ وألَمًا في الأقدام، لكنَّها ما زالتْ تحتفظُ بثوبِها في خزانتِها بانتظارِ الحبيبِ الغائبِ، وخبَّأَتْ سَنَدَ تسجيلِ الأرضِ في مكانٍ ما أمامَ المنزلِ بعدَ أنْ وضعتْها في علبةٍ مَعدنيَّةٍ وأحكمتْ إغلاقَها بمعرفةِ ابنتِها سارةَ وذلك خوفًا عليها من السرقةِ أو التلَفِ.

وضعتْ الحربُ أوزارَها في كلِّ مكانٍ، وتوحَّدتْ البلادُ وعمَّ الأمنُ والسلامُ واتَّفقَ المسئولون فيها على نظامٍ خاصٍّ وفريدٍ لحكمِ البلادِ، وعمَّ الرخاءُ، وكثرَ العملُ والطلبُ عليه، وجاءَ إليها الخبراءُ والعلماءُ من كلِّ مكانٍ، وتطوَّرتْ البلادُ بشكلٍ مُذهلٍ ولافتٍ للنظرِ؛ فأُقيمتْ الأبراجُ العاليةُ، وتطوَّرَ العمرانُ، وازدهرتْ البلادُ، أخذَ القليلُ من الناسِ في العودةِ إلى بلادِهم، لكنَّ الأغلبيَّةَ بقيتْ حيثُ هي بعدما أحبُّوا بلدتَهم التي عاشوا معها يومًا بيومٍ، ولهم فيها ذكرياتٌ وأحلامٌ.

ذهبَ جورج إلى مدينةِ (بايون) مسقطِ رأسِ أبيهِ بعدَ أنْ استعادَ عمُّهُ المزرعةَ، وتُوفِّيتْ والدتُهُ، لكنَّ نيكسون استقرَّ في البلدةِ وتزوَّجَ ابنةَ العمدةِ كوفي، وعاشَ كلٌّ منهم حياتَهُ الخاصَّةَ بحُريَّةٍ، انقطعتْ الاتصالاتُ بين جورج وأخيه نيكسون، وبقيتْ سارةُ مع زوجِها ستيف مُساعدِ العمدةِ.

بقيتْ حكايةُ جو في ذاكرةِ الجميعِ خاصَّةً ابنتَهُ سارةَ وأبناءَهُ مع عِلْمِهم الأكيدِ بأنَّه قَضَى نحبَهُ في تلك الرحلةِ مع الزعيمِ صاحبِ المزرعةِ، بقيتْ حكايتُهُ يتناقلُها الأجيالُ على مرِّ السنينَ وأصبحتْ حكايةً شعبيَّةً لتلك البلدةِ.

بعدَ سنين طويلةٍ والبلدةُ تَتَطَوَّرُ وتزدهِرُ وتتَّسِعُ، كثُرَتْ فيها المدارسُ، وبُنيتْ المستشفياتُ ومراكزُ الشرطةِ، وتطوَّرتْ في العالمِ كلِّهِ وسائلُ الاتصالاتِ السلكيةِ واللاسلكيةِ ووسائلُ الصحافةِ المسموعةِ والمرئيَّةِ وغيرُها.

اندثرتْ مع هذا التطوُّرِ الهائلِ العاداتُ والتقاليدُ الجميلةُ التي سادتْ البلدةَ أيامَ العمدةِ الأوَّلِ، وأصبحَ لكلٍّ منهم همومُهُ ومشاكلُهُ، وأثَّرَ ذلك على الأسرةِ والمجتمعِ، وظهرتْ الحريَّاتُ القاتلةُ للشبابِ والشاباتِ، وسُنَّتْ قوانينُ تحمي الرذيلةَ، وتُحارِبُ الشرفَ والعفَّةَ تحتَ شعاراتٍ واهيةٍ أدّتْ إلى تفكُّكِ الأسرةِ والانحرافِ وعدمِ المسؤوليةِ، وكثُرَتْ دورُ الأحداثِ، وانتشرَ الأخصائيون الاجتماعيونَ والنفسيُّون لمُعالجةِ ذلك الخللِ، وأدى ذلك إلى حدوثِ الجريمةِ وانتحارِ كثيرٍ من الشبابِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

شكَّلتِ المحكمةُ لجنةً خاصَّةً لدراسةِ مُحتوياتِ الخزانةِ برئاسةِ القاضي فورد، وطلبَ من اللجنةِ أنْ تكونَ جاهزةً قبلَ موعدِ الجلسةِ القادمةِ للمحكمةِ، كانتْ لدى القاضي شكوكٌ كبيرةٌ،

حتَّى اعتقدَ البعضُ بأنَّ المتهمَ ليسَ من الإنسِ وإنَّما من الجنِّ أو أنَّه من المخلوقاتِ التي ذكرَها وجاءَ مُتخفِّياً بشكلِ سام، وأنَّه جاءَ للعبثِ وإثارةِ الرعبِ بين الناسِ.

استجابَ الربُّ لصلاتي- هكذا حدَّثَ المتهمُ نفسَه- وهو يقبعُ في غرفةِ الحجزِ، «نعم، لم يتخلّ الربُّ عني» وفي سجنِهِ الذي أصبحَ عالَمَهُ الوحيدَ وبيتَهُ الجديدَ عادتْ له ذكرياتُ رحلةِ العذابِ التي بدأَها هو والرجالُ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ.

مرَّةً أُخرى في قفَصِ الاتِّهام وجَدَ المتهمُ نفسَهُ، كان القاضي يعتلي منصَّةً كبيرةً وعلى جانبيهِ مُساعدان له وشُرطيان من حولهما، فيما كانَ آخران حولَ قفَصِ المتهم، فيما كانتْ قاعةُ المحكمةِ تعجُّ بالناسِ، وفي الصفِّ الأوَّلِ يجلسُ والدا سام وسوزي والمحامون وعددٌ من المُحققين في القضيّةِ والشهودُ والمُدَّعي العامُّ، أمَّا القاضي من الجانبِ الآخرِ في المحكمةِ فقدْ كانَ يجلسُ على منصَّةٍ صغيرةٍ، وجَوٌّ من الهدوءِ يشوبُهُ الحذرُ يسودُ المحكمةَ، كانَ جو يجلسُ في قفَصِهِ ساكناً كتمثالٍ شاردَ الذهنِ كأنَّه في عالمٍ آخرَ.

في ٤/٢ وفي الساعةِ العاشرةِ صباحًا أعلنَ القاضي افتتاحَ الجلسةِ.

بضربةٍ من مطرقَتِهِ افتتحَ القاضي جلسةَ المحكمةِ، والتي أعادَتْ المتهمَ من شرودِهِ وصمتِهِ.

القاضي: وكيلُ النيابةِ، تفضَّلْ.

وكيلُ النيابةِ: أطلبُ شهادةَ السيدِ وليام مسؤولِ المتحفِ البلديِّ في مدينةِ (جيرسي).

مُوظَّفِ المحكمةِ: السيد وليام لمنصَّةِ الشهودِ.

القاضي: أَتُقسِمُ على قولِ الحقِّ؟

وليام: نعم سيدي، أقسِمُ أنْ أقولَ الحقَّ.

وكيلُ النيابةِ: سيد وليام، منذُ متَى تعملُ مسؤولًا لدى متحفِ البلديَّةِ؟

وليام: منذُ خمسةٍ وعشرين عاماً سيدي.

وكيلُ النيابةِ: هلْ سبقَ وأنْ اطَّلعْتَ على خِزانةِ الملفَّاتِ؟

وليام: نعم سيدي، مرَّةً واحدةً.

وكيلُ النيابَةِ: متَى كانَ ذلك؟

وليام: قبلَ خمسةٍ وعشرين عاماً عندما استلمتُ المسؤوليةَ عن المتحفِ.

وكيلُ النيابةِ: هلْ قرأتَ ما فيها؟

وليام: بعضَ الأوراقِ سيدي.

وكيلُ النيابةِ: هلْ حَدَّثْتَ أحداً عن مُحتوياتها؟

وليام: نعم يا سيدي، بعضَ الأصدقاء.

وكيلُ النيابةِ: أرجو أنْ تنظرَ إلى المُتهمِ جَيِّداً، هلْ سبقَ أنْ تعرَّفتَ عليه؟

وليام: لا سيدي.

وكيلُ النيابةِ: شكراً لك سيد وليام.

القاضي: محامي السيد تشارلز تفضَّلْ باستجوابِ الشاهدِ.

مُحامي تشارلز: منذُ أنْ أصبحتَ مَسؤولاً عن المتحفِ حتَّى الآنَ، هلْ سمعتَ أحداً يتكلَّمُ عن محتوياتِ تلك الخزانةِ؟

وليام: لا سيدي.

محامي تشارلز: هلْ فتحتَ الخزانةَ خلالَ هذهِ المُدَّةِ؟

وليام: لا سيدي.

محامي تشارلز: شكراً لك سيد وليام.

القاضي: محامي المتهمِ تفضَّلْ باستجوابِ الشاهدِ.

محامي المتهم: سيد وليام، أخبرْتَنَا أنَّك لم تقابلْ المتهمَ من قبلُ ولم تعرفْ عنه شَيئاً، وأنَّ المتحفَ يزورُهُ كلَّ يومٍ العشراتُ من الناسِ.

وليام: نعم سيدي.

محامي المتهم: سيدي القاضي، مُوكِّلي لم يتعرَّفْ عليه أحدٌ، وهو لم يتعرَّفْ على أحدٍ، فإذا كانَ ما قاله صحيحًا وأنَّ الوثائقَ موجودةٌ فِعلاً في خزانةِ المتحفِ، فهذا يعني أنَّه صادقٌ فِعلاً؛ وعليه أطلبُ من هيئةِ المحكمةِ المُوقَّرةِ الإفراجَ عن مُوكِّلي فوراً ليعيشَ حياتَه وشكراً.

القاضي: شكراً لك سيد وليام.

تحدَّثَ القاضي إلى السيد فورد رئيسِ اللجنةِ المُكلَّفةِ من المحكمةِ للاطلاعِ ودراسةِ الوثائقِ الموجودةِ بخزانةِ البلديَّةِ قائلاً:

القاضي: سيد فورد، أرجو إطلاعَ المحكمةِ والسادةِ الحضورِ على ما توصلَتْ إليه اللجنةُ.

السيد فورد: نعم سيدي، قمتُ مع زملائي بدراسةِ الوثائقِ الموجودةِ في تلك الخزانةِ بتكليفٍ من المحكمةِ المُوقَّرةِ، وبالاطلاعِ على تلك الوثائقِ تبيَّنَ أنَّ كلَّ ما قاله المتهمُ صحيحٌ مائةٌ بالمائةِ، وكلُّ الوثائقِ موجودةٌ فِعلاً، كما وجدنَا النسخةَ الثانيةَ من الاتِّفاقيَّةِ التي كتبَها العمدةُ نورمان كما أخبرَ المتهمُ وهيَ مُطابقةٌ تمامًا للنسخةِ التي سلَّمَها المتهمُ للمُحققِ.

وكيلُ النيابةِ: سيدي القاضي، السادةُ المُحلفين، كمَا سمعْنَا جميعاً؛ فتلك الوثائقُ تُؤكِّدُ أنَّ ما تحدّثَ عنه المتهمُ عن جو الذي وُلِدَ قبل مائتي عام لا ينطبقُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ على المتهم الماثلِ أمامنا والذيَ لا يتجاوزُ عمرُهُ خمسةً وعشرين عاماً، كمَا أنَّ الوثائقَ والأدلَّةَ التي قدَّمَتْها محكمةُ مدينةِ (نيوراك) والموجودةُ لديكم تُؤكِّدُ أنَّ هذا المتهمَ جاسوسٌ يعملُ لصالحِ دولةٍ مُعاديةٍ، وهو قاتلٌ مُحترفٌ أيضاً، واعترفَ المتهمُ بكلِّ الاتهاماتِ المُوجَّهةِ إليه لدَى محكمةِ مدينةِ (نيوراك)، وبُناءً عليه حكمَتْ المحكمةُ عليه قبلَ خمسِ سنواتٍ بالسجنِ مدَى الحياةِ.

لكنَّ المتهمَ تمكَّنَ من الهربَ، وعندما أُلقِيَ القبضُ عليه في مدينةِ (جيرسي) ألَّفَ هذه الرواياتِ، ثُمَّ إنَّ كلَّ أوصافِهِ تنطبقُ تماماً بكلِّ أشكالِها على المتهم، واسمُهُ الحقيقيُّ جيرالد، وعليه أطلُبُ من عدالةِ المحكمةِ تثبيتَ الحكمِ عليهِ بالسجنِ مدَى الحياةِ وإعادتِهِ إلى السجنِ وتنفيذِهِ فوراً، وشكَراً.

القاضي: محامي المتهم، تفضَّلْ باستجوابِ الشاهدِ.

محامي المتهم: سيد فورد، لقدْ تفحَّصْتَ كلَّ تلك الوثائقِ الموجودةِ في خِزانةِ المتحفِ، هلْ وجدْتَ من بينِها وثيقةً تحكي قصَّةَ حياةِ جو؟ هلْ هذهِ الوثيقةُ موجودةٌ فِعلاً؟

فورد: نعم سيدي، هناك وثيقةٌ تتكلَّمُ عن حياةِ رجلٍ يُدعَى جو.

محامي المتهم: هلْ لكَ أنْ تُطلعَنَا على ما جاء فيها بشكلٍ مُوجَزٍ؟

أخذَ فورد يروي على هيئةِ المحكمةِ تفاصيلَ ما جاءَ عن قصَّةِ جو في تلك الورقةِ.

قال محامي المتهم: شكراً لك سيد فورد.

سيدي القاضي إنَّ ما جاء في تلك الوثيقةِ ينطبِقُ تماماً على كلِّ ما أخبرَ به مُوكِّلي، ولا يُعقَلُ أنَّه علِمَ بها صُدفةً، والسيد وليام أكَّدَ أنَّ الخزانةَ لم تُفتَحْ منذُ خمسةٍ وعشرين عاماً، وشكراً

القاضي: مُحامي تشارلز، تفضَّلْ باستجوابِ الشاهدِ.

محامي تشارلز: سيد فورد، أرجو أنْ تُطلِعَ المحكمةَ المُوقَّرَةَ كمْ كان عُمْرُ جو عندما اختفَى؟

فورد: كانَ عمرُهُ خمسةً وأربعين عاماً.

محامي تشارلز: هلْ هناك ما يؤكِّدُ أنَّ جو قدْ ماتَ؟

فورد: نعم، لقدْ أكَّدَ الفارسُ الذي كانَ مَوجوداً عندما اختفى جو أنَّه مات فِعلاً، وأكَّدَ العمدةُ والرجالُ الذين كان معهم جو أنَّه ماتَ أيضاً.

محامي تشارلز: شكراً لك سيد فورد، ثُمَّ تابعَ المُحامي قائلاً:

سيدي القاضي، عُمْرُ جو عندما اختفى خمسةٌ وأربعون عاماً، وعُمْرُ جيرالد المحكوم عليه بالسجنِ كانَ أربعين عاماً وذلك قبل خمسِ سنواتٍ من الآنَ، أمَّا المتهمُ فلا يتجاوَزُ عمْرُهُ خمسةً وعشرين عاماً، كمَا أكَّدَتْ كلُّ التقاريرِ الطبيَّةِ، كمَا أنَّ عُمْرَهُ يُطابِقُ تماماً عمْرَ سام ابنِ مُوكِّلي الطالبِ الجامعيِّ المريضِ والمصابِ بانفصام الشخصيَّةِ، كمَا أنَّ حِمضَهُ النوويَّ مطابقٌ لحمضِ سام تمامًا، وعليهِ أطلبُ من هيئةِ المحكمةِ المُوقَّرَةِ الإفراجَ عنه فوراً.

القاضي: شكراً لك.

القاضي: كلمةٌ أخيرةٌ لك سيد وكيلُ النيابةِ، تفضَّلْ.

وكيلُ النيابةِ: سيدي القاضي، اختفَى المتهمُ جيرالد من سيارةِ السجنِ بصورةٍ غريبةٍ وغامضةٍ، كانَ مُقيَّداً وبرُفقتِهِ شُرطيان مُسلحان، كانَ بابُ سيارةِ السجنِ مُغلقًا من الخارجَ، لكنَّ جيرالدُ اختفى وتبخَّرَ في الهواء، وقيَّدَ الشرطيين بصورةٍ رهيبةٍ، إنَّ اختفاءَ المتهم من قفصِهِ أمامَ عيونِنا جميعاً بصورةٍ غامضةٍ لَخَيْرُ دليلٍ على أنَّ المتهمَ هو نفسُهُ جيرالد، الذي اختفى سابقاً، لقدْ أفادَ المتهمُ بأنَّ له أصدقاءَ على كوكبِ سيراتا أجروا له عمليةً لتبديلِ عيونِهِ، فليسَ من الصعبِ سيدي القاضي أنْ يقوموا بتبديلِ بصماتِهِ وشكْلِهِ وحِمضِهِ النوويِّ أيضاً بما لديهم من تطوُّرٍ هائلٍ في كلِّ المجالاتِ، كذلك هو الحالُ بالنسبةِ للعُمْرِ والشكلِ، لقد عرضْنَا على هيئةِ المحكمةِ شريطاً مُصوَّراً يُبيِّنُ بما لا يَدَعُ مَجالاً للشكِّ أنَّ المتهمَ هو نفسُه جيرالد، وعليهِ فإنَّني أُصِرُّ على إعادَتِهِ للسجنِ وتثبيتِ الحكمِ عليه بأنَّه جيرالد، وشكراً.

القاضي: تُرفَعُ الجلسةُ للتداولِ.

اجتمعَ القاضي مع هيئةِ المُحلفين، وبعدَ نصف ساعةٍ افتتحَ القاضي الجلسةَ، وضربَ بمطرقتِه الخشبيةَ ثلاثَ مرَّاتٍ، ثُمَّ قال:

حكمتْ المحكمةُ حضوريّاً على المتهم الماثلِ أمامَنا المجهولِ الاسمَ والهويَّةَ بالسجنِ مدَى الحياةِ، رُفِعَتْ الجلسةُ.

كان الحكمُ الصادرُ من هيئةِ المُحلفين بعد أنْ تأكَّدَ الجميعُ أنَّ هناك مَنْ يقفُ خلفَ تلك الأحداثِ، بُناءً عليه أرادوا أنْ يصدرَ الحكمُ حتَّى يطمئِنَّ مَنْ يقفُ خلفَ حكايةِ جو فيعاودُ نشاطَه الذي قدْ يُفضي للقبضِ عليه أو إيجادِ دليلٍ يُنهي المسألةَ.

صاحتْ الأمُّ، صاح الأبُ، ارتفعتْ الأصواتُ في القاعةِ، وثارَ الحضورُ، اصطحبتْ الشرطةُ المتهمَ إلى خارجَ المحكمةِ، وأُعيدَ إلى السجنِ.

مُحامي تشارلز لواليّ سام: أرجوكُما لا تقلقا، سنستأنفُ الحكمَ من جديدٍ، وسأبذلُ جَهدي لإعادتِهِ إلى المَشفى حتَّى تتمكنوا من زيارَتِهِ.

شعرَ المتهمُ بأعصابِه تتوتَّرُ أكثرَ فأكثرَ وبخيبةِ أملٍ كبيرةٍ من الحكم الذي صدرَ بحقِّه، كانَ يأملُ بأنْ يكونَ الحكمُ لصالحِهِ، بعد أنَّ قدَّمَ دلائلَ كثيرةً للمحكمةِ واضحةً وضوحَ شمسٍ تموز تدلُّ على صدقِهِ، وطَبعتْ في صميمِ قلبِهِ لحظاتٍ قاسيةٍ لنْ ينساها أبدًا.

انتابهُ في تلك اللحظةِ من قسوةِ الحكم وبعيداً عن المحكمةِ شعورٌ أشبهُ بالسرورِ، وأحسَّ بنفسِه يعيشُ لحظاتٍ سعيدةٍ، عندما لاحَ له خيالُ زوجتِهِ ليزا عندما قابلَها أوَّلَ مرَّةٍ في السوبرِ ماركت، مروراً بخمسةَ عشرَ عاماً من السعادةِ كزوجٍ وأب، كانتْ تلك السنواتُ

أجملَ ما عاشَهُ جو في حياته، تذكَّر جو مُرافقَتَه للعمدةِ الذي كان يعتَزُّ به كثيرًا، لكنَّ شعورَهُ بالظلم من قسوةِ الحكم أعادَ له فجأةً رحلتَهُ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسَودِ وما حصلَ لَه تلك الليلةَ عندما كانَ حارِساً على القافلةِ في النصفِ الأوَّلِ من الليلِ مع رجلٍ آخرَ.

كوكب سيراتا ١٨٦٣

عندما اختفى جو في منتصفِ الطريقِ وهو في رحلتِهِ مع الزعيم ذي الحصانِ الأسودِ حينما ذهبَ لقضاءِ حاجَتِه أُصيبَ بألَمٍ حادٍّ في صدْرِهِ، ووَقَعَ أرضاً، في تلكَ اللحظةِ كانتْ هناكَ مركبةٌ فضَائيَّةٌ رصدتْ حركَةَ جو، فنزلتْ إلى الأرضِ وقدَّمتْ له الإسعافاتِ الأوليَّةِ، ثُمَّ حملتْهُ معها وانطلقتْ عائدةً إلى قاعدتِها.

كانتْ تلك المركبةُ قادمةً من كوكبِ سيراتا في مهمَّةٍ خاصَّةٍ، عندما أفاقَ جو من غيبوبتِهِ وجالَ نظَرِهِ في أرجاءِ الغرفةِ الجميلةِ التي كان ينامُ فيها على سريرٍ أبيضَ، حاولَ النهوضَ لكنَّه لم يستطعْ، كانَ جو مُثبَّتاً في السريرِ خوفاً من التجوالِ في منطقةٍ لا يعرفُها؛ مِمَّا يسبِّبُ له آثاراً سلبيَّةً تنعكسُ على صحَّتِهِ.

صاحَ جو بصوتٍ مرتفعٍ...

أينَ أنَا؟... أَلَا يُوجَدُ أحدٌ هُنَا؟

سمعَ صوتاً يتقدَّمُ نحوَ بابِ الغرفةِ، ورأى البابَ يُفتَحُ، ما زالَ صوتُ الأقدامِ يقتربُ حتَّى شعرَ بأنَّهُ قُرْبَهُ...

لم يشاهدْ جو أحداً.....

لكنَّه سمعَ صوتاً يقولُ له:

ماذا تريدُ يا جو،....

هلْ تشتكي من أَلَمٍ ما؟

قالَ جو بغضبٍ: أينَ أنَا؟

وماذا أفعلُ هنا؟

ولماذا أنَا مُقيَّدٌ هنا؟

ومَنْ أنتَ؟

أجابَ المصدرُ أنَا المترجمُ وبجانبي الطبيبُ ديفون....

أنتَ يا جو مريضٌ...

أخذَ الطبيبُ يشرحُ لجو ما كانَ من أمرِهِ منذُ لحظةِ وقوعِهِ على الأرضِ حتَّى تَمَّ علاجُهُ.

قال الطبيبُ على لسانِ المترجم:

سيد جو، أنتَ على كوكبِ سيراتا، وفي مستشفى الشفاء يا عزيزي، وأنتَ الآنَ أفضلُ بكثيرٍ.

قال جو: ولكنْ أينَ أنتَ؟

فأنا لا أستطيعُ رؤيتَك.

قال الطبيبُ على لسانِ المترجم:

هلْ حقّاً تريدُ رؤيتي؟

قال جو: نعم.

قال المترجمُ: حَسناً يا جو، ولكنْ أرجو الانتباهَ جَيِّداً، ما سأقوله لك مهمٌ جِدًا.....

نحنُ لسنا مثلَك من البشرِ.... أشكالُنا تختلفُ قليلاً عنكم.... ونحنُ مخلوقاتٌ غيرُ مرئيَّةٍ بالنسبةِ لكم... ولكنَّي أعدُكَ سيد جو أنَّك ستراني قريباً.

قام الطبيبُ بنقلِ جو إلى غرفةِ العمليَّاتِ، وتَمَّ استبدالُ قرنيَّةِ عينيهِ بأُخرى من عيونهم المحفوظةِ في بنك العيونِ لديهم، واحتفظَ الطبيبُ بعيني جو في بنكِ العيونِ بعد أنْ تماثل جو للشفاءِ نُقِلَ إلى غرفتِهِ في المشفى معصوبَ العينينِ وبعدَ أيَّامٍ قال له الطبيبُ:

سيد جو أرجو أنْ تستعدَّ الآنَ؛ لأنِّي سأقومُ بإزالةِ هذه العصابةِ عن عينيك، ثُمَّ قال الطبيبُ: أرجو أنْ تتذكَّرَ ما وصفتُهُ لك حتَّى لا تفاجأ.

أزالَ الطبيبُ العصابةَ عن عيني جو....

شاهدَ جو مخلوقاتٍ غريبةٍ أمامَهُ فصاحَ مُرعَبًا.. آه..

قال جو: يا إلهي كلُّكم هكذا!!

قال الطبيبُ: مُبتسمًا، نعم سيد جو.

أرجوك لا تخفْ،... ستجدُ هنا مَنْ يعتني بك، وستعتادُ علينا شيئاً فشيئا، تابعَ الطبيب قائلاً: أنا الطبيبُ المشرفُ عليك منذُ حوالي شهرٍ، واسمي د. ديفون، أمَّا الآن وقد تعافيتَ تماماً سيكونُ

لـك مُرافـقٌ خـاصٌ يتكلَّـمُ بلغتِـك وسـتتجوَّلُ في مدينتنـا، وتتعـرَّفُ علـى معالِنـا وحضارتِنَـا لبضـع سـاعاتٍ يوميّـاً، ثُـمَّ سـيصطحبُك المُرافـقُ إلى معهـدِ اللغـاتِ لمُـدَّةِ سَـاعتين يوميّـاً؛ حتَّـى تتعلَّـمَ لغتنـا وتفهـمَ حديثنَـا، وتسـتطيعَ التعامـلَ مـع شـعبِنا، وحتَّـى تكـونَ سـفيراً لنـا علـى كوكـبِ الأرضِ عندمـا تعـودُ.

قال جو: لكنَّني، أحبُّ أنْ أعودَ الآنَ إلى وطني....

إلى زوجتي وأبنائي....

وعدْتُهـم بالمـالِ وهـم بحاجـةٍ ماسَّـةٍ إليـه، ابنـتي سـارةُ تعمـلُ في الأرض وتشـقى مـن أجلِنـا.

قـال الطبيـبُ: سـتعودُ سـيد جـو ومعـك كلُّ مـا تريـدُ، لكـنْ ليـسَ الآنَ؛ أنـتَ هنـا في مهمـةٍ خاصـةٍ ولهـذا جئْنَـا بـك إلى كوكبِنـا.

قـال جـو: لا أسمـحُ لكـم بذلـك، لـنْ أسـتطيعَ العيـشَ بينكـم، أريـدُ العـودةَ إلى وطـني حـالاً.

قـال الطبيـبُ: أسمعْـني جيِّـدًا سـيد جـو، أنـتَ هنـا تنفِّـذُ أوامرَنـا فقـطْ، وسـتقومُ بـكلِّ مـا نطلبُـهُ منـك، لا مجـالَ للرفـضِ، ولا مجـالَ لـك للاعـتراضِ، ولا تسـتطيعُ العـودةَ إلى بلدتـكَ؛ أنـتَ في مـكانٍ بعيـدٍ جـدًّا عـن موطنـك، إنَّـه أبعـدُ مِمَّـا تتصـوَّرُ، أتفهـمُ ذلـك؟

التفتَ الطبيبُ إلى مُرافقِ جو وقال له:

خُذْهُ الآنَ واعتنِ به.

فكَّرَ جو وتمتمَ:

أنـا رجـلٌ وحيـدٌ، وأشـكالُهم وحدَهـا تُرهبُني، يبدو أنَّـني مُجبَرٌ على طاعتِهم، وعليَّ أنْ أُجاريهم في كلِّ ما يطلبونه مني؛ حتَّى أجدَ مَخرجًا.

قال جو: ولكنْ مَنْ أنتُم؟

وأينَ أنَا؟

قـال المُترجـمُ: أخبرتُـك سـيد جـو، أنَّـك علـى كوكـبِ سـيراتا، نحـنُ شـعبٌ بطليـم، وهـذه العاصمـةُ «مدينـةُ النجـوم»، وهـذا البنـاءُ الضخـمُ الـذي نحـنُ فيـه مشـفى الشـفاءِ أضخـمُ مشـفًى في الكوكـبِ.

عليـكَ التعـاونُ مـع الطبيـبِ والعلمـاءِ سـيد جـو، هذا مـن مصلحتك، وإلَّا سـيعاملونك بكلِّ قسـوةٍ.

قـال جـو: لكـنَّ أصدقائـي سـيفتقدونني، وسـيذهبون للعمـلِ، وسـيعودون بالمـالِ.

قـال المترجـمُ: لقـد ذهـبَ أصدقـاؤك للعمـلِ مـع الفـارسِ لكنَّهـم في شـقاءٍ وتعـبٍ شـديدٍ.

هلْ تُريدُ حقاً أنْ تراهم يا جو؟.

قال جو: نعم، أريدُ أنْ أطمئِنَّ عليهم.

قال المترجمُ: أعدُك بذلك يا جو.

أمَّا الآنَ فقدْ وصلَ السيدُ فردان المرافقُ الخاصُّ لك.

قـال المترجـمُ: أهـلاً بـك فـردان، لقـدْ وصلـتَ في موعـدِك... لقـدْ تعافـى صديقُنـا جـو وهـوَ الآنَ أمانـةٌ لديـكَ....

أرجــو أنْ يكــونَ ســعيداً برُفقتِــك، ولا تنــسَ أنْ تهتــمَّ بالطعــام والشــرابِ، وأنْ تذهــبَ بــه إلى المعهــدِ في الســاعةِ الرابعةِ تمامــاً، ثُمَّ تعودَ بجــو إلى هنــا؛ فمقــرُّه الدائــمُ هــذا المَشــفى ليكــونَ تحــتَ إشــرافنا الدائم.

قال فردان: اطمئِنّ سيدي، سأهتمُّ به كثيراً، وسيكونُ سعيداً معي.

اصطحــبَ فــردان جــو في عرَبَــةٍ جميلــةٍ تســيرُ وحدَهــا، لم يســبقْ لجــو الــذي لم يعــرِفْ ســوى العربــاتِ الــتي تجرُّهــا الخيــولُ مُشــاهَدَةَ أعجوبــةٍ كتلــك العرَبَــةِ الــتي أدهشــتْهُ في جمالِهــا وســرعتِها.

كانــتْ الطــرقُ واســعةً جِــدّاً وجميلــةً أيضــاً، الكثــيرُ مــن العرَبــاتِ كانــتْ تســبحُ في الفضــاءِ بشــكلٍ دقيــقٍ ومُنظَّــم، وجــو يتأمَّــلُ وهــو يســيرُ في شــوارعِ العاصمــةِ، ويشــاهدُ المبانــي الضخمــةَ والجميلــةَ والأســواقَ الكبــيرةَ المَزيَّنَــةَ بأجمــلِ البضائــعِ.

كانتْ أوَّلُ زيارةٍ لجو متحفَ المدينةِ....

قاعةٌ واسعةٌ جِدّاً.... مرتفعةٌ جِدّاً.... جميلةٌ جِدّاً....

فيهــا هيــاكلُ عظميَّــةٌ لحيوانــاتٍ ضخمــةٍ وحيوانــاتٍ كثــيرةٍ مُحنَّطَةٍ، تعــودُ لعشــراتِ الآلافِ مــن الســنين، كمَــا أخــبرَهُ بذلك مرافقُــهُ فردان...

شــاهدَ جــو في المتحــفِ عربــاتٍ مُختلفَــةَ الألــوانِ والأحجــامِ، منهــا الأرضــيُّ ومنهــا الفضائــيُّ.

كان جو مُندهشاً ومَبهوراً مِمَّا شاهدَ في المتحفِ.

اصطحــبَ فــردان جــو إلى أحــدِ المطاعــمِ الكبــيرةِ العائمــةِ علــى بحيرةٍ تُطــلُّ علــى القصــرِ الرئاســيّ الضخــم، وبعَــدَ أنْ تنــاولَ الطعــامَ اللذيــذَ غــادرَ جــو وفــردان المطعــمَ إلى معهــدِ اللغــاتِ، حيــثُ وجدَ جــو أنَّ هناكَ

العشراتُ من الطلابِ من كواكبَ كثيرةٍ، لكنَّهم مُتشابهون تقريبًا.

كان جو الوحيدَ من كوكبِ الأرضِ؛ لذلك فُوجئَ بقيَّةُ الطلبةِ بوجودِهِ بينَهم؛ حيثُ التفَّ الطلبةُ حولَهُ مُستغربين وجودَهُ بينَهم، شرحَ فردان للطلبةِ المهمَّةَ التي جاءَ من أجلِها جو لكوكبِهم، وأخبرَهم أنَّ جو من كوكبِ الأرضِ، سيتعلَّمُ لُغتَهم؛ ليكونَ صديقًا لهم، وطلبَ منهم التعاونَ معه ومساعدَتَه؛ حتى يُكوّنَ صورةً حسنةً وجميلةً عن كوكبِهم.

هكذا أمضى جو يومَهُ الأولَ، لكنَّه لم يفهمْ شيئاً من الدرسِ ولَا مِمَّا يدورُ حولَه، وفي صباحَ اليوم التَّالي اصطحبَ فردان جو إلى مسرحَ المدينةِ؛ ليُشاهدَ عرضاً مَسرَحيّاً ضاحكاً...

كان المسرحُ ضخماً، وكانتْ القاعةُ مليئةً بالمشاهدين، ولم يكنْ بينهم سُوى جو الغريبِ الشكلِ.

بدأ العرضُ وأخذَ المُمثِّلُون في أداءِ أدوارِهم بكلِّ حماسٍ، كان الجمهورُ مَرِحاً... بدأَ الضحكُ، وعلتْ الأصواتُ... كان فردان الجالسُ بجانبِ جو يضحكُ أيضاً...

لم يفهمْ جو شيئاً مِمَّا يرَى أمامَهُ، لكنَّه كان يبتسمُ على الدوام، فحركاتُ الممثلين تُوحي بالفكاهةِ.... انتبهَ فردان لحالةِ جو، فأخذَ يترجمُ له بعضَ المواقفِ أحياناً... ساعتين أو تزيدُ من الضحكِ والمرحَ قضاها جو مع فردان.

بعد انتهاءِ المسرحيَّةِ وإنارةِ الأضواءِ كانَ الأكثرَ متعةٍ للجمهورِ وجودُ جو بينَهم، ولفتَ وجودُه انتباهَ الجمهورِ الذي أُعجِبَ به كثيراً...

أخذَ البعضُ منهم يُحاولُ التقرُّبَ من جو....

كان جو وجِلاً وعددٌ هائلٌ منهم يلتفُّ حولَهُ.

وقفَ فردان بينهم وكان جو مُرتبِكاً وهو يرَى هذا الاهتمامَ الكبيرَ به، أخبرَ فردانُ الجمهورَ بحكايةِ جو، ثُمَّ غادرَا ساحةَ المسرحَ إلى المطعمِ ثُمَّ المعهدِ.

اضْطُرَّ فردان لمُرافقةِ جو والجلوسِ إلى جانبِه في قاعةِ المعهدِ؛ ليُساعدَهُ ويُسهِّلَ عليه الأمرَ،...

أيامٌ مضتْ، زارَ جو خلالَها معالمَ دينيَّةً وتاريخيَّةً من جامعاتٍ ومُؤسساتٍ ومُتنزَّهاتٍ طبيعيَّةٍ وأماكنَ سياحيَّةً، استمتعَ خلالَها كثيراً...

كان جو يتعلَّمُ شيئاً فشيئاً....

لاحظَ جو أنَّه في سجنٍ كبيرٍ، وأنَّه استُغِلَّ استغلالاً بَشعًا من المخلوقاتِ الفضائيَّةِ، وأنَّه حُرِمَ العيشَ مع عائلتِه وأصدقائِه، كانَ يُفكِّرُ دومًا بالهروبِ، لكنْ إلى أينَ؟ فهوَ لا يعرفُ مكانَ وُجودِهِ، ولا يعرفُ كمْ يبعدُ عن بلدتِه، ولا يعرفُ إنْ كانَ موجودًا على الأرضِ أو القمرِ أو مكانٍ آخرَ، ما عساه أنْ يفعلَ؟ الابتسامةُ والسعادةُ التي يُقابلُ بها مُرافقَهُ ومَنْ حولَه إنَّما هيَ من قبيلِ إبعادِ مخاوِفِهِ وشُكوكِهِ عنهم.

وجدَ الطبيبُ جو حزيناً ذاتَ يومٍ؛ إذْ تذَكَّرَ زوجتَهُ وأبناءَهُ ووطنَه وأصدقاءَهُ، فأُصيبَ بحزْنٍ شديدٍ...

تذكَّرَ الطبيبُ وعدَه لجو؛ ليشاهدَ رِفاقَهُ في العملِ، اقتربَ منه وقال: سيد جو، لكَ مُفاجأةٌ كبيرةٌ.

قال جو: أرجوكَ سيدي، أريدُ العودةَ إلى وطني، إلى أرضي... إلى زوجتي وأبنائي.

قال الطبيبُ: لقدْ وعدتُكَ بمشاهدةِ رِفاقِكَ...

هيَّا بنَا يا جو....

ستكونُ سعيداً عندما تراهُم، ولكنَّهم ليسوا سعداءَ يا جو، فهم في شقاءٍ كبير، وحالتُهم مُزعجةٌ جِدًّا، اصطحبَ الطبيبُ وفردان جو إلى بنايةٍ رائعةٍ وكبيرةٍ، ولكنْ ما بداخلِها كانَ أُعجوبةً حقّاً، فالقاعاتُ كبيرةٌ، وبها أجهزةٌ مختلفةٌ وشاشاتٌ كبيرةٌ...

جلس جو بين الطبيبِ وفردان أمامَ الشاشةِ....

كانَ هناك عالمٌ آخرُ يظهرُ على ذلك الجهازِ....

أضاءتْ الشاشةُ....

كانتْ هناك كُراتٌ ضخمةٌ مختلفةٌ، تسبحُ في الفضاءِ الرحبِ داخلَ الشاشةِ، العالمُ يتحدَّثُ وفردان يُترجِمُ لجو ما يشاهدُهُ.....

كانَ هناك كوكبٌ يقتربُ نحوَ الشاشةِ قال فردان:

انظرْ سيد جو.... هذا كوكبُ الأرضِ الذي تعيشُ عليه...

أنتَ تعيشُ في النصفِ الغربيِّ من الكرةِ....

لاحظْ يا جو، نحنُ نسيرُ الآنَ نحوَ بلادِكم، انظرْ هذه هي بلدُك بالتحديدِ....

وهذه القريةُ التي تعيشُ فيها- كانتْ الشاشةُ واضحةً تماماً والبناياتُ والطرقُ وحتَّى الناسُ يستطيعُ المُشاهدُ تمييزَهم- صاح جو:

انتظرْ لحظةً سيدي....

أرجـوكَ عُـدْ قليـلاً إلى الـوراءِ– كانـتْ دمـوعُ جـو تنهمـرُ، كان حزينـاً– قـال جـو:

هذه ابنتي سارةُ تعملُ في الحقلِ... أخذَ جو يُخاطبُها...

قال فردان:

سيد جو، إنَّها لا تسمعُكَ ولا تراك....

لكنَّها فتاةٌ جميلةٌ سيد جو، قالَ العالم:

يكفي ذلك، سنُتابِعُ لو سَمَحْتُم....

كان هناك أناسٌ كثيرون، وقطيعٌ من الأبقارِ قال فردان:

إنَّهم أصدقاؤك سيد جو، انظرْ وتأمَّلْهم واسمعْ ما يقولون.

قال جو: نعمْ، إنَّهم أصدقائي...

هذا جاك،.... إدوارد،.... توم،..... إنَّهم هم...

قـال فـردان: ولكـنَّ الحـزنَ بـادٍ عليهـم، لِنسـتمعْ سـيد جـو مـاذا يـدورُ بينهـم مـن حديـثٍ.

قال توم: لا أستطيعُ الاحتمالَ أكثرَ من ذلكَ، هذا ظلمٌ....

هـذا ظلـمٌ... الطعـامُ لا يكفـي، سـنموتُ مـن الجـوعِ ولا مـكانَ جيِّـدًا نبيـتُ فيه...

العملُ شاقٌّ.... لا أستطيعُ الاحتمالَ أكثرَ.

قال جاك: أينَ الصبرُ؟

الأيـامُ تمضـي وسـيزولُ التعـبُ، عندمـا تعـودُ إلى الوطـن ومعـكَ المـالُ الـذي جئـتَ مـن أجلِهِ.

قال جو: كنتُ أظنُّهم أحسنَ حالاً منِّي.

قال فردان: يكفي هذا... هيَّا بنا... لِنَعُدْ إلى المَشفى.

قـال جـو: أرجـوكَ سـيدي، أريـدُ أنْ أعـودَ إلى بيـتي إلى بلدتـي إلى أصدقائـي، لا أسـتطيعُ العيـشَ هُنـا، أرجـوكَ- كان جـو يبكـي بـأَلَمٍ ومـرارةٍ...

قـال الطبيـبُ: يبـدو أنَّـك مُزعـجٌ ولا تسـمعُ الـكلامَ، - خُـذْهُ يـا فـردان إلى المَشـفى، دَعْـهُ هنـاك حتَّـى يُصبـحَ طِفـلاً وَدوداً، سـيُعاقَبُ علـى تمـرُّدِهِ وكلامِـهِ الكثـيرِ.

كان جـو يشـعرُ أحيانـاً بالحـزنِ على ابنتِهِ، ويشـعرُ أحيانـاً بالخوفِ علـى رفاقِـهِ وأكثـرَ مـن ذلـك على نفسِـه بعـد أنْ أُودِعَ في غرفتِه بالمَشـفى لا يُقابـلُ أحـدًا ولا يسـتمعُ لـه أحـدٌ، وكان لديـهِ الحنـينُ الكبـيرُ للعـودةِ إلى أرضِـهِ وأهلِـهِ، وكانَ دائمـاً يُلِـحُّ علـى الجميـعِ؛ كـي يعـودوا بـه إلى الأرضِ...

لم يكُـنْ يعلـمُ أنَّ حالَتَـهُ الصحيَّـةَ سـيئةً، وأنَّـه يُعانـي مـن مَـرَضٍ في القلـبِ وعليـه البقـاءُ تحـتَ الرعايـةِ الطبيـةِ.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

كانتْ سوزي أكثرَ الموجودين حِقداً على القاضي، واتَّهمتْهُ سِرّاً أنَّه نفَّذَ أوامرَ المُحققين الذين كانوا بحاجةٍ ماسَّةٍ لكبشِ فِدَاءٍ؛ فكان هذا الحكمُ أمامَ وسائلِ الإعلام التي أخذَتْ تُضيِّقُ عليهم الخناقَ للمُدَّةِ الطويلةِ التي قضاها المتهَمُ في السجنِ دونَ دليلٍ قويٍّ يُدينُهُ.

لم يكنْ الحكمُ الذي صدرَ بحقِّ المتهم مُقنعاً للكثيرين؛ لذلكَ تقدَّمَ مُحامي تشارلز بمُذكِّرَةِ استئنافٍ إلى المَحكمةِ، وتقدَّمَتْ سوزي بِطَلَبٍ إلى الادِّعاءِ والمحكمةِ ولصديقها في المخابراتِ العامَّةِ لإنتاجَ فيلمٍ عن حياةِ جو.

أخذتْ تبحثُ عن مُنتجِ سينمائي يتولَّى إنتاجّ فيلم عن حكايةِ المتهم، تطلُبُ فيه السماحَ للمتهم بالتمثيلِ لعلَّهُ يتذكَّرُ شيئاً قدْ يُفيدُ التحقيقَ أثناءَ إعادةِ تمثيلِ حياتِهِ التي سَرَدَها، وجدتْ مُذكِّرَةُ سوزي رضًا لدَى القاضي، ووافَقَ على ذلك شريطَةَ أنْ يبقَى تحتَ المُراقَبَةِ، وأنْ يُعادَ إلى السجنِ مساءَ كلِّ يومٍ.

اتَّصلَ أحدُ مُخرجي السينما بالصحفيَّةِ سوزي، وأخذَ منها مَوعِداً للبحثِ معها حولَ روايتِها التي ما زالتْ تنشرُ في الصحفِ، وعَرَضَ عليها مَبلغاً مُغرياً من المالِ لإنتاجَ فيلم سينمائيٍّ عن حياةِ المتهم، واشترطَ عليها أنْ تُرافِقَهُ أثناءَ تصويرِ أحداثِ الفيلمِ والتحضيرِ لَه نظراً لعلاقتِها بالمتهمِ.

وافقتْ الصحفيَّةُ على عرضِ المُخرجَ، ورافقتْهُ إلى بلدةِ (جيرسي) ورافقتْهُ إلى جميعِ الأماكنِ التي تتحدَّثُ عن حياةِ جو، والتقتْ سوزي

والمُخرجُ مع المسؤولِ في المُخابراتِ العامَّةِ، واستطاعتْ إقناعَهُ بالمُوافقَةِ على أنْ يُمثِّلَ الرجلُ المتهمُ رحلةَ حياتِهِ لعلَّ ذلك يكشفُ سِرَّهُ.

بدأَ المُخرجُ بإعدادِ السيناريو والحوارِ للفيلم، وبدأَ تصويرُ أحداثِهِ، وكانَ المتهمُ سعيداً؛ لأنَّه سيُعيدُ ذكرياتِهِ من جديدٍ خاصَّةً بعدما تلقَّى وعْداً بالبحثِ عن زوجتِهِ وعائلتِهِ، دعَّمتْ بلديَّةُ مدينةِ (جيرسي) المُخرجَ لإنتاجَ هذا الفيلم والذي سيُخلِّدُ ذكرى الآباءِ والأجدادِ، وسيكونُ توثيقاً لنشأةِ المَدينةِ وتطوُّرِها، واجتمعَ المُخرجُ مع المتهم وسوزي كثيراً، تحدَّثَ جو عن حياتِهِ في كوكبِ سيراتا بالتفصيلِ وعن كلِّ حياتِهِ منذُ نشأتِهِ حتَّى القبضِ عليه، كانَ المُخرجُ يُسجِّلُ حديثَ جو على آلةِ تسجيلٍ.

اختارَ المُخرجُ منطقةً قريبةً من بلدةِ (جيرسي) وقامَ بإنشاءِ البيوتِ اللازمةِ كما وصفَها له المتهمُ الذي وَجَدَ فيه خيرَ عونٍ في كلِّ ما يعترضُ تصويرَ الفيلم من مصاعبَ، كانَ المتهمُ في غايةِ السعادةِ؛ لأنَّه سيعودُ بذاكرَتِهِ إلى تلك الأيامِ الجميلةِ مع رفيقَةِ دَرْبِهِ ليزا، واجهتْ المخرجَ مشكلةٌ في اختيارِ المُمَثِّلَةِ التي ستَتَقَمَّصُ شخصيَّةَ ليزا، كان يرفضُ كلَّ الممثِّلاتِ التي يُقابلُهنّ حتَّى يجدَ مَنْ تشبهُ ليزا، وبعدَ جهدٍ جهيدٍ استطاعتْ سوزي إقناعَ جو بإحدى المُمثِّلاتِ، وأخبرتْهُ أنَّ ذلك مجرَّدَ تمثيلٍ لا يمتُّ للحقيقةِ بِصَلَةٍ والهدَفُ منه العثورُ على زوجتِهِ وعائلَتِهِ، لاقى المتهمُ كلَّ التشجيعِ والاحترامِ من سوزي التي أعادتْ له الثقةَ بنفسِهِ والقدرةَ على التواصلِ معَ الآخرين كأنَّهم أصدقاؤه.

كانتْ مراقبةُ المخابراتِ والشرطةِ للمتهم مُستمرَّةً خلالَ فترةِ التصويرِ بشكلٍ يوميٍّ، وكانتْ تعودُ به إلَى السجنِ كلَّ مساءٍ،

كانتْ الأمورُ تسيرُ بشكلٍ طبيعيٍّ إلى أنْ وصلَ التصويرُ إلى مغادرةِ مجموعةِ الرجالِ البلدةَ مع الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ في رحلةِ العشرين رجلاً، وهم يودِّعون أهلَ البلدةِ بتلك الأنشودةِ المُحزنةِ، كانَ المتهمُ على معرفةٍ تامَّةٍ بالطريقِ التي سلكتْها القافلةُ ومُروراً بالأيام الثلاثةِ الأولى حتى ليلةِ الرابعِ من أيامِها ووُصولاً إلى نقطةِ الفصلِ بينَ جو والرجالِ.

كانَ الرجالُ خالدين إلى نوم عميقٍ، وكانَ المتهمُ وزميلٌ له يجلسون أمامَ شُعلةٍ من النارِ، كُلُّ شيءٍ في مكانِهِ والمُخرجُ يَستعدُّ لتصويرِ لحظةِ اختفاءِ جو وقدْ أعدَّ عَرَبَةً جميلةً وطائرةً عموديَّةً؛ لتحملَ العرَبَةَ وتطيرُ بها إلى السماءِ، وكانَ في العرَبَةِ رجالٌ بأشكالٍ غريبةٍ كمَا وصَفَهم المتهمُ أثناءَ التحقيقِ.

كانَ المتهمُ مُتردِّداً عندما وقفَ في المكانِ نفسِهِ الذي ذهبَ لقضاءِ حاجَتِهِ فيه قبلَ عشراتِ السنين، حيث توجَّهَ إلى الموقعِ نفسِهِ الذي اختفى فيه جو، لكنَّ سوزي والمُخرجَ أكَّدا له أنَّه لنْ يحدثَ له شيءٌ، وأنَّ أيامَنا هذه تختلفُ عن تلك الأيام، إلَّا أنَّ المتهمَ كانَ مُتردِّدًا وخائفاً بالرغمِ من وُجودِ طاقمِ المُصوِّرينَ والشرطةِ حولَهُ.

كانتْ الساعةُ حوالي الساعةِ الحاديةِ عشرةَ ليلاً، وما أنْ خَطَا الرجلُ المتهمُ مُقترباً إلى المكانِ نفسِهِ حتَّى بدأ بالصراخِ آه.آه.

ثُمَّ وقعَ أرضاً، صاحَ المُخرجُ:

رائعٌ.... رائعٌ أحسنْتَ يا جو.

اقتربَ المُخرجُ والمُصوِّرون؛ ليقوموا بتصويرِ اللقطةِ المُرتَقَبَةِ، حيثُ سيختفي الرجلُ مع أشخاصٍ غرباءَ، وتحملُ الطائرةُ العرَبَةُ

الموجـودةُ وتطـيرُ بهـا في السـماءِ.

دبَّ الرعـبُ والخـوفُ في قلـبِ المخـرجَ وسـوزي وكلِّ المَوجوديـن، وأخـذَ المُصـوِّرون بـتركِ آلاتِ التصويـرِ ولاذوا بالفـرارِ، لقـدْ اختفـى المتهـمُ مـرَّةً أُخـرَى ولمْ يُعثَـرْ لـه علـى أَثَـرٍ.

اتَّصَـلَ رجـالُ الشـرطةِ بالمَسـؤولين، وأحاطوهـم عِلمـاً بمـا حـدَثَ للمتهـم، في الصبـاح أُرسِـلَتْ فرقـةُ تفتيـشٍ مُـزوَّدةٌ بطائـرةٍ عَموديَّـةٍ للبحـثِ عـن المتهـمِ أو أيَّـةِ أدِلَّـةٍ تكشـفُ عـن سـببِ اختفائِـهِ.

بعـدَ اختفـاءِ المتهـم مـرَّةً أُخـرَى وفي المـكانِ نفسِـهِ الـذي أخـبَرَ عنـه سـابقًا، أكَّـدَ المُحقـقُ مـن جديـدٍ أنَّ كلَّ مـا تحـدَّثَ بـه الرجـلُ كانَ صحيحـاً، وأنَّ اختفـاءَه مـرَّةً أُخـرَى دليـلٌ علـى أنَّـه ليسَ من البشـرِ بلْ مـن عـالَمٍ آخـرَ، وأنَّ لديـه التفاصيـلَ الكاملـةَ عـن حيـاةِ رجـلٍ يُدعَـى جـو عـاشَ قبـلَ عشـراتِ السـنين، وكانـتْ هنـاك قناعـةٌ تامَّـةٌ لـدى المسـؤولِ الأوَّلِ عـن التحقيـقِ أنَّ هـذا الشـخصَ لـنْ يعـودَ مـرَّةً أُخـرَى.

كان المسؤولُ يتحدَّثُ أمامَ عددٍ من زُملائِهِ المُحققين.

قـال أحدُهـم: لـو افترضْنَـا أنَّ مـا تحدثْـتَ بـه صحيـحٌ، فأيـنَ سـام الـذي اختفـى مـن المَشـفى ولم يَعُـدْ لـه أَثَـرٌ؟

قـال المَسـؤولُ: إنَّ حِكايـةَ سـام لا تُصـدَّقُ، ولا بُـدَّ مـن وُجـودِ سِـرٍّ خلـفَ حكايتِـهِ، وعلينـا مُتابعـةَ التحقيقِ من جديدٍ وسـنبدَأُ من المَشـفى.

آخرُ: ماذا لو أنَّ هذا الرجلُ عادَ وظهرَ من جديدٍ؟

كانـتْ سـوزي علـى ثِقَـةٍ بـأنَّ الغُرباءَ قدْ عـادوا من جديـدٍ، واختطفوا الرجـلَ الغريـبَ مـرَّةً أُخـرَى، فبعدَمـا كسـبتْ ثقـةَ المتهـمِ وتحـاورتْ

معه كثيراً كانتْ تعتقدُ أنَّ كلَّ ما قالَهُ صحيحٌ وأنَّهُ صادقٌ تماماً.

حضرتْ سوزي مرَّةً أُخرَى مع فِرَقِ التفتيشِ في الصباحَ؛ لتكونَ على اطِّلاعٍ بكلِّ ما يستجِدُّ من أمورٍ للكشفِ عن حقيقةِ وسرِّ الرجلِ، اعتَذَرَتْ سوزي عن مُرافَقَةِ المُخرجَ؛ لأنَّ المتهمَ لم يَعُدْ موجوداً، إلَّا أنَّها نشرتْ مَقالاً في الجريدةِ تحتَ عُنوانِ (برمودا في الصحراء)، وأوقفتْ سوزي إجراءاتِ الطباعةِ لروايتِها التي كادتْ أنْ تبدأَ؛ لتُضيفَ لها ما يَجِدُّ من أحداثٍ.

كوكب سيراتا ١٨٦٣

على كوكبِ سيراتا أصرَّ الرجلُ على صديقِهِ فردان أنْ يُعيدَ عليه مَقاطِعَ من حياةِ أهلِ البلدةِ؛ ذلك أنَّه لم يستطعْ الهدوءَ بعدَ أنْ شاهدَ أصدقاءَهُ في تلكَ الأحوالِ الصعبَةِ، وذلكَ جعَلَهُ مُتشوِّقاً لِمُشاهدةِ أحوالِ أهلِ بلدَتِهِ خاصَّةً مُشاهدةَ زوجتِهِ وأبنائِهِ، وكيفَ كانَ شعورُهم حالَما وصلَ الرجالُ دونَ أنْ يكونَ معهم وكيفَ كانتْ خيبةُ أملِهم.

وافقَ فردان على فتحَ الجهازِ، وعبرَ الشاشةِ الكبيرةِ شاهدَ جو خيالَ زوجتِهِ وأبنائِهِ من حولِها يترقَّبون عودَتَهُ مع الرجالِ، والفرحةُ باديةٌ على وجوهِ الجميعِ، نزلَ الرجالُ من العرباتِ وكان الجميعُ يحدِّقون بهم وهم ينزلون من العرباتِ؛ لينخرطوا بالأهلِ، وكلٌّ منهم يبحثُ عن زوجتِهِ وأبنائِهِ أو والديه وإخوانه في منظرٍ مُدهشٍ، وعندما يعثرُ أحدُهم على ذويه يبدأُ العناقَ والسلامَ بحرارةِ الصيفِ، تُطفئُها قبلاتُ الأحبَّةِ، في حين كانتْ زوجتُهُ

واجمةً بلا حِراكٍ، تنتظرُ أنْ تجدَهُ، وكانَ العمدةُ ومُساعدُهُ وآخرون يُراقبونَ هذا المنظرَ الجميلَ، وما هي إلَّا لحظاتٌ حتَّى بدأَ الجميعُ بالرقصِ والغناءِ، وكلُّ واحدٍ منهم مشغولٌ بأهلِهِ وأحبَّتِهِ، ونسيَ أو تناسى كلَّ مَنْ حولَه، وفي تلك اللحظةِ زلزلَ صوتٌ عنيفٌ أرجاءَ الساحةِ وأصمَّ الآذانَ وهزَّ المشاعرَ واقشعرَّتْ له الأبدانُ.

كان الرجلُ يبكي وينتحبُ ويتوسَّلُ إلى فردان أنْ يُساعدَهُ في العثورِ على عائلَتِهِ، وفردان يهدِّئُ من روعِهِ.

سادَ الصمتُ فجأةً كلَّ مَنْ في الساحةِ وكأنَّ على رؤوسِهم الطيرَ، واتَّجهْت الوجوهُ نحوَ مصدرِ الصوتِ وإذا بامرأةٍ جو تقفُ وحيدةً في آخرِ الساحةِ، التفَّتْ يدُ ابنتِها اليافعةِ حولَ عنُقِها، وصغارُها يتمسَّكون بأطرافِ ثوبِها وهيَ تبكي بحرارةٍ ولوعةٍ، ودموعُها تنهمرُ بغزارةٍ وغضبٍ، ثُمَّ صرخَتْ من جديدٍ بصوتٍ حزينٍ: «أينَ زوجي؟ أينَ زوجي؟» صاحَ الرجلُ: «أنا هنا حبيبتي، أنا هنا» وجعلَ يبكي ويُتمتِمُ، ومزَّقَ الألَمُ صدرَهُ، وهو يُشاهدُ زوجَتَهُ تنتحِبُ والهَلَعُ أصابَ الصغارَ من حولِها، أخذَ جو يصرخُ من جديدٍ: «أنا هنا... أنا هنا يا حبيبتي، سأعودُ إليكم قَريباً، أقسِمُ على ذلكَ.....» وأخذَ يبكي.

كانتْ الحلقةُ الأخيرةُ التي على وشكِ أنْ يُشاهدَها تسبِّبُ له ألَماً حادّاً مع نقمةٍ كبيرةٍ على أخيه جون المُدلَّلِ والأنانيِّ، لكنَّه وفي نفس الوقتِ سيكونُ سعيداً عندما يعرفُ أنَّ ابنَتَه استطاعتْ الوقوفَ في وجهِهِ، وأخذَتْ ما تريدُ منه، إنَّ ما شاهدَهُ المتهمُ أفقدَهُ صوابَهُ، فلَمْ يحتملْ أنْ يرَى زوجتَهُ تصرخُ وتفقدُ وعيَها، ولم يَسُرُّهُ النظرُ إلى حالِ ابنتِهِ؛ فأخذَ يُؤنِّبُ نفسَهُ على عدمِ العودةِ إليهم

مُباشرةً بعدما تلقَّى العلاجَ، وما أدْمَى قلْبَه أنَّ عائلَتَه والجميعَ أيقنُوا أنَّه ميتٌ، نعمْ، ربَّما لهذا السبَبِ غادروا البلدةَ، وربَّما عادوا إلى بايون أو جيرسي أو غيرِها- حدَّثَ المتهمُ نفسَه- يجبُ أنْ أعودَ للبحثِ عنهم في كلِّ مكانٍ، يجبُ أنْ أعثُرَ عليهم، وأَلُمَّ شمْلَنَا من جديدٍ، سأطلُبُ من صديقي فردان أنْ يساعدَني في العثورِ عليهم؛ فهوَ لنْ يتخلَّى عنِّي أبداً.

«حانَ الوقتُ جو لمُتابعةِ أحداثِ البلدةِ»- قاطعَهُ سيد فردان-

«نعمْ سيدي أنا جاهزٌ» قال الرجلُ

لا عليك، سترى الآنَ ما يُزيلُ عنَّك هُمومَك ويُطمئِنُك على عائلتِكَ، هيَّا بنا، قال فردان واصطحَبَهُ من جديدٍ إلى قاعةِ الشاشةِ الكبيرةِ؛ لِيُشاهدَ ما تبقَّى من أحوالِ أهلِ بلدتِهِ وأسرتِهِ التي لم يعشْها من قبلُ.

كانتْ زوجةُ جو مُنهارةً تمامًا، وبقيتْ طوالَ الليلِ تبكي حظَّها وأيامَ وحدتها القادمةَ وحياةَ الفقرِ التي تنتظرُها، في حين كانتْ سارةُ التي أعياها الألَمُ والسهرُ قدْ هربتْ من الحقيقةِ إلى الخيالِ وأسلمتْ نفسَها لنومٍ عميقٍ، وأخواها الصغيران ما زالا مُلتفَّين حولَها طلبًا للأمنِ والدفءِ.

بالرغمِ من سعادتِهِ للقاءِ أصدقائِهِ من جديدٍ على كوكبِ سيراتا، إلَّا أنَّه كان حزيناً لعدمِ قدرتِه على العثورِ على عائلتِهِ، وكان حزيناً أكثرَ لأنَّ أهلَ المدينةِ كذَّبوه ووقفوا ضدَّهُ، وتنكَّروا له وألقوه في السجن باتهاماتٍ لا أساسَ لها من الصحَّةِ، لكنَّ صديقَهُ فردان أعدَّ له مُفاجأةً مُذهلةً ستُعيدُ له سعادتَه وحيويَّتَه؛ ليعيشَ من جديدٍ بينَ أصدقائِهِ الذين افترقَ عنهم أثناءَ رحلتِه للعملِ مع

الفـارسِ ذي الحصـانِ الأسـودِ.

كانـتْ دموعُـهُ تنسـابُ برفـقٍ كسـيلٍ يخـترقُ الـوادي، يـكادُ صوتُـه المخنـوقُ يُسـمَعُ بوضـوحٍ، لكنَّـه حافـظَ قـدْرَ المُستطاعِ علـى ألَّا ينفجـرَ؛ لأنَّـه كان حريصـاً علـى مشـاهدةِ كلِّ حركـةٍ أمامَـهَ، ومـا كادَ يُنهـي مُشـاهدةَ آخـرِ لقطـةٍ حتَّـى انفجـرَ باكيـاً.

بكـى منـذُ مسـاءِ ذلـك اليـوم الـذي أنهَـى فيـه مُشـاهدةَ حيـاةِ أصدقائـه، خاصـةً حيـاةَ العمـدةِ الأبِ الروحـيِّ لـه، بكـى وحيـداً لـموتِ العمـدةِ لكرمـه وشـهامتِه، وعندمـا دخـلَ إلى غرفتِـهِ وأوى إلى سـريرِه ذلـك السـريرُ الـذي سـيغادرُهُ إلى الأبَـدِ تلـكَ الليلـةَ.

كلُّ حـركاتِ وكلام العمـدةِ مـا برحـتْ تُفـارقُ خيالَـه لحظةً، اسـتثارَ بكاءَه كلُّ شـيءٍ تذكَّرَهُ عنه منذُ أنْ قابلَه بالصدفةِ في الطريقِ إلى المجهولِ حتَّـى وداعِـه عندمـا غـادرَ وصحبُـه برفقةِ الفـارسِ ذي الحصانِ الأسـودِ.

تمنَّـى أنْ يمـوتَ تلـك اللحظـةَ؛ ليلحـقَ بالركـبِ مـن الأحبَّـة والأصدقـاءِ؛ فالحيـاةُ بعيـدًا عنهـم لا معنـى لهـا، لقـدْ كان مُثقـلاً بالأسَـى، وازدادَ نحيبُـه وهـو يرقُـدُ وحيـداً في سـريرِهِ حتَّـى أيقظَـهُ صـوتُ فـردان الـذي سـيصطحِبُه إلى عالَـمِهِ الإنسـيِّ وإلى الأبَـدِ حتَّـى بعـدَ عودَتِـهِ إلى الأرضِ لم ينـسَ تلـكَ الأحـداثَ ولم ينـسَ العمـدةَ نورمـان والـدَه الروحـيَّ أبـداً.

كانَ صديقُـه فـردان قـدْ أرسـلَ بعثـةً إلى الأرضِ تراقِبُ وتُسـجِّلُ رحلةَ أصدقـاءِ جـو وحياتَهم خلالَ تلك السـنةِ من العمـلِ مع الفارسِ منذُ لحظةِ افتراقِهـم عـن جـو، وأخـذَ عـبرَ الشاشـةِ الكبيـرةِ يشـرحُ لجـو حياتَهـم.

مدينة جيرسي ١٩٨٦

بينمَا كان أحدُ الأطبَّاءِ المُناوبين في المَشفى في مدينةِ جيرسي يتفقَّدُ مَرضاه عرَّجَ على غُرفةِ الموتى بعدَ أنْ شكَّ أنَّه سمعَ صوتاً قادِمًا من الغرفةِ، تردَّدَ قليلاً قبلَ أنْ يُقَرِّرَ الدخولَ، وعندما فتحَ بابَ الغرفةِ تملَّكَهُ الخوفُ وانعقدَ لِسانُهُ، وتسمَّرَ مكانَه، ووقفَ شعرُ رأسِهِ، وكادتْ قدماه أنْ تخوناه، أدارَ رأسَهُ ببُطءٍ وفي العمقِ حيثُ تقبعُ جثَّةُ الرجلِ الغريبِ والمجهولِ، حدَّقَ في الضوءِ المُنبعثِ منها كضوءِ مُصباحٍ مُلوّنٍ، وخُيِّلَ له أنَّه سمعَ صوتاً من داخلِها يقولُ: له لا تهرَبْ، تراجعَ الطبيبُ أوتوماتيكيًّا إلى الخلفِ محاولاً الفرارَ ببطءٍ شديدٍ، تراجعَ إلى خارجَ الغرفةِ، ثُمَّ أسرعَ وساقاهُ تُسابقانِ الريحَ إلى غُرفةِ الأطبَّاءِ.

ما زالَ الطبيبُ ينظرُ خلفَهُ ويلهثُ حتَّى جلسَ على كرسيٍّ بجانبِ المكتبِ، وزملاؤه الأطبَّاءُ مُستغربون من تصرُّفاتِهِ، وهوَ يُتمتِمُ بكلامٍ غيرَ مفهومٍ، تناولَ الطبيبُ كأسَ ماءٍ وقالَ لمَن حولَهُ:

لقدْ شاهدْتُ شيئاً غريباً في غُرفةِ ثَلَّاجَةِ المَوتى أيُّها الزملاءُ.

قال أحدُهم: وماذا شاهدتَ؟

الطبيبُ: لقدْ رأيتُ ضوءاً يُضيءُ ويختفي عندَ جُثَّةِ الرجلِ المجهولِ.

قال أحدُهم: لا بُدَّ أنَّك مُتعبٌ يا صديقي.

قال آخرُ: لا، لا يا سادةُ، زميلُنا أثقلَ من الشرابِ هذه الليلةَ.

الطبيبُ: يحقُّ لكم ذلك، ولكنْ أرجو منكم أنْ تُرافقُوني لِتتأكَّدوا بأنفسِكُم.

ذهبَ الجميعُ إلى غرفةِ ثلَّاجةِ المَوتى، وأناروا الضوءَ ولم يُشاهدوا شيئاً، وأخذَ الجميعُ بالضحكِ، وقالوا:

ماذا يا دكتورُ؟ يبدو أنَّك مُتعبٌ جِدّاً.

الطبيبُ: لو سمحتُم، أغلِقُوا البابَ وانتبهوا جَيِّداً إلى جثَّةِ الرجلِ الغريبِ.

أطفأَ الطبيبُ الضوءَ وبدأَ الزملاءُ يُحدِّقون بالجثَّةِ، ثُمَّ صاحوا عليه ليفتَحَ البابَ.

أخرجَ الأطبَّاءُ جثَّةَ الرجلِ الغريبِ، وقاموا بتفتيشِها مَرَّةً أخرَى ولم يجِدوا شيئاً، اقترَحَ الطبيبُ تصويرَ الجثَّةِ بالأشعَّةِ، وعندما راقبوا الصورةَ تبيَّنَ أنَّ هناك جِسماً غريباً في حَلْقِ الجثَّةِ، وعندما أخرجوه كانَ أشبهَ بقرْصٍ معدنيٍّ، أكَّدَ الأطبَّاءُ أنَّ هناك مَنْ قام بوضْعِ القُرْصِ بعدَ التشريحَ، وأنَّ هذا القرصَ يحملُ رسالةً غامضةً، ربَّما كَشفتْ عن صاحبِ الجثَّةِ.

اتَّصلَ الأطبَّاءُ بالشرطةِ، وكانتْ سوزي قد علمتْ بواسطةِ زميلٍ لها يعملُ في المَشفى فحضرتْ على الفورِ، وأخذتْ ما تحتاجُهُ من معلوماتٍ وصُوَرٍ قبلَ وُصولِ الشرطةِ، احتفظتْ الشرطةُ بالقرْصِ المعدنيِّ وأرسلتْهُ إلى المَسؤولين والمَعنيين لفحصِهِ.

لم يستطِعْ الخبراءُ التوصُّلَ إلى شيءٍ ما بخصوصِ القُرْصِ، فأوصتْ اللجنةُ بتحويلِهِ إلى إحدى الشركاتِ المُتخصِّصَةِ في الإلكترونياتِ

لدراستِهِ ومَعرفَةِ ما جاءَ فيه تحتَ المُراقبةِ المُستمرَّةِ من المخابراتِ.

عكفَ الخبراءُ في الشركةِ على دراسةِ هذا القرصِ ومحاولةِ وضعِهِ في الأجهزةِ الموجودةِ لديهم لعلَّها تستطيعُ قراءةَ ما كُتِبَ عليه، لكنَّهم لم يتوصَّلوا إلى نتيجةٍ؛ فقرَّرَتْ الشركةُ صناعةَ جهازٍ خاصٍّ يتناسبُ والقرصَ المعدنيَّ، وبعدَ مُحاولاتٍ عِدَّةٍ كانتْ سعادةُ الجميعِ بالغةً وهم يُشاهدون على الشاشةِ الكتابةَ تظهرُ أمامَهم واضحةً جِدّاً، ولم يستطعْ أحدٌ منهم ترجمةَ تلك الحروفِ والكلماتِ؛ فقدْ كانتْ بلُغةٍ غيرَ معروفةٍ.

شكرَ المسؤولُ في المخابراتِ خبراءَ الشركةِ والمسؤولين فيها على نجاحِهم، ووعدَهم بمُكافأةٍ جَيِّدَةٍ، وأخذَ معه الجهازَ والقُرْصَ وسلَّمَها للمسؤولين.

عقدتْ اللجنةُ جلسةً فوريَّةً لها، وشاهدتْ الرسالةَ المكتوبةَ على ذلك القرصِ، وأجمعَ الكلُّ على أنَّ تلك الرسالةَ ستكشفُ عن سِرِّ الجثَّةِ المجهولةِ التي ما زالتْ في المَشفى، ولم يتعرَّفْ أحدٌ عليها، لكنَّ المُحقِّقَ الرئيسيَّ تذكَّر كلامَ الرجلِ الغريبَ الذي أخبرَهُ عن وجودِ مخلوقاتٍ غريبةٍ، عاشَ معها وتعلَّمَ لُغتَها، أخبرَهم أنَّه سيكشفُ سِرَّ هذه الرسالةِ قريباً.

تمنَّى المحقِّق أنْ يعودَ الرجلُ من جديدٍ، لعلَّه يستطيعُ تفسيرَ وترجمةَ تلك الرسالةَ، واقتنعَ أخيراً أنَّ سوزي كانتْ دائماً على حقٍّ، وأنَّه أخطأَ في تقديراتِهِ، أكَّدَ المُحقِّقُ للجنةِ أنَّ مصدرَ تلك الرسالةِ الموجودةِ على القرصِ المعدنيِّ هوَ من الكوكبِ الذي اختطفَ الرجلَ الغريبَ.

كانَ الشارعُ العامُّ في البلادِ يُخيِّمُ عليه الخوفُ بعدَ تلك المقالةِ التي نشرتْها الصحفيَّةُ سوزي بعُنوانِ (برمودا في الصحراء)، وبطَلَبٍ من المسؤولِ الرئيسِ في المخابراتِ نشرتْ سوزي مَقالةً لها في الجريدةِ تحتَ عُنوانِ (سيعود سام سالماً)، وأكَّدَتْ لكلِّ الناسِ والمسؤولين أنَّ الأيامَ القادمةَ ستُبرهِنُ للجميعِ صِدْقَ ما كتبتْ، وأنَّ قلمَها لا يقولُ إلَّا الحقائقَ المُدعمَةَ بالأدِلَّةِ والبراهينِ.

فرحَ والدا سام بذلك المقالِ؛ إذْ كانتْ والدةُ سام تثِقُ بسوزي كلَّ الثقةِ، وانقسمَ الناسُ بينَ مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ لمضمونِ المقالِ، وانتشرتْ الإشاعاتُ التي لنْ يضعَ حدّاً لها إلَّا عودةُ الرجلِ الغريبِ أو ظهورُ سام.

بقيَ الجميعُ يترقَّبُ بفارغِ الصبرِ عودةَ الرجلِ مرَّةً أُخرَى؛ لأنَّ ذلك سيمنحُ الكلَّ أماناً واطمئناناً خاصَّةً والدَي سام اللذين ما زالا يُصرَّانِ على أنَّ ذلك الرجلَ هو ابنُهما، حتَّى لو أنْكرَ ذلك هو والآخرون، وبقيتْ سوزي في شوقٍ شديدٍ لعودةِ الرجلِ؛ لأنَّها تعوَّدَتْ عليه، وأخذتْ تألفُهُ، كمَا أنَّ ظهورَه سيُساعدُ في وضْعِ نهايةٍ مُقنِعَةٍ لروايتِها التي أصبحتْ أهمَّ عملٍ تقومُ به في حياتِها.

وبقيَ المُخرجُ، يترقَّبُ هو الآخرُ بكلِّ شوقٍ عودةَ الرجلِ ليُكملَ الفيلمَ الذي أنفقَ عليه الكثيرَ من المالَ؛ حتَّى يكونَ جاهزاً للعرضِ، كانَ المُخرجُ يأمَلُ أنْ يتذكَّرَ الرجلُ كلَّ شيءٍ شاهدَهُ لدى العالَمِ الآخرِ في كوكبِ سيراتا؛ ليُعطيَ فيلمَهُ مزايا خاصَّةً وخيالاً واسِعاً يُرضي الجمهورَ.

لكنَّ المُحققَ واللجنةَ ظلوا يترقَّبون عودةَ الرجلِ؛ ليَحُلَّ لهم ألغازاً طالَ أمَدُ استغلاقِها، وليُترْجِمَ لهم تلكَ الرسالَةَ الغريبةَ،

لعلَّها تكشفُ كلَّ الأسرارِ المحيطةِ به أولاً وبالجُثَّةِ ثانياً، وقد تساعدُ العلماءَ على كشفِ أسرارِ ذلك العالَمِ الغريبِ وما فيه من حضارةٍ وتَطوُّرٍ، وتكشفُ أيضاً الطرقَ المُمكِنَةَ للاتِّصالِ به.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

ظلَّتْ الأمُّ تحيَا على أمَلِ عودةِ وحيدِها؛ لذلك أعدَّتْ البيتَ وخاصَّةً الغرفةَ الخاصَّةَ بسام، وجهَّزَتْ كلَّ شيءٍ فيها كمَا كانتْ، ووعدَتْ بعملِ احتفالٍ كبيرٍ، وجهَّزَتْ الدعواتِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في حلِّ لُغزِ ابنِها وإخراجِهِ من مِحنتِهِ خاصَّةً سوزي والمُحقق، كانتْ مُتحمِّسةً لعودةِ ابنِها الذي أرادتْ أنْ تُعيدَ له ثقتَهُ بنفسِه وتعوِّضَهُ عن السنين التي ضاعتْ هدَراً من حياتِهِ وهو يتألَّمُ ويتعذَّبُ.

بالرغم من أنَّ اختفاءَ الرجل- مرّةً أُخرَى- أحدثَ صدمةً قويّةً لوالدَي سَام إلَّا أنَّهما كانا يترقَّبان عودَتَهُ في كلِّ لحظةٍ من الليلِ والنهارِ، ولم يخرجَا من البيتِ إلَّا لأمرٍ هامٍّ جِدًّا، وإذا خرجَ أحدُهما بقيَ الآخرُ في المنزلِ ينتظرُ.

ذاتَ صباحٍ وكالعادةِ أفاقتْ أمُّ سام مُبكِّرَةً، وأخذتْ تُعِدُّ طعامَ الإفطارِ فيما بَقيَ زوجُها في فِراشِهِ، وما كادتْ تصلُ إلى المطبخِ في الدورِ الأوَّلِ حتَّى سمعتْ صوتاً وضَجَّةً في الطابقِ العلويِّ لم تَعهدْها من قبلُ إلَّا أيامَ سام فصعدتْ لترى إنْ كان زوجُها قد أفاقَ من نومِهِ، وغادرَ فِراشَهُ على غيرِ العادةِ، فوجدتْهُ ما زالَ يَغُطُّ في نومٍ عميقٍ، وكانَ مصدرُ الصوتِ غرفةَ سام المُغلقةَ بالمفتاحَ.

شعرتْ أمُّ سام بالخوفِ وأيقظتْ زوجَها من نومِهِ وأخبرتْهُ بالأمرِ، ذهبَ الزوجُ إلى غرفةِ سام فسمعَ صَوتًا وهمهمَةً وضَجَّةً كبيرةً، اتَّصلَ الزوجُ على الفورِ برجالِ الشرطةِ فأتوا مُباشرَةً وطوَّقوا المنزلَ، ثُمَّ دخلَ عددٌ منهم إلى الدورِ الثاني، وتوجَّهوا إلى غرفةِ سام وفي مُقدِّمتِهم الضابطُ المسؤولُ مُصوِّبين أسلحَتَهم نحوَ الغرفةِ، أخذَ الضابطُ المفتاحَ من والدِ سام وهو يتبعُهم بحذَرٍ وخوفٍ، فتحَ الضابطُ البابَ بسرعةٍ واقتحمتْ الشرطةُ الغرفةَ، ثُمَّ صاحَ الضابطُ بالرجلِ لا تتحرَّكْ ارفعْ يديكَ.

عندما شاهدَ والدُ سام الرجلَ صرخَ بالضابطِ قائلاً:

توقَّفوا، توقَّفوا، إنَّه ابني، إنَّه سام.

كان هذا الشخصُ هو الرجلُ الغريبُ مرَّةً أُخرَى، لذلكَ اعتذرَ والدُ سام من رجالِ الشرطةِ وأبلغُوا المُحقق المسؤولَ، لكنَّ الرجلَ ما زالَ يُصرُّ على أنَّه جو.

أمضى المتهمُ أيَّاماً جيِّدَةً بين أصدقائِه بعدما حرَّرُوه من السجنِ، ووعدوه بمُساعدتِهِ للعثورِ على عائلتِه وحِمايتِهِ من الآخرين، شاهدَ الأحداثَ التي لم يَعِشْها في البلدةِ، وكان يعتقدُ أنَّه سيعرِفُ في النهايةِ أينَ يجدُ زوجتَهُ وأبناءَهُ.

كان المُحقُق سعيداً بعودةِ الرجلِ مرَّةً أُخرَى، وأكَّدَ لوالدِ سام أنَّ عودتَهُ إلى المنزلِ تؤكِّدُ أنَّه سام دونَ أدنَى شكٍّ، لكنَّ المحقق أخذَ الرجلَ الغريبَ إلى مكتبِهِ، وعكفَ معه على ترجمةِ تلكَ الرسالةِ.

قال المُحقُقُ: كيفَ اختفيتَ من منطقةِ (برمودا) في بلدةِ (جيرسي) أثناءَ التصويرِ؟

قال الرجلُ: لقدْ شعرتُ بأنَّ أحداً يقبضُ عليَّ ويحملُني ثُمَّ وجدتْ نفسي مرَّةً أُخرَى مع أصدقائي في المركبَةِ، جاءوا ليأخذوني، شاهدتُ حياةَ أصدقائي في مزرعةِ الفارسِ ذي الحصانِ الأسودِ منذُ لحظةِ افتراقي عنهم مرَّةً أُخرَى.

قال المحققُ: ماذا فعلتَ هناك؟

قال الرجلُ: لا أدري، بعدَ أنْ وصلتُ إلى كوكبِ سيراتا، وقابلتُ صديقي كبيرَ العلماءِ، قالوا لي أنَّهم يُريدونَ الاطمئنانَ على صِحَّتي، ثُمَّ أدخلوني إلى المَشفى، وفجأةً وجدتُ نفسي قبلَ قليلٍ في غرفةٍ صغيرةٍ حتَّى حضرتْ الشرطةُ.

قال المحققُ: لقدْ غِبْتَ عنَّا عشرين يوماً كاملاً.

قال الرجلُ مُندهشاً: لا أُصدِّقُ ذلك.

قال المحققُ: قلتَ أنَّك تعلَّمْتَ لُغتَهم، هلْ تستطيعُ أنْ تُعلِّمَني إياها؟

قال الرجلُ: بكلِّ سرورٍ سيدي، تفضَّلْ سيدي هذهِ رسالةٌ لك من صديقي كبيرِ العلماءِ.

فتحَ المُحقِّقُ الرسالةَ وابتسمَ، ذُكرَ فيها أنَّ هذه ترجمةٌ للرسالةِ الأولى، تُرجِمَتْ لكم لكي لا يطَّلِعَ عليها صديقُنا، لئلاَّ يعرفَ حقيقةَ الأمرِ.

كان الرجلُ الغريبُ قدْ أحبَّ ما قامَ به من تصويرٍ وهوَ في شوقٍ لمُتابعةِ ذلك، وكانَ يسألُ عن سوزي التي رافقتْهُ في كلِّ حَرَكَةٍ وكلمةٍ في الفيلمِ، وكانَ لها الدورُ الفعَّالُ في الوقوفِ إلى جانبِهِ.

٢

كانتْ الرسالةُ بمثابةِ صفحةٍ جديدةٍ، واعتقدَ النقيبُ آدمُ أنَّه سيكتشفُ لغزَ الرجلِ المتهمِ والجثَّةَ المجهولةَ معاً، لقدْ أخبرني المتهمُ بأنَّه تعلَّمَ لُغتَهم، قَال النقيبُ آدمُ، كانتْ الرسالةُ تُؤكِّدُ وجودَ مخلوقاتٍ أُخرَى تعيشُ على كواكبَ أُخرَى، وكشفتْ أنَّ لهؤلاءِ الغرباءِ حضارةً عظيمةً وتطوُّراً مُذهلاً، وأنْ باستطاعتِهم قطعَ مسافاتٍ هائلةٍ في وقتٍ قصيرٍ.

عقدتْ الهيئةُ المُكلَّفةُ بمتابعةِ القضيَّةِ جلسةً سِرِّيَّةً للاطِّلاعِ على فحوى الرسالةِ والتي تقولُ:

تحيَّةً لكم من شعبِ بطليمَ، نحنُ نعيشُ على كوكبِ سيراتا، يعيشُ شعبُنا هذه الأيامَ عصرَه الذهبيَّ ونحنُ نحتفلُ بانتصارِنا مع الأشقَّاءِ شعبِ ميرون في كوكبِ مارتون بفضلِ زعيمِنا خادوش الذي استلمَ الحكمَ بعد والدِهِ والذي استطاعَ إنهاءَ الاختباراتِ والتجاربِ بعد سنواتٍ طويلةٍ من أجلِ رفعةِ وتقدُّمِ شعبينا.

في حفلِ تتويجَ الزعيم خادوش أكَّدَ العلماءُ أنَّ زعيمَنا يتمتَّعُ بمواهبَ فذَّةٍ، لذلكَ أَطْلَعَ كبيرُ العلماءِ لدينا هيئةَ العلماءِ في الدولةِ على تجاربَ كانَ يُجريها من قبلُ تُؤدِّي إلى نقلِ أفكارٍ ومواهبَ من شخصٍ إلى آخرَ دونَ أنْ يفقدَ الأوَّلُ شيئاً منها.

بعدَ نجاحَ التجاربِ على حيواناتِنا قرَّرَ كبيرُ العلماءِ تطبيقَها على مخلوقاتٍ تتمتَّعُ بعقلٍ وذكاءٍ، فوقعَ الاختيارُ عليكم، توجهَّتْ بعثةٌ علميَّةٌ على متنِ مركبةِ الأبحاثِ إلى كوكبِ الأرضِ، وعندما وصلتْ

إلى منطقةِ (برمودا) قربَ (نيوفلج) ليلاً كانَ هناك شخصٌ يتخبَّطُ من شِدَّةِ الألَم، تَمَّ إسعافُه من قبلِنا، واكتفى العالمُ به لإجراءِ التجارب عليه، كَانَ الرجلَ مُصاباً بنوبةٍ قلبيَّةٍ، فَتَمَّ علاجُهُ وأُجريَتْ لَهُ عمليَّةٌ في قلبِهِ كانتْ ناجحةً، وعاشَ بينَنَا مُدَّةً طويلةً وتعلَّمَ لغتَنَا.

كانَ الرجلُ يطلُبُ مِنَّا العودةَ إلى وطنِهِ وعائلتِهِ، وعندما تعبَ وساءتْ حالتُهُ تمَّ تخزينُ ذاكرتِهِ على أجهزةٍ خاصَّةٍ، وهيَ أدمغَةٌ غايَةٌ في الحساسيةِ، ثُمَّ تُوفِّيَ الرجلُ وحُنِّطَ وحُفِظَ لدينا، كانَ هذا الرجلُ يُدعَى جو من بلدةِ (نيوفلج)، إنَّ الجثَّةَ التي وجدتموها أمامَ المَقهى تعودُ لجو.

وهناكَ مُلاحظةٌ هامَّةٌ وهيَ أنَّ مُتوسِّطَ أعمارِ شعبِنَا يتجاوزُ الألفِ عام، وعندما قرَّرَ كبيرُ العلماءِ تثبيتَ ذاكرةِ جو على رجلٍ آخرَ انتقلَتْ مركبةُ الأبحاثِ في ٣/٨ الساعةَ الثامنةَ صباحاً، وتوجَّهتْ إلى مدينةِ (ترنتون) وبعدَ فُحوصاتٍ كثيرةٍ عن بُعدٍ بواسطة أجهزةٍ تعملُ بالأشعَّةِ تمَّ اختيارُ شابٍّ يُدعى سام، وأُخِذَ عِدَّةَ مرَّاتٍ من مناطقِ تواجُدِهِ لفتراتٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ، تعرَّضَ فيها إلى صدَماتٍ من نوعٍ خاصٍّ؛ ليُهيَّأَ لاستقبالِ ذاكرةِ جو.

وفي ٥/١٠ الساعةِ التاسعةِ ليلاً أُخِذَ من منزلِهِ لمُدَّةِ أربع ساعاتٍ، وتَمَّ وضْع قطعةٍ صغيرةٍ تحتَ جلدةِ رأسِهِ تستقبلُ ذبذباتٍ خاصَّةً كلَّ ستِّ ساعاتٍ مرَّةً، بقيَ سام بعدَ ذلك تحتَ المُراقبةِ المُستمرَّةِ.

في ٧/٢٠ أُخِذَ من المَشفى ليلاً، وبقيَ لدينا مُدَّةَ أسبوعين، حيثُ تمَّ تثبيتُ ذاكرةِ جو له، ثمَّ أُعيدَ للمشفى مدَّةَ ساعتين فقطْ، تأكَّدَ خلالهما العلماءُ أنَّه أصبحَ شخصاً غريباً، لا يعرفُ

أحداً في المَشفى، ثُمَّ نُقِلَ في ٨/٥ الساعةِ الحاديةِ عشرةَ والنصفِ صباحاً إلى مدينةِ (جيرسي) أمامَ المَقهى، وبذلك نجحتْ العمليَّةُ نجاحاً باهرًا، فكانَ سام يلبسُ ملابسَ جو التي احتفظْنَا بها لدينا، وبقيَ سام تحتَ مُراقبتِنا ليلاً ونهاراً.

هناكَ أمرٌ هامٌّ لا يعرفُهُ أحدٌ منكم، ونحبُّ أنْ نُطلعَكُم عليه مُكافأةً منَّا للسيدِ سام الذي كانَ رائعاً في سلوكِه وتجاوُبِهِ معنا، كانَ لجو ولدان أحدُهما يُدعى جورج وكانَ شبيهاً جدّاً بأبيه؛ لذلكَ كانَ تحتَ المُراقبةِ إلى أنْ مرضَ جو، وتابعنَا رحلةَ حياتِهِ، حيثُ غادرَ جورج بلدةَ (نيوفلج) بعد الحربِ إلى مسقطِ رأسِ أبيه مدينةِ (بايون) وسام هو من أحفادِ جو.

بعدَ ذلك النجاحَ الكبيرِ قرَّرَ كبيرُ العلماءِ إجراءَ تجربَةٍ أخيرةٍ لإعادةِ ذاكرةِ سام إليه وإلغاءِ ذاكرةِ جو الدخيلةِ، كمَا أنَّنا أجريْنَا له عمليَّةً لعينيهِ، وأعدْنَا له عينيه كما كانتْ من قبلُ؛ ولذلك سيستعيدُ سام ذاكرتَه خلالَ عشرين يوماً من عودتِه إليكم.

كما نودُّ الردَّ على اقتراحِكُم بزيارةِ علمائكم لنا فنقول لكم بأنَّكم على كوكبِ الأرضِ تعيشون حياةً تختلفُ في طبيعتِها وأجوائِها كلَّ الاختلافِ عن بيئتنا؛ لهذا فالأمرُ غيرُ واردٍ بالنسبةِ لنا، عدَا أنَّ العلومَ التي لدينا تسبقُ زمَنَكُم بآلافِ السنين، ثُمَّ أنتُم يتحكَّمُ الأثرياءُ بالفقراءِ والملايين يموتونَ جُوعًا كلَّ عام، فيما يتمتَّعُ القليلُ من ذوي الثراءِ الفاحشِ بخيراتِ العالَم، وتُنفقون المليارات على السلاحَ؛ ليحتلَّ أصحابُ المصالح من الدولِ الغنيَّةِ الدولَ الضعيفةَ بحججٍ كاذبةٍ، وليستولوا على خَيراتِها، ويعيثوا في الأرض الفسادَ، ويكذبُون على شعوبهم والعالمِ.

ربَّما تسألون عن خطفِ جو كمَا كانَ يُعتقدُ ويُردَّدُ من قبلُ، فللضرورةِ أحكامٌ، لأنَّ ذلك كان من أجلِ العلمِ فقطْ، وجو كان موضعَ ترحابٍ، ولاقى منَّا كلَّ الاحترامِ والتقديرِ وكذَلك الأمرُ بالنسبةِ لسام الذي عاشَ مُعزَّزاً بيننا، كمَا نودُّ إعلامَكم أنَّ فتاةً من أحفادِ جو تزوَّجتْ بايطالي وهاجرَا لروما وهمْ تحتَ المُراقبةِ ولهما قصَّةٌ أُخرَى.

أخيراً فلنْ نتردَّدَ في أخذِ مَنْ نشاءُ منكم من أجلِ البحثِ العلميِّ وفي الوقتِ الذي نُقرِّرُ.

أُصيبَ المجتمعون بذُهولٍ وصدمةٍ، ولم يُصدِّقوا ما جاءَ في هذه الرسالةِ، فقدْ رأوا أنَّ نقلَ ذاكرةٍ من شخصٍ لآخرَ شيءٌ مُستحيلٌ، وأكَّدَ البعضُ منهم أنَّ هذا من تأليفِ الرجلِ الغريبِ الذي تعوَّدَ على سردِ الحكاياتِ الخياليَّةِ، قال المسؤولُ:

أنا لا أصدِّقُ ما أسمعُ، أنتُم تتابعون القضيَّةَ من البدايةِ، على كلِّ حالٍ ستبقى عودةُ الرجلِ الغريبِ أيْ سام الطالبِ الجامعيِّ كمَا أخبرتْ الرسالةُ إلى طبيعتِه هي الفيصلُ في القضيَّةِ كلِّها، وسننتظرُ عشرين يوماً حتَّى نرى ماذا سيحدُثُ؟

علمتْ سوزي والمُخرجُ بعودةِ الرجلِ الغريبِ من جديدٍ، وأبلغهم المُحقِّق أنَّه سيستعيدُ ذاكرتَهُ في القريبِ العاجلِ، وأنَّه سيعودُ لوضعِهِ السابقِ طالباً جامعيّاً، لكنَّ المُحقق أخفى عن سوزي أمراً هاماً.

٣

عندما التقَى الرجلُ الغريبُ أوَّلَ مرَّةٍ بسوزي، عندما عادَ من كوكبِ سيراتا –كما يزعمُ– واحتجزَهُ المحققُ لترجمةِ رسالتِهم قالَ لها:

آنسةُ سوزي، إنَّ أصدقائي في كوكبِ سيراتا أرادوا أنْ يُكافئوك على رِعايتك ومُساعدَتِك لي، وطلبوا مني أنْ أسلِّمَك هذهِ الرسالةَ، وقالوا لي: إنَّها سبقٌ صحفيٌّ حسبَ تعبيرِكم، وسلَّمَها الرسالةَ.

سوزي: هلْ علمَ أحدٌ بأمرِ الرسالةِ؟

الرجلُ: كلَّا لقدْ أخفيتُها عن المُحققِ.

سوزي: أنتَ رائعٌ حقًّا أشكرُكَ على ذلك.

فتحتْ سوزي الرسالةَ ونظرتْ إليها وهي تُقلِبُها بين يديها، وقالتْ:

ما هذا بحقَّ السماءِ؟ أنا لا أفهمُ شيئًا.

الرجلُ: ما المشكلةُ آنسةُ سوزي؟

سوزي: هذا كلامٌ غريبٌ وغيرَ مفهومٍ.

الرجلُ: نعم، إنَّها بلُغةِ أهلِ سيراتا، أستطيعُ قِراءتَها لك.

سوزي: حقًّا؟ أرجو أنْ تُسرعَ، لا بُدَّ أنْ يكونَ الأمرُ هامّاً.

أخذَ الرجلُ يقرأُ الرسالةَ، وسوزي تكتبُ مُلاحظاتِها على دفترِها بنشوةٍ وانفعالٍ كبيرٍ.

سبقٌ صحفيٌّ- قالتْ سوزي تُحدِّثُ نفسَها- إنْ كانَ الأمرُ كذلك، سيكونُ أكبرَ حدَثٍ في هذه الأيامِ.

الرجلُ: لكِ هديَّةٌ أُخرَى آنسةُ سوزي.

سوزي: ما هي؟

قـدَّمَ الرجـلُ لسـوزي شـريطًا سـينمائيًا، تفضَّلـي، قـال أصدقائـي بأنَّهـا سـتكونُ مُفيـدةً لـك.

سوزي مُندهشةً: ماذا يُوجدُ في هذا الشريطِ؟

الرجل: لا أدري آنسةُ سوزي.

قالـتْ سـوزي: أشـكرُك علـى كلِّ حـالٍ، أنَـا مُضطـرَّةٌ للمُغـادرةِ سـيدي، سـأعودُ حتمًـا في أقـربِ وقـتٍ مُمكِـنٍ.

ركبـتْ سـوزي سـيارتَها، وتوجَّهـتْ نحـوَ المطـارِ، فيمـا أجـرتْ اتِّصـالاً هاتفيًّـا مـع السـيدِ رونالـد مسـؤولِ المُخابـراتِ في العاصمـةِ:

سيدي، لديَّ معلوماتٌ مُهمَّةٌ وخطيرةٌ.

رونالد: حولَ ماذا آنسةُ سوزي؟

سـوزي: إنَّهـا تكشـفُ سِـرَّ اختفـاءِ السـجينِ الهـاربِ جيرالـد سـيدي، في مدينـةِ برانـس.

رونالـد: السـجينُ الهـاربُ! نعـمْ، تذكَّـرتُ، جيرالـد، أعتقـدُ أنَّ ملـفَّ القضيَّـةِ أُغلِـقَ قبـلَ سـنواتٍ.

سـوزي: نعـمْ سـيدي، لكنَّـني سـأفتَحُهُ مـن جديـدٍ، وسأكشـفُ لكـم عـن الفاعلِ.

رونالد: مَنْ هوَ آنستي؟

سـوزي: إنْ كانَ الأمـرُ يهمـكَ عليـك مُقابلَـتي في مدينـةِ نيـوراك سـيدي، أنـا مُتوجِّهَـةٌ إليهـا الآن.

رونالد: سأكونُ هناك، فأنَا في طريقي إلى المَطارِ.

مدينة نيوراك ١٩٨٦

في الطائرةِ كانتْ سوزي مُرتبكَةً بعضَ الشيءِ، القضيَّةُ التي بينَ يديها إمَّا أنْ ترفعَ من شأنِها، وإمَّا أنْ تقضيَ على مُستقبلِها المِهنيِّ تمامًا، كانتْ تُحدِّثُ نفسَها باستغرابٍ حولَ ما يجري حولَها، هلْ الغرباءُ يُراقبون الكرَةَ الأرضيَّةَ، ويعرفون كلَّ شيءٍ عن سُكَّانِها؟

أمرٌ غريبٌ حقًّا، أخشى أن تكونَ دعابَةً من الرجلِ الغريبِ أو من أهلِ سيراتا كمَا يقولُ عنهم، ماذا يستفيدون من ذلك؟

لماذا أنا بالتحديدِ؟

ثَمَّةَ شكوكٍ كانتْ تُراودُ سوزي حتَّى كادتْ أن تتَّصلَ برونالد وتقولَ له: أرجوك انسَ الأمرَ، لكنَّها كانتْ تعلمُ أنَّ رونالد أجرَى اتِّصالاتٍ عدَّةٍ مع المسؤولين في مدينةِ نيوراك، للتحضيرِ حولَ تلك المُهمَّة، كانتْ تتراجعُ وتقولُ لنفسِها: إنَّ الرجلَ الغريبَ لم يكذبْ قطْ عليها ولا على المُحققين من قبلُ.

وصلَ رونالد إلى مدينةِ نيوراك قبل سوزي بدقائقَ مَعدودةٍ، وانهمَكَ فوْراً في إجراءِ التحقيقِ وفتحَ الملفَّاتِ السابقةِ، وكانَ مع المحققين الذين تابعوا أحداثَ تلك القضيَّةِ في انتظارِ سوزي التي كانتْ في تلك اللحظةِ تدخلُ غرفةَ التحقيقِ:

أهلاً سوزي، تأخَّرْتِ علينا، كنتُ أتوقَّعُ أنْ أجدَك هنا قبلَ وصولي، قال رونالد.

سوزي: نعم سيدي، لقدْ تأخَّرَ موعدُ إقلاعِ الطائرةِ عشرَ دقائقَ.

رونالد: ماذا لديك آنستي؟ نحنُ في شوقٍ شديدٍ لمعرفةِ تلك الأسرارِ.

سوزي: نعم سيدي، أعرفُ القاتلَ.

رونالد: القاتلَ، وهلْ السجينُ قُتِلَ؟

سوزي: نعم سيدي، وأعرفُ أينَ تكونُ الجثَّةُ أيضًا.

المحققُ: هذا مُستحيلٌ آنستي.

سوزي: القاتلُ سيدي يُدعَى توم، وهوَ شقيقُ المغدورِ ماك، الذي قتَلَهُ جيرالد السجينُ هو وأسرَتَهُ.

المحقُق: لا أعتقدُ ذلك، لقد تحقَّقْنَا من الأمرِ في حينِه، ولا يوجدُ دليلٌ واحدٌ ضدَّ توم يُثبتُ عَلاقتَه بقضيَّةِ جيرالد.

سوزي: خطَّطَ توم للإفراجَ عن جيرالد السجينِ بطريقةٍ خياليَّةٍ وبالتعاون مع بلير وهو شريكٌ سابقٌ لجيرالد وماك المغدور من قبلُ وهو شريكٌ لهما أيضًا، لقدْ استعانَ بأصدقاءِ جيرالد وهمَا شابٌ بهلوانيٌّ ولاعبُ سيركٍ معروفٌ اسمُهُ هنري، والآخرُ ريتشارد وهوَ مُحترفٌ في سباقِ السيَّاراتِ.

المحقُق: لا أستطيعُ تصديقَ هذا الكلام آنستي، فهُمَا كمَا ذكرْتِ من أعزِّ أصدقاءِ جيرالد، ولا يُمكنُ بحالٍ من الأحوالِ اشتراكُهمَا في تلك الجريمةِ.

سوزي: لقدْ أَوهمَ توم بلير أنَّهُ صاحبَ شركةٍ، وهوَ بحاجةٍ ماسَّةٍ لشريكٍ تنطبقُ عليه أوصافُ جيرالد؛ لذلك ساعدَهُ بلير في الأمرِ، لا ليقتلَهُ بل ليُطلقَ سَرَاحَهُ، وليعملَ معهما في الشركةِ، وأوهمَهُ أنَّه سيُغيِّرُ من شكْلِهِ لدَى صديقٍ جَرَّاحٍ له، وسيُعطيه

اسماً جديداً وبطاقةَ سفَرٍ جديدةً، الأمرُ الذي حدَا بهما لتصديقِهِ وموافقةِ جيرالد في السجنِ.

رونالد: أرجو أنْ يكونَ ما تقولينَهُ صحيحًا سوزي، الأمرُ لا يتحمَّلُ العبثَ وتضييعَ الوقتِ.

سوزي: قلتُ لكم أنِّي أعرفُ مكانَ الجثَّةِ سيدي والسلاحَ الذي تمَّ تنفيذُ الجريمةِ به.

المحقُق: أنا لا أُصدِّقُ! مِنْ أينَ لكِ بكلِّ هذهِ المعلوماتِ إلَّا أنْ تكوني شريكةً في الجريمةِ آنسةُ سوزي؟

سوزي: لنْ أرُدَّ على اتِّهامِك سيدي المحقق الآن، ولكنَّني أطلبُ من السيد رونالد، أخذَ حقِّي منك بعدَ الانتهاءِ من التحقيقِ.

المحقُق: كلامُك خيَالٌ ومُستحيلٌ! نحنُ قُمْنَا بكلِّ ما يلزمُ من تحقيقاتٍ على مدَى سنواتٍ عِدَّةٍ، واستجوبْنَا كلَّ مَنْ لهم عَلاقةٌ بالأمرِ، ولم نعثرْ على شيءٍ.

سوزي: أرجو ألَّا ترمي بفشلِكَ عليَّ سيدي المُحقِّقُ.

رونالد: هذا كلامٌ غيرَ مفيدٍ، أرجو أنْ نبدأَ في الإجراءاتِ اللازمةِ فورًا.

توجَّهَ بالحديثِ إلى المحقق وقال: عليكَ أنْ تُلقيَ القبضَ على الأربعةِ الذين ذكرتْهُم سوزي فوراً.

المحققُ: حالاً سيدي.

المسؤولُ: ماذا لو أنَّ هؤلاءِ الأربعةَ أنكروا عَلاقتَهم بالأمرِ سوزي؟

سوزي: تفضَّلْ سيدي، هذه الرسالةُ التي وصلتْني اليوم وفيها كلُّ التفاصيلِ التي ذكرتُها، وفيها كيفَ تَمَّ تنفيذُ المُهمَّةِ.

رونالد: ما هذا بحقِّ اللّه سوزي؟ أنا لا أفهمُ شيئاً.

سوزي: نعم سيدي، إنَّها بلغَتِهم، لغةُ أهلِ كوكبِ سيراتا، الذين عاشَ بينهم الرجلُ الغريبُ، وهو لم يكذبْ قطْ من قبلُ.

رونالد: هلْ جُننتِ سوزي؟ هلْ تُراهنين على هذه الرسالةِ؟ وكيفَ عرفوا بأمرِ السجينِ، وتلكَ الخُطَّةِ التي ذكرتيها من قبلُ؟ وماذا تقولُ هذه الرسالةُ؟ ولماذا أرسلوها لكِ أنتِ بالتحديدِ؟

سوزي: لقدْ سألتُ الرجلَ الغريبَ هذا السؤالَ سيدي، وأخبرني بأنَّها سبقٌ صحفيٌّ ومكافأةٌ لي على دعمي المتواصلِ له.

أمَّا ما تقولُه هذه الرسالةُ فاسمحْ لي سيدي، باستجوابِ المتهمِ توم؛ لأنَّني على عِلْمٍ بكلِّ تفاصيلِ الجريمةِ.

رونالد: مع العِلْمِ أنَّ هذا ليسَ من اختصاصِكِ، لكنْ لك ذلك، وأرجو أنْ تكونَ النتائجُ جَيِّدَةً.

في غرفةِ التحقيقِ كانتْ سوزي مع المتهمِ توم، فيما كانَ رونالد والمحققونَ في الغرفةِ المُجاورةِ يُراقبون التحقيقَ باهتمامٍ بالغٍ.

سوزي: سيد توم، أنتَ متهمٌ بقتلِ جيرالد بعدَ تهريبِهِ من عَرَبَةِ السجنِ.

توم: – مُستغرِبًا– أنا لا أعرفُ عمَّا تتحدَّثين.

سـوزي: لا مَجـالَ لتُنكـرَ عَلاقتَـكَ بالأمـرِ سـيد تـوم، اعـترفَ شـركاؤُكَ في الجريمـةِ «بلـير وهنـري وريتشـارد».

تـوم: أؤكِّـدُ لـكِ سيدتي أنـا لا أعـرفُ أحـدًا منهـم، ولا عَلاقـةَ لـي بالأمـرِ، أنـا رجـلٌ شـريفٌ وليـسَ لـي سـوابقُ أبـداً، تسـتطيعين التأكُّـدَ مـن الأمـرِ، لا توجـدُ لـي مصلحـةٌ في ذلـك.

سـوزي: مصلحتُـك سـيد تـوم هـي الثـأرُ لأخيـكَ وعائلَتِـهِ، لا مَجـالَ لتُنكـرَ ذلك.

توم: العدالةُ أخذَتْ مَجراها، وسُجنَ الفاعلُ.

سـوزي: لكنَّـكَ لم تكتـفِ بالعدالـةِ سـيد تـوم، وأردْتَ الانتقـامَ بنفسِـك.

توم: لا يُوجدُ لديكِ دليلٌ واحدٌ ضِدِّي سيدتي.

سـوزي: لقـد خَطَّطْـتَ لإنشـاءِ شـركةٍ وهميَّـةٍ، وأقنعـتَ بلـير بلعبتِك الـتي صدَّقَها.

تـوم: كلامُـكِ مُستحيلٌ سـيدتي! كيـفَ يُوافـقُ علـى التعامـلِ معي، وهـو يعـرفُ أنَّـني شـقيقُ مـاك الـذي قتلوه.

سـوزي: الأمـرُ بسـيطٌ سـيد تـوم، لقـدْ تَنَكَّـرْتَ وأَطَلْـتَ شـعرَكَ، أطلقـتَ لحيتَـكَ، لبسـتَ نظـاراتٍ وقبعـةً جميلـةً كنجـوم السـينما، وانتحلْـتَ شـخصيَّةً مُزيَّفَـةً وجـوازَ سـفرٍ مُـزوَّرٍ، وفتحـتَ مكَتبًـا وهميًّـا كنـتَ تجتمـعُ فيـه مـع بلـير، أليـسَ كذلـكَ سـيد تـوم؟

بدأَ توم يضعفُ وهي تُحاصرُهُ بكلِّ المعلوماتِ عن الأفعالِ التي قام بها ونفَّذَها بِدِقَّةٍ تامَّةٍ، وأخذتْ سـوزي تشـرحُ له تفاصيلَ خُطَّتِهِ كلمةً كلمةً.

وتابعتْ سوزي: سيد توم، وضعتَ مُخدِّرًا قويَّ المفعولِ ليسَ لهُ رائحةٌ في علبةِ سجائرٍ كاملةٍ وأبقيتَ سيجارةً واحدةً دونَ مُخدِّرٍ وضعتَها بالعكسِ، وأعطيتَها لبلير الذي بدورِهِ أعطاها لجيرالد قبلَ يومٍ من مُحاكمَتِهِ، عندما عاد جيرالد من المحكمةِ إلى السجنِ في سيَّارةِ السجنِ وكانَ برفقَتِهِ حارسان، كان ريتشارد يسوقُ سيارةً رياضيَّةً صغيرةً وبجانبه هنري، وفي الخلفِ يجلسُ بلير، لم يستطعْ سائقُ سيارةِ السجنِ كشفَ تلك السيارةِ لصِغَرِها، وعندما اقتربتْ سيارةُ ريتشارد من سيارةِ السجنِ قفزَ هنري خلفَ سيارةِ السجنِ، وكان معه مفاتيحُ عِدَّةٌ منسوخةٌ عن مفاتيحَ سيارةِ السجنِ، فتمَّ فتحُ السيارةِ بأحدِ المفاتيحَ، في حين كان جيرالد أعطى الحارسين سجائرَ وتمَّ تخديرُهما، وفكَّ هنري قيودَ جيرالد، وقيَّدَ الشرطيين، وأخفى آثارَ السجائرِ وخرَجَا من السيارة،وأغلقَها ثانيةً وانتقَلا إلى سيارةِ ريتشارد، وعادَ الجميعُ أدراجَهم في حين كنتَ تنتظرُهم في سيارةٍ مسروقةٍ.

أخذَ توم يتملْمَلُ، وبدأَ العرَقُ يتصبَّبُ من جبينِهِ، أخذَ مِنديلاً من جيبه ومسحَ به وجهَهُ، لاحظتْ سوزي عليه الارتباكَ، أعطتْهُ سوزي مِساحةً من الزمنِ يُراجعُ حساباتِهِ، فيما كانتْ تجوبُ الغرفةَ ذَهابًا وإيابًا، قال يُحدِّثُ نفسَه- كيفَ عرفتْ هذهِ الساقطةُ بما جرَى؟ لعلَّ بلير أو ذلك الأخرقَ تحدَّثَا لها عن العمليةِ أو أخبراها عني! - صمتَ قليلاً- لكنْ حتَّى هما لا يعرفان شيئًا عن التفاصيل، ولم يعرفَا عنِّي شيئاً، اسمي أو عنواني لا شيءَ، لا شيءَ، كلُّ ما يعرفانه بروان ذلك الشخص الذي محوتُه من الوجودِ.

اختلسَ النظرَ نحوَها بطرفِ عينِهِ، تابعَ: لكنَّ هذه الساقطةَ تعرفُ كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ربَّما ليسَ لديها دليلٌ، لنْ أعترفَ بشيءٍ أبدًا، فيما كانَ يُتمتمُ ويسألُ ويستنتجُ اقتربتْ منه سوزي وقالتْ:

ثُمَّ سيد توم، اصطحبتَ جيرالدَ، وعادَ الباقون لممارسةِ أعمالِهم وكأنَّ شيئاً لم يكنْ، أمَّا أنتَ فذهبتَ إلى المصنعِ المهجورِ في طرفِ المدينةِ الشرقيِّ، وعرَّفتَهُ على نفسِكَ، ثُمَّ قتلتَهُ وألقيتَ بجثتِهِ في حُفرةٍ من الباطون ورميتَ المسدسَ على الجثَّةِ ودفنتهما في التراب، وعُدْتَ إلى بلدتكَ فحلقتَ لحيتَكَ ورأسَكَ، وزاولتَ مِهنتَكَ، كأنَّ شيئاً لم يكنْ.

بصماتُك على المسدَّسِ سيد توم، لا مَجالَ لتُنكرَ أبدًا.

حملقَ توم بعينيه وفتحَ فاه، وكأنَّ سيارةً داهمَتْهُ للتوِّ، ثُمذَ وقفَ هائِجاً وصاحَ بأعلى صوتِهِ: نعمْ لقدْ قتلتُه، قتلتُه؛ إنَّه يستحقُّ القتلَ، لقدْ قتلَ أخي وعائلتَه بدم باردٍ، أنا قتلتُه؛ فهوَ يستحقُّ القتلَ، إنَّه مُجرِمٌ... مجرمٌ، لستُ بنادم على ذلك أبدًا، أبدًا، ثُمَّ جلسَ على الكرسيِّ مُجهشًا بالبكاءِ.

دخل المسؤولُ والمحققون بعدَ أنْ اعترفَ توم بجريمَتِه، وأدْلَى بشهادَتِه عن الآخرين الذين ساعدوه في تهريبِ جيرالد، إلَّا أنَّه أخبرَ المحققَ ببراءتِهم من جريمةِ القتلِ، وتَمَّ تحويلُ ملفِّ القضيَّةِ إلى المحكمةِ.

شكرَ المسؤولُ رونالد سوزي على جهودِها، واعتذرَ لها المحققُ عمَّا بَدَرَ منه إزاءَ اتِّهامِهِ لها بأنَّها شريكةٌ في الجريمةِ، استأذنتْ

سوزي من رونالد وعادتْ مُسرعةً إلى جيرسي للوقوفِ إلى جانب الرجلِ الغريبِ وهو يُمثِّلُ مَشاهدَ مُهمَّةً في نهايةِ الفيلم، وهي تعلَمُ جَيِّدًا أنَّ الرجلَ الغريبَ سيعودُ في أيَّةِ لحظةٍ إلى سابقِ عهدِهِ كما أخبرَ الغرباءُ في رسالتِهم.

عادتْ سوزي مُسرعةً إلى شُقَّتِها، وأخرجتْ الشريطَ وشاهدتْ عجبًا، أيقنتْ الآنَ أنَّ الرجلَ صادقٌ تمامًا، وتوجَّهتْ مُباشرةً إلى مَوقعِ التصويرِ؛ لتشهدَ آخرَ لحظاتٍ للرجلِ، قبلَ أنْ يعودَ إلى أصلِهِ، ولِتُقدِّمَ خدمةً كبيرةً للمَخرجَ.

في صباحَ اليوم التالي كانتْ الصحفُ والمجلَّاتُ وعلى صفحاتِها الأولى عناوينُ بالخَطِّ العريضِ:

.... سوزي تكشفُ لغزَ السجينِ الهاربِ.

عمليَّةٌ مُعقَّدَةٌ تكشفُ عنها الصحفيَّةُ سوزي، كشفتْ عن قتلِ السجينِ المفقودِ منذُ سنواتٍ.

توم يعترفُ بجريمتِهِ بتهريبِ جيرالد وقتلِهِ.

قامتْ الشرطةُ فوراً بالكشفِ عن الموقعِ المُحدَّدِ، وتَمَّ العثورُ على جُثَّةِ جيرالد مُتعفِّنَةً، ثُمَّ ألقتْ الشرَطةُ القبضَ على توم الذي اعترفَ بجريمَتِهِ، وأخبرَ عن أصدقاءِ جيرالد الذين ساعدوه في عمليةِ تهريبِهِ، وقَصَّ عليهم كيفَ تمَّ تنفيذُ العمليَّةِ، وكشفَ النقابَ عن السجائرِ التي تحوي مادةً مخدِّرةً، وأنَّ هناك مادَّةٌ شبهُ عطريَّةٍ رَشَّ بها الشرطيين لإخفاءِ آثارِ التدخين.

مدينة جيرسي ١٩٨٦

عـادَ المُخـرجُ وسـوزي والرجـلُ الغريـبُ وحُرَّاسُـهُ لمُتابعـةِ تصويـرِ أحـداثِ الفيلـم، وفي أثنـاءِ كلِّ استراحةٍ، كانَ المُخـرجُ وسـوزي يعكفـانِ علـى أخْـذِ المَعلومـاتِ مـن الرجـلِ الغريـبِ عـن العـالَمِ الآخَـرِ وعـن كوكـبِ سيراتا وعـن كلِّ مـا شـاهدَهُ هنـاك؛ ليسـتطيعَ المُخـرجُ ترجمـةَ ذلـك في لوحـاتٍ رائعـةٍ في فيلمِـهِ؛ لأنَّهمـا خشـيَا أنْ يفقـدَ الرجـلُ تلـك المعلومـاتِ إذا عـادَ لطبيعَتِـهِ.

الرجـلُ وهـو يُمثِّـلُ كانَ فكـرُهُ معهـم... مـع العمـدةِ وأصدقائِـه وعائلَتِـهِ، ربَّمـا كان يُؤنسُـهم بنحيبِـهِ وأشـجانِهِ كلَّمَـا أخـذَ اسـتراحةً بـين فقـراتِ التمثيـلِ.

كانَ الرجـلُ مُذهِـلاً وهـو يقـومُ بـأدوارِه وكأنَّـهُ يعيـشُ حياتَـه الطبيعيَّـةَ بـلا تكلُّـفٍ؛ فينسـى نفسَـه أمـامَ الكاميرا، كان صادِقـاً في كلِّ حركـةٍ وكلمـةٍ، كان المخـرجُ قـدْ أطلَـعَ مُهندسـي الديكـور علـى كلِّ مـا عَرَفَـهُ عـن العـالَمِ الآخـرِ، فواصلـوا العمـلَ ليـلَ نهـارَ لعلَّهـم يسـتطيعون تصويـرَ تلـك المشَـاهدِ قبـلَ أنْ يعـودَ الرجـلُ لطبيعَتِـهِ.

كان الجميـعُ يترقَّـبُ في كلِّ لحظـةِ عـودةَ الرجـلِ لطبيعَتِـهِ ومـا سـيحدُثُ لـه خـلالَ ذلـك، وهـو في بلـدة (نيوفلـج) يقـومُ بالتمثيـلِ بعيـداً عـن والديـه وجامِعَتِـهِ وبيتِـهِ خـلالَ هـذه الفـترةِ القصيرةِ اسـتطاعَ المخـرجُ والفريـقُ الـذي يعمـلُ معـه وبشـكلٍ مُتواصـلٍ إنهـاءَ تصويـرِ مُعظـمِ المشـاهِدِ مـن اللحظـةِ الـتي ظهـرَ فيهـا الرجـلُ أمـامَ المقهـى مـروراً باختفائِـه أثنـاءَ التصويـرِ، وانتهـاءً بعودتِـه إلى بيـتِ والدَيْ سـام.

المخرجُ يشعرُ بالضيقِ الشديدِ؛ لأنَّ الوقتَ قدْ يُداهمُه، والأعمالُ المطلوبُ إنجازُها كبيرةٌ، واللقطاتُ صعبةٌ ومُثيرةٌ، وسوزي في قلقٍ كبيرٍ؛ لأنَّها تعرفُ ما سيحدُثُ للمتهمِ البريءِ، وهي تفكِّرُ في تلكَ اللحظةِ الحرجةِ وما عليها القيامُ به حَينِها، فنصَّبَتْ نفسَها حاميةً للرجلِ كأنَّها جليسةُ أطفالٍ، تُراقبُ الوضعَ عن كَثَبٍ، والجميعُ مُنهمكون لإتمامِ اللقطاتِ الأخيرةِ التي تُعتَبرُ في غايةِ الأهميَّةِ.

يُريدُ المُخرجُ أنْ يقومَ بتصويرِ المَشاهدِ الأخيرةِ المتعلقةِ بالحياةِ على كوكبِ سيراتا، وهي المشاهدُ الأكثرُ صعوبةً؛ لما تَتَطلَّبُ من ديكوراتٍ خاصَّةٍ وألبسَةٍ وأقنعةٍ.

تقدَّمتْ سوزي نحوَ المخرجَ وهو يستعدُّ لتصويرِ لقطاتِ الحياةِ على الكوكبِ.

سوزي: سيدي المخرجُ، لا داعي لهذهِ اللقطاتِ.

المخرج: إنَّها أهمُّ ما في الفيلمِ آنسةُ سوزي.

سوزي: حسَنًا، يُمكنُني أنْ أُقدِّمَ لك فيلمًا، لكلِّ لحظةٍ عاشَها الرجلُ مع الغرباءِ.

المخرج: أحقًّا تعنين ذلك؟ ألديكِ فيلمٌ بكلِّ شيءٍ؟

سوزي: أجلْ، ولكنْ علينا أنْ نتَّفقَ أولاً، كم هي النسبة التي ستُعطيني إياها مقابلَ ذلك؟

المخرج: أشاهدُ الفيلمَ أولاً ثُمَّ نتفقُ.

قالتْ سوزي: لك ذلك، هيَّا بنا الآنَ.

المخـرجُ مَشـدوهٌ تمامـا وهـو يشـاهدُ عجبًـا للرجـلِ علـى ذلـك الكوكـبِ وللمخلوقـاتِ الغريبـةِ الـتي تعيـشُ هنـاك وللتقـدُّمِ الكبـيرِ الموجـودِ لـدى الغربـاءِ.

المخـرجُ: هـذا رائـعٌ، رائـعٌ جِـدًّا، آنسـةُ سـوزي، هـلْ تقبلـين بنسـبةِ ١٠٪ مـن الفيلـمِ لقـاءَ هـذه المشـاهدِ؟

سـوزي: حسـنًا، ولكـنْ علـى شـرطِ أنْ تُعيـدَ الشـريطَ إلـيَّ بعـدَ الانتهـاءِ منـه.

كان الرجـلُ مُسـتلقيًا علـى السـريرِ وطاقـمُ المُصوريـن مـن حولِـهِ، والـكلُّ يتأمَّـلُ ويُراقـبُ نهـوضَ الرجـلِ مـن سـريرِهِ، أخـذَ ينظـرُ لَـنْ حولَـهُ مُسـتغرباً، ويلتفـتُ يُمنـةً ويُسـرةً، ويتعجَّـبُ كأنَّـه لم يـرَ تلـك الوجـوهَ مـن قبـلُ، ولم يتعامـلْ معهـا، ولم يمـضِ وقـتٌ طويـلٌ بينهـا.

أخـذَ الرجـلُ يتلمَّـسُ نفسَـه بيديـه وهـو يـرى الأطبَّـاءَ حولَـهُ، وهـو مُسـتلقٍ علـى سـريرٍ في غرفـةٍ غريبـةٍ أمـامَ أشـخاصٍ غربـاءَ، يلبسـونَ أقنعـةً مُخيفـةً، فقـال لهـم: أيـنَ أنـا؟ مـاذا أفعـلُ هنـا؟ مَـنء أنتـم؟

كانَ كلُّ مَـنْ لا يعـرفُ حقيقـةَ هـذا الرجـلِ مُندهشـاً مـن تصرُّفِـهِ، لكـنَّ سـوزي وهـي تنتظـرُ هـذه اللحظـةَ بفـارغِ الصـبرِ حدّقـتْ فيـه مليّـاً بينَمـا أصـابَ الوجـومُ المخـرجَ الـذي يعـرفُ مـاذا حـدثَ لـه، وتمنَّـى لـو لم يحـدثْ ذلـك إلّا بعـدَ إكمـالِ التصويـرِ والانتهـاءِ مـن الفيلـمِ.

سوزي: هلْ هناك شيءٌ جديدٌ؟

الرجـلُ: شـيءٌ جديـدٌ! أنـا لا أعـرفُ مـاذا أفعـلُ هنـا! كيـفَ جئـتُ وتركـتُ والـديَّ وجامِعَـتي؟

قالت سوزي: مَنْ أنتَ؟

الرجل: أنَا سام من بلدةِ (ترنتون).

سوزي مُبتسمةً: أعرفُ ذلك، وأعرفُ والديك أيضاً، ولكنَّك تقومُ الآنَ بتمثيلِ شخصيَّةِ جو.

الرجلُ: أُمثِّلُ! جو! ماذا تقولين؟ ومَنْ أنتِ؟

عرفتْ سوزي بأنَّ سام لم يتذكَّرْ أيَّ شيءٍ مِمَّا حدثَ له، وطلبتْ إيقافَ التصوير، واصطحبتْهُ برفقةِ الشرطيِّ الخاصِّ الموجودِ لحراستهِ وأحدِ المُصوِّرين، واتَّصلتْ بوالديه هاتفياً وبالمُحقق المسؤولِ، وعادتْ به إلى مدينة (ترنتون) إلى حيثُ والديه، لم يكنْ يتوقَّعُ أحدٌ أنَّ سام فَقَدَ من عمرِهِ أكثرَ من ستِّ سنواتٍ يعيشُ بشخصيَّةِ جو، وأنَّ سام لم يعترفْ بتلك السنواتِ التي تبخَّرَتْ من حياتِهِ، ولم يتذكَّرْ تلك الأحداثَ التي جرتْ له فيها.

مدينة ترنتون ١٩٨٦

خشيَ المسؤولون أنْ يتعرَّضَ سام لصدمةٍ جديدةٍ، اتَّصلوا بوالديه وأخبروهما بأنَّ سام ما زالَ يعتقدُ أنَّه طالبٌ في السنةِ الثالثةِ في الجامعةِ، كانَ الوالدان ينتظران ابنَهما في المطارِ، وهما لا يعرفان بعدُ كيفَ سينظرُ إليهما ابنُهما؟ وكيفَ سيستقبلُهما بعد تلك السنين؟

كانتْ لحظةً عاصفةً مليئةً بالحنين، ولكنَّ الأمَّ أخذتْ ابنَها بالحبِّ والحنانِ، وهيَ تضمُّهُ لصدرِها بعدَ طولِ غيابٍ، وهوَ

يُبادِلُها الشعورَ نفسَه، والأبُ يحنو على الاثنين بالقُبَلِ والدموعِ.

كانتْ سوزي تنظرُ لهذا المشهدِ المُثيرِ والرائعِ، ولم تتمالكْ نفسَها؛ لأنَّ ذلك ليسَ مُجرَّدَ مشهدٍ من فيلمٍ أو مسرحيَّةٍ، بل كان عفويّاً صادقاً يفيضُ بكلِّ مشاعرِ الحنانِ، بَينَما كانَ المُصوِّرُ يلتقطُ الصورَ لهم والتي كلَّفَهُ بها المُخرجُ؛ لأنَّها بالتأكيدِ ستكونُ مُفيدةً للفيلمِ.

استقلَّ الجميعُ سيارةَ العائلةِ مُتوجِّهين للمنزلِ، كان سام مُطمئنّاً جِدّاً، وهو يدخلُ المنزلَ بكلِّ ثِقَةٍ، ولا يبدو عليه أيَّةُ علامةِ استغرابٍ لغيابِهِ سنين طويلةً، إنَّما دخلَ وكأنَّه عائدٌ من جامعته، ثُمَّ استأذنَ من الجميعِ وقال لهم: إنَّني مُتعبٌ سأصعدُ لغرفتي لأستريحَ.

في تلك اللحظةِ كان المسؤولُ يجتمعُ مع الأخصائي النفسي لبحثِ حالةِ سام، ومُساعدتِهِ للعودةِ إلى حالتِهِ الطبيعيَّةِ، بعد لحظاتٍ عاد سام لينضمَّ إلى والديه وسوزي، لكنَّه أخبرَ الأبَ أنَّه لم يجدْ التقريرَ الذي تعبَ عليه؛ ولأنَّه سيُقدِّمُه لأستاذِهِ في الجامعةِ نهارَ الغدِ، كادتْ الأمُّ أنْ تقولَ له حقيقةَ الأمرِ لولا أنَّ سوزي تدخَّلتْ في الوقتِ المناسبِ، وأخبرتْهُ بأنَّ عليه أنْ يبحثَ جَيِّداً بين كُتُبِهِ.

أدركَ الأبُ أنَّ عليه مسؤوليَّةٌ كبيرةٌ للمُحافظةِ على ابنِه لئلَّا يفقدَه من جديدٍ، استأذنَتْ الصحفيَّةُ من عائلةِ سام ووعدتْهُم بالعودةِ، وأخبرتْ الوالدَ أنَّها ستذهبُ للمُحققِ للمُساعدةِ في إيجادِ حلٍّ لمُشكلةِ سام، وأوصتْهُ بالتعامُلِ بحذَرٍ مع سام حتَّى حضورِ الطبيبِ النفسيِّ.

اتصلتْ سوزي بالمَسؤولِ الذي أكَّدَ لها أنَّ أخصائيّاً نفسيّاً في طريقِهِ إلى منزلِ سام، وطَلَبَ منها الانضمامَ له للمُساعدةِ في أوَّلِ مُقابلةٍ للأخصائيّ النفسيّ مع سام، علمَ بأنَّ المشكلةَ ليستْ

سهلةً، وأنَّ عليه بذلَ جهودٍ مُكثَّفةٍ، وكان سعيداً بوجودِ سوزي التي رافقتْهُ مُدَّةً طويلةً، وتعرِفُ عنه كلَّ شيءٍ، وهذا يساعدُ في التغلُّبِ على حلِّ مشكلتِهِ.

بذلَ الوالدان جُهوداً مُكثَّفةً لمُساعدةِ سام، وهُما يجمعان حولَه مُعظَمَ أصدقائِهِ وزُملائِهِ، لئلاَّ يشعرُ بالتغيُّرِ الذي حصلَ عليه وهو لا يعلمُ، استمعَ الطبيبُ النفسيّ من والديه ومن سوزي ومن زُملائِهِ إلى كلِّ ما يُريدُ، وكانَ يصطحِبُ سام برفقةِ سوزي إلى أفلامٍ سينمائيَّةٍ خياليَّةٍ، وكان يعرضُ عليه لقطاتٍ من المشاهدِ التي قامَ بتمثيلِها مع المخرجَ.

استغربَ سام للتشابُهِ الكبيرِ بينَه وبينَ بطلِ الفيلم، وهو لا يعلمُ أنَّه مَنْ قام بالتمثيلِ، وكرَّرَ الطبيبُ مشاهدةَ تلك اللقطاتِ، وبعد جهد جهيدٍ وجلساتٍ مُطوَّلةٍ أخبرَ الطبيبُ سام أنَّه كانَ هدَفاً لتجاربَ عِلميَّةٍ قام بها علماءُ من كوكبٍ آخرَ.

جُنَّ جُنونُ سام، وأنكرَ ذلك كلَّه، ولم يُصدِّقْ أنَّ ستَّ سنواتٍ من عُمْرِهِ مضتْ أدراجَ الرياحَ ولم يشعرْ بها، كانَ سام يشعرُ بكابوسٍ كبيرٍ وحُلْمٍ مُخيفٍ، لكنَّ الطبيبَ قام بتنويم سام في عددٍ من الجلساتِ تنويماً مغناطيسيّاً، ساعدتْ كثيراً في عِلاجِه، وبالتعبِ والعطاءِ والتعاوُنِ الكبيرِ استطاعَ كلٌّ من الطبيبِ وسوزي والوالدان والكثيرُ مِمَّنْ كان له اتِّصالٌ بسام إخراجَهُ من تلك الدائرةِ التي كادتْ أنْ تنزلقَ به في متاهاتٍ نفسيَّةٍ لا أحدَ يعي خطورَتَها عليه.

اقتنعَ سام بالذي جرَى له وتقبَّل الوضعَ الجديدَ، ولم يجدْ مفرّاً من المُوافقةِ على طلبِ سوزي بإكمالِ الفيلمِ الذي بدأَهُ، فقدْ

نجـحَ في ذلـك نجاحـاً كبـيراً، وباسـتطاعته أنْ يكـونَ بطـلاً ومُمثِّـلاً رائعـاً، كانـتْ سـوزي تعـرِضُ عليـه في أوقـاتِ الراحـةِ أثنـاءَ التمثيـلِ ألبومـاً مـن الصـورِ الـتي تجمـعُ بينهمـا في أماكـنَ كثـيرةٍ والـتي تـدلُّ علـى مـدَى التفاهـمِ والانسـجامِ بينهمـا.

كان لتلـك الصـورِ أثـرٌ كبـيرٌ في قلـبِ سـام؛ مِمَّـا جَعَلَـهُ يَثِـقُ بهـا، لما رأى منهـا احترامـاً كَبـيراً وتضحيَـةً لا تُوصَـفُ، وهـي تُرافقُـهُ في رحلـةٍ طويلـةٍ مـن الأَلَمِ والمعانـاة حتَّـى تَعافـى بشـكلٍ كامـلٍ.

كانـتْ الوالـدةُ تُشـجِّعُ سـام علـى التقرُّبِ مـن سـوزي لمـا رأتْ منهـا شـعوراً كبـيراً مليئـاً بالحـبِّ والحنـانِ نحـوَ سـام، لم تكتـفِ سـوزي بأنْ يكـونَ سـام مُمَثِّـلاً وإنَّمـا شـجعتْهُ علـى إكمـالِ دراسـته الجامعيَّـة؛ لأنَّ ذلـك سـيكونُ لـه أثـرٌ كبـيرٌ في نجاحِـهِ وتوسـيعِ علاقاتِـه الاجتماعيَّـةِ.

مدينة جيرسي ١٩٨٦

كان للفيلـم الـذي قـام ببطولتِـه سـام الأثـرُ الكبـيرُ في تميُّـزِهِ أمـامَ الكامـيرا؛ فقـَدْ أعطتْـهُ اللقطـاتُ والأحـداثُ ثِقَـةً بالنفـسِ وجُـرأةً في الحديـثِ كأنَّـهُ بطـلٌ بـارعٌ ولـه بـاعٌ طويـلٌ في التمثيـلِ، لم يعـدْ لسـوزي حاجـةٌ للوقـوفِ إلى جانـبِ سـام بعـدَ أنْ عـادَ لطبيعتِـهِ، إلَّا أنَّهـا أصـرَّتْ علـى إكمـالِ مسـيرتِها بالوقـوفِ إلى جانبـه كأنَّهـا تنتظـرُ أنْ تجـدَ نهايـةً مَنطقيَّـةً لروايتِهـا الـتي أضافـتْ إليهـا الكثـيرَ، أصبحـتْ العَلاقـةُ بـين الاثنـين روتينيَّـةً؛ إذْ يجتمعـان في سـاعاتِ الأكلِ والشـربِ وفي مُراجعـةِ أدوارِهِ ومُناقشـتِهِ في الحـوارِ حـولَ تلـك الأدوارِ.

في الأحداثِ الأخيرةِ للفيلم وفي اليوم الأخيرِ وأثناءَ استراحةٍ قصيرةٍ قبلَ تصويرِ اللقطاتِ الأخيرةِ لعلاجَ سام وعودتِهِ إلى طبيعتِهِ، كانَ سام وسوزي يجلسان وحيدين يتحاوران حولَ نهايةِ الفيلم، كانتْ تلك اللحظاتُ لحظاتِ صمتٍ ونظراتٍ مُختلسَةً بينهما، وهُما يُفكِّرَان في الوداع، حتَّى ذهبَ كلُّ واحدٍ منهما بفكرِهِ إلى ما سيكونُ عليه حالُهُ بعدَ أنْ تعوَّدَ كلٌّ منهما على الآخر؛ سوفَ تكونُ تلك الحياةُ صعبةً، وسوفَ تطولُ عليهما الأيامُ حتَّى يتعوَّدا على أنْ يعيشَا دونَ أنْ يرى الواحدُ منهما الآخرَ.

كانتْ نظرةً أخيرةً طويلةً حزينةً تغلغلَتْ في الأعماقِ إلى وجدانِ القلبِ؛ فتسارعَتْ دقَّاتُ قلبيهما واقشعرَّتْ جلودُهما، وشعرَا بنشوَةٍ غامرَةٍ، ما زالتْ النظراتُ مُتبادلَةً، حتَّى مدَّ كلٌ منهما يَدَهُ للآخرِ بكلِّ حبٍّ وانسجامٍ وصاحَ الاثنان:

نعم، نعم، مُوافقُ، مُوافقةٌ

ما زالتْ أيديهما مُتشابكةً، خرجَ الاثنان إلى المُخرجَ ومَنْ معه وهم مُستعدُّون لتصويرِ اللقطاتِ الأخيرةِ قالتْ سوزي للمُخرجَ:

سيدي المُخرجُ، أنَا كاتبةُ الروايةِ، وأنَا مَنْ سيَضَعُ لها النهايةَ، التي أرجو أنْ تنالَ إعجابَك.

المُخرجُ: يُسعدُني ذلك، إنْ كانتْ نهايةً جَيِّدَةً فلا بأسَ عندي، سنُمدِّدُ العملَ ليوم آخرَ، وسأدفعُ فَرْقَ التكاليفِ بكلِّ حُبٍّ، ولكنْ ما هي النهايةُ يا آنسةُ سوزي؟

قال سام وسوزي بصوتٍ واحدٍ: لقدْ قرَّرْنا الزواجَ سيدي.

صاحَ المُخرِجُ وصاحَ الجميعُ بفرحةٍ وسعادةٍ:

نهايةٌ مُوفَّقَةٌ، نهايةٌ جيدَةٌ، مبروكٌ لكُما، مبروكٌ للجميعِ.

لم تكنْ النتيجةُ مفاجأةً، والكلُّ كانَ يتوقَّعُها، لكنَّ المُفاجأةَ أنْ تكونَ سريعةً لهذه الدرجةِ، هكذا أنهتْ سوزي روايتَها بتلك النتيجةِ الرائعةِ، وأسدلتْ الستارةَ على الفصلِ الأخيرِ منها، وأكملَ المخرجُ فيلمَه بتلك النتيجةِ المُبهجةِ، وفي اليوم التالي أُقيمَ حفلٌ كبيرٌ دُعيَ له الكثيرُ مِمَّنْ له عَلاقةٌ بالاثنين خاصَّةً المحققَ.

وقفَ المحققُ أمامَ الحفلِ الكبيرِ والتقطَ الميكروفون وقال لهم: أيَّتُها السيداتُ، أيُّها السادةُ.

الرجاءُ الانتباهَ الشديدَ، لكم مُفاجأةٌ سارَّةٌ وغيرَ مُتوقَّعةٍ، حرصتُ ألَّا يطَّلِع عليها أحدٌ إلَّا في الوقتِ المُناسبِ، كنتُ أتوقَّعُ هذه النهايةَ السعيدةَ لسام وسوزي، وأنا أغتنمُ هذه الفرصةَ واللحظاتِ السعيدةَ لأضفيَ عليها سعادةً وابتسامةً، كان الجميعُ مشدودين إلى المحققِ لمعرفةِ ماذا يُخفي عنهم، بعدما اعتقدَ الجميعُ أنَّ المفاجآتِ انتهتْ والألغازَ حُلَّتْ بعودةِ سام إلى طبيعتِهِ، تابعَ المحققُ قائلاً:

سيداتي وسادتي، الجميعُ يعلمُ ما حدثَ لسام وحكايتَهُ مع جو، وقدْ كشفتْ تلك المُغامرةُ أسراراً كبيرةً وهامَّةً، وبيَّنتْ أنَّ سوزي هي حفيدةُ جو، وأمَّا المفاجأةُ التي أخفيتُها عنكم، فقدْ كشفتْ الرسالةُ الأخيرةُ التي بعثَها إلينا العلماءُ الذين أجروا التجاربَ على سام أنَّ سام هو حفيدُ رجلٍ اسمُه جورج، وجورج هذا هو ابنُ جو أيضًا وشقيقُ نيكسون، وهذا يعني أنَّ جو هو الجدُّ الأوَّلُ لسام ولسوزي أيضاً، وأنهما أبناءُ عمومةٍ.

تفاجأَ الجميعُ خاصَّةً والدَي سام وسوزي الذين كانوا مشدودين وكأنَّ على رؤوسهم الطيرَ، ثُمَّ اقتربَ كلٌّ منهم نحوَ الآخر، وتعانقَ الجميعُ، ثُمَّ صاحَ المخرجُ قائلاً:

نكتفي بهذا أيُّها الأخوة والأخوات، ودعونا نُكملُ اللقطةَ الأخيرةَ من الفيلمِ، هيَّا الجميعُ يستعدُّ للتصويرِ، ثُمَّ التفتَ نحوَ مُساعدِهِ وقال:

هلْ السيارةُ البيضاءُ جاهزةٌ؟

مُساعدُ المخرجَ: نعم إنَّها تنتظرُ منذُ ساعةٍ.

المخرجُ: إذاً، لنودِّعْ العروسين قبلَ أنْ يُغادرا موقعَ الاحتفالِ إلى الفندقِ.

هكذا تبادلَ المدعوون والعروسان التهاني والتبريكاتِ، ثُمَّ غادرا موقعَ الاحتفالِ مُتوجّهين إلى السيارةِ، ثُمَّ غادرتْ السيارةُ البيضاءُ المكشوفةُ والعروسان يلوِّحان بأيديهما، والجميعُ يقذفونهما بالوردِ والفُلِّ في حفلٍ بهيجٍ، كانتْ الأمُّ سعيدةً ودموعُ الفرحةِ واضحةٌ في عيونِها.

تابعَ سام دراستَه الجامعيَّةَ لكنَّه أحبَّ التمثيلَ واتخذَهُ مِهنةً رئيسةً له، لكنَّ سوزي تركتْ الصحافةَ إلى الكتابةِ بعدما كسبتْ خبرةً طويلةً من مُتابعتِها لأحداثِ سام، مِمَّا أهَّلها لتكونَ كاتبةً ناجحةً، أحدثتْ روايتُها نجاحاً كبيراً، وكانَ الفيلمُ الذي صُوِّرَ عنها ناجحاً أيضاً، وأصبحتْ سوزي مَعروفةً كأديبةٍ، كما كانتْ معروفةً كصحفيَّةٍ.

للتواصل مع الكاتب الروائي

رياض حلايقه

00962797554417

Riadh1956@yahoo.com

/https://web.facebook.com

/https://www.linkedin.com/feed

https://twitter.com

obeikan.com